بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الطارق

مكية، وهي سبع عشرة آية

[١] ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾.

[٣] ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿والسماءِ والطارِقِ﴾ قَسَمان: ﴿السماء﴾ قَسَم، و ﴿الطارق﴾ قَسَم. والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿ومَا أدراكَ ما الطارِقُ. النَّجْمُ الثاقِبُ﴾. واختلف فيه؛ فقيل: هو زُحَل: الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن[1] في تفسيره، وذكر له أخباراً، الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: إنه الثُّريا. وعنه أيضاً أنه زُحَل؛ وقاله الفراء. ابن عباس: هو الجَدْي. وعنه أيضاً وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ والفراء: ﴿النجم الثاقِب﴾: نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخَذَت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زُحَل؛ فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد. وحكى الفراء: ثَقُبَ الطائر: إذا ارتفع وعلا. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً مع أبي طالب، فأنحط نجم، فأمتلأت الأرض نوراً، ففزِع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: «هذا نجم رُميَ به، وهو آية من آيات الله» فعجِب أبو طالب، ونزل: ﴿والسماءِ والطارِقِ﴾. وروي عن ابن عباس أيضاً ﴿والسماءِ والطارِقِ﴾ [قال:[2] السماء] وما يطْرُق فيها. وعن

(١) لعل المراد به: أبو بكر العطار: محمد بن الحسن بن مقسم.

(٢) زيادة عن الطبري.

ابن عباس وعطاء: ﴿الثاقب﴾: الذي تُرْمَى به الشياطين. قتادة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليلٍ، وكل من أتاك ليلاً فهو طارق. قال:

ومِثلَك حبلى قد طرقت ومرضِعاً فألهيتها عن ذِي تمائم مُغْيِلِ[١]

وقال:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تَطَيَّبِ

فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلاً، ومنه الحديث: «نهى النبيّ ﷺ أن يطرُق المسافر أهلَه ليلاً، كي تستحِدّ المُغِيبة، وتمتشط الشَعِثة»[٢]. والعرب تسمي كل قاصدٍ في الليل طارقاً. يقال: طرق فلان إذا جاء بليل. وقد طرُق يطرق طروقاً. فهو طارق. ولابن الرومِي[٣]:

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّلِهِ إن الحوادث قد يطرُقن أسحاراً

لا تفرحَنَّ بليلٍ طابَ أوّله فرب آخرِ ليلٍ أجَّجَ النارا

وفي «الصحاح»: والطارق: النجم الذي يقال له كوكب الصبح. ومنه قول هند[٤]:

نحنُ بناتِ طارِقِ نمشي على النمارِقِ

أي إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء. الماورديّ: وأصل الطَّرْق: الدّق، ومنه سميت المِطرقة، فسمي قاصدُ الليلِ طارقاً، لاحتياجه في الوصول إلى الدق. وقال قوم: إنه قد يكون نهاراً. والعرب تقول؛ أتيتك اليوم طَرْقَتين: أي مرتين. ومنه قوله ﷺ:

---

(١) البيت لامرىء القيس. والتمائم: التعاويذ التي تعلق في عنق الصبي. وذو التمائم: هو الصبي. والمغيل: الذي تؤتى أمه وهي ترضعه. ويروى: «محول» بدل «مغيل» وهو الذي أتى عليه الحول.

(٢) الاستحداد: حلق العانة بالحديد. والمغيبة: التي غاب عنها زوجها. والشعثة: التي تلبد شعرها.

(٣) لم نعثر على هذين البيتين في ديوان ابن الرومي. وقد أورد الجاحظ البيت الأول في كتابه «الحيوان ٦/٥٠٨ طبع مطبعة الحلبي» غير منسوب. ولم يعرف أن الجاحظ يستشهد بشعر ابن الرومي. وقد توفي الجاحظ وكانت سن ابن الرومي ٣٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومي. وقد أورد أيضاً العزالي في «الإحياء ٣/ ١٨٠ طبع الحلبي» البيت الأول ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته.

(٤) هي هند بنت بياضة بن رباح بن طارق الإيادي، قالت هذا الرجز يوم أحد تحض على الحرب، والرجز بأكمله في «اللسان»: طرق.

«أعوذ بك من شر طوارقِ الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن». وقال جرير في الطروق:

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا حيـن الـزيـارة فـارجِعِـي بسـلامِ

ثم بين فقال: ﴿وما أدراكَ ما الطارق. النجْمُ الثاقِبُ﴾ والثاقب: المضيء. ومنه ﴿شِهاب ثاقِب﴾(١). يقال: ثَقُب يَثْقُب ثُقُوباً وثقابة: إذا أضاء. وثُقُوبُه: ضوءه. والعرب تقول: أثقِب نارك؛ أي أضئها. قال:

أذاعَ به في الناسِ حتّى كأنَه بعليـاءَ نـارٌ أُوقـدتْ بثَقُـوبِ

الثَّقوب: ما تشعل به النار من دُقاق العِيدان. وقال مجاهد: الثاقب: المتوهِّج. القشيري: والمعظَم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العُموم(٢)، كما ذكرنا عن مجاهد. ﴿وما أدراك ما الطارِق﴾ تفخيماً لشأن هذا المقسَمِ به. وقال سفيان: كل ما في القرآن ﴿وما أدراك﴾؟ فقد أخبره به. وكل شيء قال فيه ﴿وما يدريك﴾: لم يخبره به.

[٤] ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

قال قتادة: حَفَظة يحفظون عليك رِزقك وعملك وأجلك. وعنه أيضاً قال: قرينه يحفظ عليه عمله: من خير أو شر. وهذا هو جواب القسم. وقيل: الجواب ﴿إنه على رجعِهِ لقادِر﴾ في قول الترمذيّ: محمد بن علي. و ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، و ﴿ ما ﴾: مؤكدة، أي إن كل نفس لعليها حافظ . وقيل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات ، حتى يُسلمها إلى القدر . قال الفراء: الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبيّ. وقال أبو أُمامة: قال النبيّ ﷺ : « وُكِّل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يَذُبُّون عنه ما لم يقدر عليه. من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب. ولو وكِل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين». وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة «لَمَّا» بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات.

(٢) أي لم يرد به نجم معين، كالثريا أو زحل، كما قال بعض المفسرين.

هذيل. يقول قائلهم: نَشَدتك لمَّا قمت. الباقون بالتخفيف، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿له معقبات مِن بينِ يديهِ ومِن خلفِهِ يحفظونه مِن أمرِ اللَّهِ﴾[١]، على ما تقدم. وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لها لم تبق. وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضارّه.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل: ﴿فالله خيرٌ حافِظاً﴾[٢]، وقال: ﴿قل من يكلؤكم بِالليلِ والنهارِ مِن الرحمنِ﴾[٣]. وما كان مثله.

[٥] ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

[٦] ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

[٧] ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

[٨] ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُر الإنسان﴾ أي ابن آدم ﴿مِمَّ خُلِق﴾؟ وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يُمْلِي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره. و ﴿مِمَّ خُلِق﴾؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال: ﴿خُلِق﴾ وهو جواب الاستفهام ﴿مِن ماءٍ دافِقٍ﴾ أي من المنِيّ. والدّفْق: صب الماء، دفقت الماء أَدْفُقُهُ دفقاً؛ صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق؛ كما قالوا: سِرّ كاتِم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دُفِقَ الماء، على ما لم يُسَمَّ فاعله. ولا يقال: دَفَقَ الماءُ[٤]. ويقال: دَفَقَ الله رُوحه: إذا دُعِي عليه بالموت. قال الفراء والأخفش: ﴿من ماءٍ دافِقٍ﴾ أي مصبوب في الرّحِم. الزجاج: من ماء ذي اندفاق. يقال: دارع وفارس ونابل؛ أي ذو فرس، ودِرع، ونبل. وهذا مذهب سيبويه. فالدافق هو المندفق بشدّة قوّته. وأراد ماءين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لَكِنْ جعلهما ماء واحد لامتزاجهما. وعن عكرمة عن ابن عباس: ﴿دافِقٍ﴾ لَزِج. ﴿يخرج﴾

---

(١) راجع ٩/ ٢٩١. (٢) آية ٦٥ سورة يوسف. (٣) آية ٥٢ سورة الأنبياء.

(٤) بل يقال ذلك، ونقله صاحب اللسان عن الليث. وانظره أيضاً في «المصباح المنير» للفيومي.

أي هذا الماء ﴿مِن بينِ الصُّلْبِ﴾ أي الظهر. وفيه لغات أربع[١]: صُلْب، وصُلُب ـ وقرىء بهما ـ وصَلَب (بفتح اللام)، وصالب (على وزن قالَب)؛ ومنه قول العباس[٢]:

تُنْقَــلُ مــن صــالــبٍ إلــى رَحِـمِ

﴿والترائِب﴾: أي الصدر، الواحدة: تَرِيبة؛ وهي موضع القِلادة من الصدر. قال:

مَهْفهفــة بيضــاء غيــرُ مُفــاضــةٍ ترائبُها مصقولة كالسَّجَنْجَلِ[٣]

والصُّلْب من الرجل، والترائب من المرأة. قال ابن عباس: الترائب: موضع القلادة. وعنه: ما بين ثدييها؛ وقال عكرمة. ورُوِي عنه: يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين؛ وبه قال الضحاك. وقال سعيد بن جبير: هو الجِيد. مجاهد: هو ما بين المنكِبين والصدر. وعنه: الصَّدَر. وعنه: التراقي. وعن ابن جبير عن ابن عباس: الترائب: أربع أضلاع من هذا الجانب. وحكى الزجاج: أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر. وقال معمر بن أبي حبيبة المَدَنيّ: الترائب عُصارة القلب؛ ومنها يكون الولد. والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر[٤]. وقال دُريد بن الصمة:

فإن ندبِروا نأخذُكُم في ظهورِكُمْ وإن تقبِلوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر:

وبدت كأن ترائباً من نحرها جمرُ الغَضَى في ساعدٍ تتوقد

وقال آخر:

والـزعفـرانُ علـى تـرائبِهـا شِرق به اللبات والنحرُ[٥]

---

(١) بل هي ثلاث فقط؛ أما صلب بضمتين، فضمة العين إتباع للفاء، وليست لغة ثابتة (انظر «تاج العروس»: صلب). (٢) هو ابن عبد المطلب، يمدح النبيّ ﷺ، وتمام البيت:

إذا مضــى عــالــم بــدا طبــق

(٣) البيت من معلقة امرىء القيس. والمهفهفة: الخفيفة اللحم، التي ليست برهلة ولا ضخمة البطن. والمفاضة: المسترخية البطن. والسجنجل: المرآة. وقيل: سبيكة الفضة، أو الزعفران، أو ماء الذهب. (٤) في بعض نسخ الأصل: «أنها عظام النهد والصدر».

(٥) البيت للمخبل. وشرق الجسد بالطيب امتلأ فضاق. واللبات (جمع لبة): موضع القلادة.

وعن عكرمة: الترائب: الصدر؛ ثم أنشد:

نِظَـــامُ دُرٍّ علـــى تـــرائبهـــا

وقال ذو الرمّة:

ضَـرَجْـن البـرود عـن تـرائـب حـرّة(١)

أي شققن. ويروى ﴿ضرحن﴾ بالحاء؛ أي ألقين. وفي «الصحاح»: والتريبة: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والثَّنْدُوة.

قال الشاعر:

أشـرفَ ثَـديـاهـا علـى التَّـرِيـبِ(٢)

وقال المثقّب العَبْدِيّ:

ومِن ذَهَبٍ يُسَنّ(٣) على تَرِيبٍ كلون العاج ليسَ بذي(٤) غُضونِ

[عن غير الجوهريّ. الثندوة للرجل: بمنزلة الثدي للمرأة. وقال الأصمعيّ: مَغْرِز الثدي. وقال ابن السكيت: هي اللحم الذي حول الثدي؛ إذا ضممت أوّلها همزت، وإذا فتحت لم تهمز(٥)]. وفي «التفسير» يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب. ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدّم؛ وقاله الأعمش. وقد تقدّم مرفوعاً في أوّل سورة ﴿آل عمران﴾(٦). والحمد لله وفي ﴿الحجرات﴾ ﴿إنا خلقناكم مِن ذكرٍ وأنثى﴾ وقد تقدّم(٧). وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين. وهذا لا يعارض قوله: ﴿من بين الصلب﴾؛ لأنه

---

(١) تمام البيت:

وعـــن أعيـــن قتلتنـــا كـــل مقتـــل

(٢) القائل: هو الأغلب العجلي. وعجز البيت:

لـــم يعـــدوا التفليـــك فـــي النتـــوب

وتفلك ثدي الجارية: استدار. والنتوب: النهود، وهو ارتفاعه. (٣) كذا في بعض النسخ والطبري وفي بعضها: «يسر» بالراء. وفي روح المعاني: «يبين». وفي اللسان وشعراء النصرانية «يلوح».

(٤) في «اللسان» مادة (ترب): «. . . ليس له غضون». والبيت من قصيدة مكسورة القافية، مطلعها:

أفـاطـم قبـل بينـك متعينـي ومنعـك مـا سـألـت كـأن تبينـي

(٥) ما بين المربعين ساقط من بعض نسخ الأصل. (٦) راجع ٧/٤. (٧) راجع ٣٤٣/١٦.

إن نزل من الدماغ، فإنما يمرّ بين الصلب والترائب. وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب. وقال الحسن: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة. ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يُشْبه الرجل والديه كثيراً[1]. وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني. وأيضاً المكثر من الجماع يجد وجعاً في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلوّ صلبه عما كان محتبساً من الماء. وروى إسماعيل عن أهلِ مكة ﴿يخرج من بين الصُّلُب﴾ بضم اللام. ورُوِيت عن عيسى الثقفي. حكاه المهدويّ وقال: من جعل المنِيّ يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في ﴿يخرج﴾ للماء. ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان. وقرىء ﴿الصَّلَب﴾، بفتح الصاد واللام. وفيه أربعُ لغات[2]: صُلْب وصُلُب وصَلَب وصَالَب. قال العَجَّاج:

فـي صَلَـبٍ مثـلِ العِنـان المـؤدَمِ

وفي مدح النبيّ ﷺ:

تُنقَـلُ مـن صَالَـبٍ إلـى رَحِـمِ[3]

الأبيات مشهورة معروفة. ﴿إنه﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿على رَجْعِهِ﴾ أي على ردّ الماء في الإحليل، ﴿لقادِر﴾ كذا قال مجاهد والضحاك. وعنهما أيضاً أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب؛ وقاله عكرمة. وعن الضحاك أيضاً أن المعنى: إنه على ردّ الإنسان ماء كما كان لقادر. وعنه أيضاً أن المعنى: إنه على ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر. وكذا في المهدوِيّ. وفي الماوردِيّ والثعلبيّ: إلى الصِّبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر. وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضاً: إنه على ردّ الإنسان بعد الموت لقادر. وهو اختيار الطبريّ. الثعلبيّ؛ وهو الأقوى لقوله تعالى: ﴿يومَ تُبْلَى السَّرائِر﴾. قال الماورديّ: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرَّجْعة.

---

(١) وقال الأستاذ الإمام في تفسير جزء «عمّ»: كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

(٢) انظر ما سبق في ص ٥. (٣) تمام البيت: إذا بدا عالم بدا طبق

وهو من قول للعباس بن عبد المطلب في مدح النبيّ ﷺ.

[٩] ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝﴾ .

فيه مسألتان:

الأولى ـ العامل في ﴿يومَ﴾ ـ في قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان ـ قوله ﴿لقادر﴾، ولايعمل فيه ﴿رَجْعِه﴾ لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر ﴿إنّ﴾. وعلى الأقوال الأخر التي في ﴿إنه على رجْعِه لقادِر﴾، يكون العامل في ﴿يومَ﴾ فعل مضمر، ولا يعمل فيه ﴿لقادر﴾؛ لأن المراد في الدنيا. و ﴿تُبْلَى﴾ أي تمتحن وتختبر؛ وقال أبو الغُول الطُّهَوِيّ(١):

ولا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ صَلُوا بالحَرْب حِينا بعدَ حِينِ

ويروى ﴿تبلى بَسالتُهم﴾. فمن رواه ﴿تُبلى﴾ ـ بضم التاء ـ جعله من الاختبار؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكراهة؛ كأنه قال: لا يُعرف لهم فيها كراهة. و ﴿تُبْلَى﴾ تُعْرَف. قال الراجز:

قد كنتَ قبل اليوم تَزْدَرِيني فاليومَ أَبلُوكَ وتَبْتَلِينِي

أي أعرفك وتعرفني. ومن رواه ﴿تَبْلَى﴾ ـ بفتح التاء ـ فالمعنى: أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زماناً بعد زمان. وذلك أن الأمور الشِّداد إذا تكررت على الإنسان هَدّته وأضعفته. وقيل: ﴿تُبْلَى السرائر﴾: أي تخرج مخبآتها وتظهر، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر، وأضمره من إيمان أو كفر؛ كما قال الأحوص:

سَيبقى(٢) لها في مُضْمَرِ القلب والحَشَا سريرةُ ودّ يوم تُبْلَى السَّرائرُ

---

(١) هو شاعر إسلامي، منسوب إلى «طهية»، بضم الطاء، وهي أم قبيلة من العرب.

(٢) كذا ورد في بعض نسخ الأصل و «خزائن الأدب» ١/ ٣٢٢ وفي بعض نسخ الأصل، والشعر والشعراء، و («كتاب الأغاني» ٤/ ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية): «ستبلى لكم...».

الثانية ـ رُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ائتمن الله تعالى خلقه على أربع: على الصلاة، والصوم، والزكاة، والغُسل، وهي السرائرالتي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة». ذكره المهدويّ. وقال ٱبن عُمر قال النبيّ ﷺ: «ثلاث من حافظ عليها فهو وليّ الله حقاً، ومن اختانهنّ فهو عدوّ الله حقاً: الصلاة، والصوم، والغُسل من الجنابة» ذكره الثعلبيّ. وذكر الماورْدِيّ عن زيد بن أسلم: قال رسول الله ﷺ: «الأمانة ثلاث: الصلاة، والصوم، والجنابة. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الصلاة، فإن شاء قال صليت ولم يصل. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الصوم، فإن شاء قال صمت ولم يصم. استأمن الله عز وجل ٱبن آدم على الجنابة، فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل، اقرءوا إن شئتم ﴿يوم تُبْلَى السرائر﴾»، وذكره الثعلبي عن عطاء. وقال مالك في رواية أشهب عنه، وسألته عن قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾: أَبَلغك أن الوضوء من السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدّث[1] به فلا. والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصل. ومن السرائر ما في القلوب؛ يجزي الله به العباد. قال ٱبن العربيّ: «قال ٱبن مسعود يُغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشدّ ذلك الوديعة؛ تُمَثّل له على هيئتها يوم أخذها، فيرمى بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دَهْرَ الداهرين. وقال أبيّ بن كعب: من الأمانة أن اتُّمنتِ المرأة على فرجها. قال أشهب: قال لي سفيان: في الحَيضة والحمل، إن قالت لم أحِض وأنا حامل صُدّقت، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة. وفي الحديث «غُسل الجنابة من الأمانة». وقال ابن عُمر: يُبدِي الله يوم القيامة كل سر خفيّ، فيكون زينا في الوجوه، وشينا في الوجوه. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

(١) في ابن العربي: «أخذته».

[١٠] ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فما له﴾ أي للإنسان ﴿مِن قوةٍ﴾ أي مَنْعة تمنعه. ﴿ولا ناصِرٍ﴾ ينصره مما نزل به. وعن عِكرمة ﴿فما له من قوّةٍ ولا ناصِرٍ﴾ قال: هؤلاء الملوك، ما لهم يوم القيامة من قوّة ولا ناصر. وقال سفيان: القوّة: العَشِيرة. والناصر: الحلِيف. وقيل: ﴿فما له من قوّةٍ﴾ في بدنه. و ﴿لا ناصِرٍ﴾ من غيره يمتنع به من الله. وهو معنى قول قتادة.

[١١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾.

[١٥] ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿والسماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ أي ذات المطر. ترجِع كل سنة بمطر بعد مطر. كذا قال عامة المفسرين. وقال أهل اللغة: الرجْع: المطر، وأنشدوا للمُتَنَخِّل يصف سيفاً شبهه بالماء:

أبيضُ كالرجْعِ رَسُوبٌ إذا ... ما ثاخ في مُحْتَفَلٍ يَخْتلِي

[ثاخت قدمه في الوحل تثوخ وتثيخ: خاضت وغابت فيه؛ قاله الجوهري][١].

قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، والرجع أيضاً: نبات الربيع. وقيل: «ذاتِ الرجعِ»: أي ذات النفع. وقد يُسمى المطر أيضاً أَوْبا، كما يسمى رَجْعا، قال:

رَبّاء شَمّاءُ لا يأوِي لِقُلّتِها ... إلا السحابُ وإلا الأوبُ والسَّبَلُ[٢]

(١) ما بين المربعين ذكر في هامش بعض نسخ الأصل. والمحتفل: أعظم موضع في الجسد. ويختلي: يقطع. (٢) البيت للمتنخل الهذلي. قال السكري في شرح هذا البيت: «رباء يربأ فوقها؛ يقول لا يدنو لقلتها، أي لرأسها. أي لا يعلو هذه الهضبة من طولها. إلا السحاب والأوب. والأوب: رجوع النحل. والسبل: القطر حين يسبل».

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يَرْجعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى. وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد. وهذا قَسَم. ﴿والأرض ذاتِ الصَّدْعِ﴾ قَسَم آخر؛ أي تتصدّع عن النبات والشجر والثمار والأنهار؛ نظيره ﴿ثم شَقَقْنا الأرض شَقا﴾[١]... الآية. والصدع: بمعنى الشَّق؛ لأنه يصدع الأرض، فتنصدع به. وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صادع للأرض. وقال مجاهد: والأرض ذات الطُّرُق التي تَصْدَعها المشاة. وقيل: ذاتِ الحَرْث، لأنه يصدعها. وقيل: ذاتِ الأموات: لانصداعها عنهم للنشور. ﴿إنهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ على هذا وقع القَسَم. أي إن القرآن يَفْصل بين الحق والباطل. وقد تقدّم في مقدمة الكتاب[٢] ما رواه الحارث عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتاب فيه خَبَر ما قبلكم وحُكم ما بعدكم، هو الفَصْل، ليس بالهزل، من تركه من جَبَّار قَصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله». وقيل: المراد بالقول الفصل: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: ﴿إنه على رجعِهِ لقادِر. يوم تُبْلَى السرائر﴾. ﴿وما هُوَ بِالهزْلِ﴾ أي ليس القرآن بالباطل واللعب. والهزل: ضدّ الجِدّ، وقد هَزَلَ يَهْزِل. قال الكميت.

يُجَدّ بنا في كلّ يومٍ ونَهْزِل[٣]

﴿إنهم﴾ أي إن أعداء الله ﴿يكِيدون كَيْدا﴾ أي يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابِهِ مَكرا. ﴿وأكِيد كيداً﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم. وقيل: هو ما أوقع الله بهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر. وقيل: كَيْد الله: استدراجُهم من حيث لا يعلمون. وقد مضى هذا المعنى في أوّل ﴿البقرة﴾، عند قوله تعالى: ﴿الله يستهزِىء بِهم﴾. مستوفًى[٤].

---

(١) آية ٢٦ سورة عبس.

(٢) راجع ١/ ٥ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٣) صدر البيت:

أرانا على حب الحياة وطولها

(٤) راجع ١/ ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة.

[١٧] ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فمهلِ الكافِرين﴾ أي أخرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارْضَ بما يدبره[١] في أمورهم. ثم نسخت بآية السيف ﴿فاقتلو المشرِكين حيث وجدتموهم﴾[٢]. ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ تأكيد. ومَهْل وأمهِل: بمعنى؛ مثل نَزِّل وأَنْزِل. وأمهله: أنظره، ومهله تمهيلاً، والاسم: المُهْلَة. والاستمهال: الاستنظار. وتَمهَّل في أمره أي اتّأد. واتْمَهَلْ اتْمِهْلالا: أي اعتدل وانتصب. والاتْمِهلال أيضاً: سكون وفتور. ويقال: مهلا يا فلان؛ أي رِفقا وسكونا. ﴿رُوَيْدا﴾ أي قريبا؛ عن ابن عباس. قتادة: قليلا. والتقدير: أمهلهم إمهالاً قليلاً. والرُّوَيْد في كلام العرب: تصغير رُوْد. وكذا قاله أبو عبيد. وأنشد:

كـأنَّهـا ثَمِـلٌ يمشِـي علـى رُودِ[٣]

أي على مَهَل. وتفسير ﴿رُوَيدا﴾: مَهْلا، وتفسير (رُوَيْدَك): أمهِل؛ لأن الكاف إنما تَدْخله إذا كان بمعنى أفعِل دون غيره، وإنما حرّكت الدال لالتقاء الساكنين، فنُصِب نصب المصادر، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد؛ وهو مصدر أَرْوَد يُرْوِد. وله أربعة أوجه: اسمٌ للفعل، وصفة، وحال، ومصدر فالاسم نحو قولك: رُوَيْدَ عَمْرا؛ أي أروِد عمرا، بمعنى أمهِله. والصفة نحو قولك: ساروا سيراً رُوَيْدا. والحال نحو قولك: سار القوم رُوَيْداً؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالا لها. والمصدر نحو قولك: رُوَيْدَ عَمرِو بالإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿فضَرْبَ الرقابِ﴾[٤]. قال جميعه الجوهريّ. والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر؛ أي إمهالا رُوَيدا. ويجوز أن يكون للحال؛ أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب. ختمت السورة.

---

(١) في بعض النسخ «يريده». (٢) آية ٥ سورة التوبة.
(٣) هذا عجز بيت للجموح الظفري. وصدره:
تكـــاد لا تثلـــم البطحـــاء وطـــأتهـــا
(٤) آية ٤ سورة محمد.

سورة «الأعلى»

مَكّية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مَدَنِيَّة. وهي تسع عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾.

يُستحب للقارىء إذا قرأ ﴿سبحِ اسم ربك الأعلى﴾ أن يقول عَقِبه: سبحانُ ربي الأعلى؛ قاله النبيّ ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: إن للهِ تعالى مَلَكاً يقال له حِزْقيائيل، له ثمانيةَ عَشَر ألفَ جَناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر: هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام. ثم أوحى الله إليه: أيها المَلَك، أَنْ طِرْ، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوّة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضاً؛ فأوحى الله إليه: أيها المَلَك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوّتك لم تبلغ ساق عرشي. فقال المَلَك: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّح اسم رَبِّكَ الأعلَى﴾، فقال النبيّ ﷺ: «اجعلوها في سُجودكم». ذكره الثعلبيّ في (كتاب العرائس) له. وقال ابن عباس والسُّديّ: معنى ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي عظم ربك الأعلى. والاسم صِلة، قصِد بها تعظيم المسمَّى؛ كما قال لَبِيد:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما[١]

---

(١) تمامه:

ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والبيت من قصيدة له، يخاطب بها ابنتيه، مطلعها:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعما يقول فيه الملحدون. وذكر الطبريّ أن المعنى نزِّه ٱسم ربك عن أن تسمى به أحداً سواه. وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم. وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسَمّى. روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل على ٱسم الله؛ فإن ٱسم الله هو الأعلى. وروى أبو صالح عن ابن عباس: صَلِّ بأمر ربك الأعلى. قال: وهو أن تقول سبحان ربك الأعلى. ورِوِي عن عليّ رضي الله عنه، وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربِّيَ الأعلى؛ امتثالا لأمره في ابتدائها. فيُختار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ. وقيل: إنها في قراءة أُبيّ: ﴿سبحان ربي الأعلى﴾. وكان ابن عمر يقرؤها كذلك. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: «سبحان ربِّيَ الأعلى». قال أبو بكر الأنباريّ: حدّثني محمد بن شَهْرِيار، قال: حدّثنا حسين بن الأسود، قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حَمَّاد قال: حدّثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة ﴿سَبِّح ٱسم رَبِّكَ الأعلى﴾، ثم قال: سبحان رَبي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى. قال: لا، إنما أُمِرنا بشيء فقلته، وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ قال: لما نزلت: ﴿سَبِّح ٱسمَ رَبِّك الأعْلى﴾ قال رسول الله ﷺ: «ٱجعلوها في سجودكم». وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى. وقيل: إن أوّل من قال: (سبحان ربي الأعلى) ميكائيل عليه السلام. وقال النبيّ ﷺ لجبريل: «يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته». فقال: «يا محمد، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولها في سجوده أو في غير سجوده، إلا كانت له في ميزانه أثقل من العرش والكرسيّ وجبال الدنيا، ويقول الله تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له،

وأدخلته الجنة. فإذا مات زاره مِيكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يارب شَفِّعني فيه، فيقول قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة». وقال الحسن: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي صلِّ لربك الأعلى. وقيل: أي صلِّ بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمُكَاءِ والتصدية[١]. وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك. قال جرير:

قَبَحَ الإلـهُ وَجوهَ تغلِبَ كلَّما ... سَبَحَ الحجيجُ وكَبَّروا تكبيراً

[٢] ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾.

[٥] ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿الذي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قد تقدّم معنى التسوية في ﴿الانفطار﴾ وغيرها[٢]. أي سوّى ما خلق، فلم يكن في خلقه تثبيج[٣]. وقال الزجاج: أي عدّل قامته. وعن ابن عباس: حسن ما خلق. وقال الضحاك: خلق آدم فسوّى خلقه. وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوّى في أرحام الأمّهات. وقيل: خلق الأجساد، فسوّى الأفهام. وقيل: أي خلق الإنسان وهيأه للتكليف. ﴿الذِي قَدَّر فَهَدَى﴾ قرأ عليّ رضي الله عنه والسُّلَمِيّ والكِسائيّ ﴿قَدَرَ﴾ مخففة الدال، وشدّد الباقون. وهما بمعنى واحد. أي قدّر ووفق لكل شكل شكله. ﴿فَهَدَى﴾ أي أرشد. قال مجاهد: قدّر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة. وعنه قال: هَدَى الإنسانَ للسعادة والشقاوة، وهَدَى الأنعام لمراعيها. وقيل: قدّر أقواتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعيهم إن كانوا وَحْشا. وروي عن ابن عباس والسُّدِّيّ ومقاتل والكلبيّ في قوله: ﴿فَهَدَى﴾ قالوا: عَرَّف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى، كما قال في (طه): ﴿أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى﴾[٤] أي الذكر للأنثى. وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له. وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه

---

(١) المكاء: الصفير. والتصدية التصفيق. قال ابن عباس: «كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم».

(٢) راجع ١٩/ ٢٢٤. (٣) التثبيج: التخليط. (٤) آية ٥٠.

استخراجها منها. وقيل: ﴿قَدَّر فهدَى﴾: قدّر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به. يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألفُ سنة عمِيت، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازِيانج[١] الغضّ يرد إليها بصرها؛ فربما كانت في برِيَّة بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوِي تلك المسافة على طولها وعلى عماها، حتى تهجُم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى. وهدايات الإنسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوامّ الأرض باب واسع، وشَوْط بطِين[٢]، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى. وقال السُّدّيّ: قدّر مدّة الجنين في الرّحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرّحم. وقال الفراء: أي قدّر، فهدى وأضل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿سرابِيل تقِيكم الحر﴾[٣] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وإنك لتهدِي إلى صِراطٍ﴾[٤] أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان. وقيل: ﴿فهدى﴾ أي دلهم بأفعاله على توحيده، وكونه عالماً قادراً. ولا خلاف أن من شدّد الدال من ﴿قَدَّر﴾ أنه من التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾[٥]. ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى. ويحتمل أن يكون من القُدْرة والمُلْك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى. هو تفسير العلوّ الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿والذِي أَخرج المَرْعَى﴾ أي النبات والكلأ الأخضَر. قال الشاعر[٦]:

وقد ينْبُتُ المَرْعَى على دِمنِ الثَّرَى ... وَتبقَى حَزازات النفوسِ كما هِيَا

---

(١) الرازيانج: شجرة يسميها أهل اليمن (السمار)، ومن خصائصها أن عصارة أغصانها وأوراقها تخلط بالأدوية التي تحد البصر وتجلوه (انظر المعتمد في الأدوية المفردة لملك اليمن يوسف بن رسول، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة). (٢) أي بعيد. (٣) آية ٨١ سورة النحل.
(٤) آية ٥٢ سورة الشورى. (٥) آية ٢ سورة الفرقان. (٦) هو زفر بن الحارث.
والدمن: السرقين ـ الزبل ـ المتلبد بالبعر. والثرى: التراب والأرض.

﴿فَجَعَلَه غُثاءً أَحْوى﴾ الغُثاء: ما يقذِف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقُماش[١]. وكذلك الغُثّاء (بالتشديد). والجمع: الأغثاء. قتادة: الغثاء: الشيء اليابس. ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبِس: غُثاءٌ وهَشِيم. وكذلك للذي يكون حول الماء من القُماش غثاء؛ كما قال:

كـأنّ طَمِيّـةَ[٢] المُجَيمِرِ غُـدْوةً ... من السَّيْل والأَغثاء[٣] فلْكَةُ مِغْزَلِ

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجَفَاً[٤]. وكذلك الماء: إذا علاه من الزَّبَد والقُماش ما لا ينتفع به. والأَحْوى: الأسود؛ أي أن النبات يضرب إلى الحُوَّة من شدّة الخضرة كالأسود. والحوّة: السواد؛ قال الأعشى[٥]:

لَمْيَـاء فـي شَفَتيهـا حُـوّةٌ لَعَـسٌ ... وفي اللِّثاتِ وفي أَنيابها شَنَب

وفي الصحاح: والحـوّة: سمـرة الشفـة. يقـال: رجـل أحـوى، وٱمـرأة حـوّاء، وقـد حَوِيت. وبعير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة. وتصغير أحوى أحيوٍ؛ في لغة من قال أسَيْوِد. ثم قيل: يجوز أن يكون ﴿أحوى﴾ حالا من ﴿المَرعَى﴾، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غثاء. يقال: قد حَوِيَ النبت؛ حكاه الكسائي. وقال:

(١) القماش (بالضم): ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء. وقماش كل شيء: فتاته.

(٢) كذا رواه صاحب اللسان في (طما)، وقال: طمية: جبل وفي بعض النسخ ومعلقة أمرىء القيس:

كـأن ذرا رأس المجيمـر غـدوة

وقد أشار التبريزي شارح المعلقة إلى الرواية الأولى. قال: «والمجيمر»: أرض لبني فزارة. وطمية: جبل في بلادهم. يقول: قد ٱمتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء.

(٣) في المعلقة: «الغثاء» قال التبريزي: ورواه الفراء «من السيل والأغثاء»: جمع الغثاء، وهو قليل في الممدود. قال أبو جعفر: من رواه الأغثاء فقد أخطأ؛ لأن غثاء لا يجمع على أغثاء، وإنما يجمع على أغثية؛ لأن أفعلة جمع الممدود، وأفعالا جمع المقصور، نحو رحا وأرحاء.

(٤) في الأصول: (وانجفى)، وهو تحريف عن (جفأ). والجفاء كغراب: ما يرمي به الوادي.

(٥) كذا في جميع نسخ الأصل، وهو خطأ. والبيت لذي الرمة كما في ديوانه واللسان. واللمياء من الشفاه: اللطيفة القليلة الدم. واللعس (بفتحتين): لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلا؛ وذلك يستملح. والشنب: برودة وعذوبة في الفم، ورقة في الأسنان.

وغَيثٍ من الوسْمِيِّ حُوٌّ تِلاعُه تبطَّنتــــه بشَيظَـــم صَلَتـــانِ[(١)]

ويجوز أن يكون ﴿أحوى﴾ صفة لـ ﴿غثاء﴾. والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته. وقال أبو عبيدة: فجعله أسودَ من آحتراقه وقدمه؛ والرَّطب إذا يبِس آسودّ. وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبِس آسودّ من آحتراقه، فصار غُثاء تذهب به الرياح والسيول. وهو مَثَل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

[٦] ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾.

[٧] ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾.

[٨] ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك. وهذه بُشْرَى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كَفَيتُكَه. قال مجاهد والكلبي: كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم للنبيّ ﷺ بأوّلِها، مخافة أن يَنْساها؛ فنزلت: ﴿ سَنُقرِئك فلا تَنْسَى ﴾ بعد ذلك شيئاً، فقد كَفَيتُكَه. ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أَن تنسى شيئاً؛ كقوله تعالى: ﴿ خالِدِينَ فِيها ما دامتِ السمواتُ والأَرضُ إلا ما شاءَ رَبُّك﴾[(٢)] ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألاَ يمنعه شيئاً. فعلى هذا مجارِي الأَيمان؛ يُسْتثنَى فيها ونية الحالف التمام. وفي رواية أبي صالح عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، ﴿إلا ما شاء الله﴾. وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسَى شيئاً؛ ﴿إلا

(١) الوسمي: مطر أوّل الربيع؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. نسب إلى الوسم. والتلاع: جمع التلعة؛ وهي أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل، ثم يدفع منها إلى تلعة أسفل منها. وهي مكرمة من المنابت: وقيل: التلعة مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض. وتبطنته: دخلته. والشيظم: الطويل الجسيم الفتى من الناس والخيل. والصلتان: النشيط الحديد الفؤاد من الخيل.

(٢) آية ١٠٨ سورة هود.

ما شاء الله﴾. وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء اللَّهُ أن يَنْسَى، ولكنه لم ينسَ شيئاً منه بعد نزول هذه الآية. وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذاً قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسياناً كُلّيا. وقد رُوِي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسِب أُبيّ أنها نسِخت، فسأله فقال: «إني نسيتها». وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيّك. ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النسخ. وقيل: النسيان بمعنى الترك؛ أي يعصِمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه. فهذا في نسخ العمل، والأوّل في نسخ القراءة. قال الفَرْغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهلُ البَسْط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيْسانَ النحويّ، وكان رجلاً جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقرِئك فلا تنسى﴾؟ فأجابه مسرعاً ـ كأنه تقدّم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنْسَى العملَ به. فقال ابن كيسان: لا يَفْضُضِ الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: ﴿فلا﴾: للنفي لا للنهي. وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء[1] لأن رؤوس الآي على ذلك. والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسِيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأوّل هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتاً معلوماً. وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل: المعنى فجعله غثاء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إنه يعلم الجهر﴾ أي الإعلان من القول والعمل. ﴿وما يخفى﴾ من السر. وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك. ﴿وما يخفى﴾ هو ما نسخ من صدرك. ﴿ونيسرك﴾: معطوف على ﴿سنقرِئك﴾ وقوله: ﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض. ومعنى ﴿لِليسرى﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير. قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيراً. ابن مسعود: ﴿لِليسرى﴾ أي للجنة. وقيل: نوفقك للشريعة اليسرى؛ وهي الحنيفية السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

(١) يريد الألف في (تنسى)، وأصلها الياء (نسي ينسى).

[٩] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعِظ قومك يا محمد بالقرآن. ﴿إنْ نفعتِ الذكرى﴾ أي الموعظة. وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر. وكان ابن عباس يقول: تنفع أوليائي، ولا تنفع أعدائي. وقال الجُرجانِيّ: التذكير واجب وإن لم ينفع. والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى؛ أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿سرابِيل تقِيكُمُ الحَرَّ﴾[1]. وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم. وقيل: إنّ ﴿إنْ﴾ بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون ﴿إنْ﴾ بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شَجَرة. وذكر بعض أهل العربية: أنّ ﴿إنْ﴾ بمعنى إذْ؛ أي إذْ نفعت؛ كقوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلَونَ إنْ كنتم مؤمِنِين﴾[2] أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم. وقيل: بمعنى قد.

[١٠] ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾.

أي من يَتّق الله ويخافه. فروى أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم. الماوَرْدِيّ: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء. وقيل: أي عَمِّمْ أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القُشيريّ.

[١١] ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾.

[١٢] ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ويتجنّبها﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها. ﴿الأشقى﴾ أي الشقيّ في علم الله. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة. ﴿الذِي يصلى النار الكبرى﴾

---

(١) آية ٨١ سورة النحل. (٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران.

أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قاله الفرّاء. وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا؛ وقاله يحيى بن سلام. ﴿ثم لا يموت فِيها ولا يحيى﴾ أي لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا مَا لنفسٍ لا تموتُ فينقضِي عَناها ولا تَحيا حياةً لها طَعْمُ

وقد مضى في ﴿النساء﴾[1] وغيرها حديث أبي سعيد الخُدْريّ، وأن الموحدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم ـ وهي النار الصغرى على قول الفراء ـ احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشْفَع فيهم. خرّجه مسلم. وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، هذا الوعيد للأشقى، وإن كانَ ثمَّ شقِيَ لا يبلغ هذه المرتبة.

[١٤] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَح﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تَطَهَّر من الشرك بإيمان؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة. وقال الحسن والربيع: من كان عمله زاكياً نامِياً. وقال مَعْمر عن قتادة: ﴿تَزَكَّى﴾ قال بعمل صالح. وعنه وعن عطاء وأبي العالية: نزلت في صدقة الفِطر. وعن ابن سِيرينَ ﴿قد أفلحَ مَنْ تَزَكَّى. وذكر ٱسم ربهِ فصلى﴾ قال: خرج فصلَّى بعد ما أدّى. وقال عكرمة: كان الرجل يقول أقدّم زكاتي بين يدي صلاتي. فقال سفيان: قال الله تعالى: ﴿قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وذكر ٱسم ربهِ فصلى﴾. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ وابن عمر: أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد. وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سِقاية الماء. وروى كَثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قد أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال: «أخرج زكاة الفِطر»، ﴿وذَكَر ٱسمَ ربِّهِ فصلى﴾ قال: «صلاة العيد». وقال ابن عباس والضحاك: ﴿وذكَر ٱسمَ ربِّهِ﴾ في طريق المصلَّى ﴿فصلَّى﴾ صلاة العيد. وقيل: المراد

(١) راجع ١٩٦/٥.

بالآية زكاة الأموال كلها، قاله أبو الأحوص وعطاء. وروى ابن جُرَيج قال: قلت لعطاء: ﴿قَدْ أفلحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ للفطر؟ قال: هي للصدقات كلها. وقيل: هي زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال؛ أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال في المال: زَكَّى، لا تَزَكَّى. وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «﴿قد أفلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي من شهد أَنْ لا إلَه إلاَّ اللَّهُ، وخَلع الأندادَ، وشهد أني رسولُ الله». وعن ابن عباس ﴿تزكَّى﴾ قال: لا إله إلا الله. وروى عنه عطاء قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، مائلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْرَ والرطبَ إلى دار الأنصاريّ، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «إن أخاك الأنصاريّ ذكر أن بُسْرك ورُطَبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها»؟ فقال: أبيع عاجلاً بآجل! لا أفعل. فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت ﴿قد أفلح من تزكى﴾. ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُها الأَشقَى﴾. وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

الثانية ـ قد ذكرنا القول في زكاة الفِطر في السورة ﴿البقرة﴾[1] مستوفى. وقد تقدّم أن هذه السورة مكية؛ في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عِيد ولا زكاة فطر. القشيرِي: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمتثل أمره في صدقة الفِطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وذكر ٱسمَ ربِّهِ فصلَّى﴾ أي ذكر ربه. وروى عطاء عن ٱبن عباس قال: يريد ذكر معاده وموقفه بين يد الله جل ثناؤه، فعبده وصلَّى له. وقيل: ذكر ٱسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة، لأنها لا تنعقد إلا بذكره؛ وهو قوله: الله أكبر: وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة معطوفة عليها. وفيه حجة لمن قال: إن الافتتاح جائز بكل ٱسم من أسماء الله عز وجلّ. وهذه مسألة خلافية

(١) راجع ١/٣٤٣ فما بعد.

بين الفقهاء. وقد مضى القول في هذا في أوّل سورة ﴿البقرة﴾[١]. وقيل: هي تكبيرات العيد. قال الضحاك: ﴿وذكر ٱسم ربِهِ﴾ في طريق المصلَّى ﴿فصلَّى﴾؛ أي صلاة العيد. وقيل: ﴿وذكر ٱسم ربِهِ﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته، فيخاف عقابه، ويرجو ثوابه؛ ليكون استيفاؤه لها، وخشوعه فيها، بحسب خوفه ورجائه. وقيل: هو أن يفتتح أوّل كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم. ﴿فصلَّى﴾ أي فصلَّى وذكر. ولا فرق بين أن تقول: أكرمتني فزرتني، وبين أن تقول: زرتني فأكرمتني. قال ٱبن عباس: هذا في الصلاة المفروضة، وهي الصلوات الخمس. وقيل: الدعاء؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة. وقيل: صلاة العيد؛ قاله أبو سعيد الخُدرِيّ وٱبن عمر وغيرهما. وقد تقدم. وقيل: هو أن يتطوّع بصلاةٍ بعد زكاته؛ قاله أبو الأحوص، وهو مقتضى قول عطاء. ورُوِيَ عن عبد الله قال: من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له.

[١٦] ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦﴾.

قراءة العامة ﴿ بل تؤثِرون ﴾ بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبيّ ﴿ بل أنتم تؤثِرون ﴾ . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم ﴿ بل يؤثِرون ﴾ بالياء على الغيبة؛ تقديره : بل يؤثِرُون الأشْقَون الحياة الدنيا . وعلى الأوّل فيكون تأويلها بل تؤثرون أيُّها المسلمون الاستكثار من الدنيا ، للاستكثار من الثواب . وعن ٱبن مسعود أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حَضَرتْ وعجِلَت لنا طيباتها، وطعامها وشرابها، ولذاتها وبهجتها، والآخرة غُيبت عنا، فأخذنا العاجل، وتركنا الآجل. وروى ثابت عن أنس قال: كُنَّا مع أبي موسى في مسِير، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا. قال أبو موسى: يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يَفْرِي الأديم بلسانه فرياً ، فتعال فلنذكر ربنا ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما ثَبَر[٢] الناس ! ما بَطَّأَ بهم ؟ قلت الدُّنيا والشيطان

(١) راجع ١/ ٥٧١ فما بعد.

(٢) الثبر: الحبس؛ أيّ ما الذي صدهم ومنعهم عن طاعة الله.

والشهوات. قال: لا، ولكن عُجِّلتِ الدنيا، وغُيبت الآخرة، أما والله لو عاينوها ما عَدَلوا ولا مَيَّلوا[١].

[١٧] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾.

أي والدار الآخرة؛ أي الجنة. ﴿خير﴾ أي أفضل. ﴿وأبقى﴾ أي أدوم من الدنيا. وقال النبيّ ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليمّ، فلينظر بِمَ يرجع» صحيح. وقد تقدم[٢]. وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يُؤْثَر خزف يبقى، على ذهب يفنى. قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى.

[١٨] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨﴾.

[١٩] ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأولى﴾ قال قتادة وابن زيد: يريد قوله ﴿والآخِرة خير وأبقى﴾. وقالا: تتابعت كتب الله جل ثناؤه ـ كما تسمعون ـ أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا. وقال الحسن: ﴿إنّ هذا لفِي الصحف الأُولى﴾ قال: كُتُبِ الله جل ثناؤه كلها. الكلبيّ: ﴿إنّ هذا لفِي الصحفِ الأُولى﴾ من قوله: ﴿قد أفلح﴾ إلى آخر السورة؛ لحديث أبي ذرّ على ما يأتي. ورَوى عِكرمة عن ابن عباس: ﴿إنّ هذا لفي الصحف الأولى﴾ قال: هذه السورة. وقال والضحاك: إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى. ﴿صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى﴾ يعني الكتب المنزلة عليهما. ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. وروى الآجُرّي من حديث أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله، فما

---

(١) قوله «ما عدلوا»: ما ساووا بها شيئاً. وقوله «ولا ميلوا»: أي ما شكوا ولا ترددوا (عن النهاية لابن الأثير).

(٢) راجع ٤/ ٣٢٠.

كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلُّها: أيها الملك المتسلِّط المُبتَلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر. وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث][1] ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع[2] الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، وَمَرَمَّة لمعاشٍ، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شانه، حافظاً للسانه. ومن عدّ كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلاَّ فيما يعينه». قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلُّها: عجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن أيقن بالقَدَر كيف ينْصَب. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل»! قال: قلت يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: «نعم اقرأ يا أبا ذرّ ﴿قد أَفلَحَ من تَزَكَّى. وذَكَر اْسمَ ربهِ فصَلَّى. بل تُؤْثِرونَ الحياةَ الدنيا والآخِرةُ خيرٌ وأَبقى. إن هذا لفي الصحف الأولى. صُحُفِ إبراهِيمَ ومُوسَى﴾. وذكر الحديث.

ســورة الغاشيــة

وهي مكية في قول الجميع، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾.

﴿ هل ﴾ بمعنى قد ؛ كقوله : ﴿ هل أتى على الإنسانِ ﴾[3]؛ قاله قُطْرب . أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ، قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جُبير ومحمد بن كعب : ﴿ الغاشية ﴾ : النار تَغْشَى وجوه الكفار ؛ ورواه أبو صالح

(١) زيادة من «الدر المنثور».

(٢) في «الدر المنثور» «يحاسب فيها نفسه، ويتفكر فيها صنع...». (٣) آية ١ سورة الإنسان.

عن ابن عباس؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وتَغْشَى وجوهَهُمُ النارُ﴾[١]. وقيل: تَغشَى الخلق. وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تَغشَى الخلائق. وقيل: ﴿الغاشية﴾ أهلُ النار يَغْشَونها، ويقتحمون فيها. وقيل: معنى ﴿هل أتاك﴾ أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك. قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هاهنا. وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبيّ.

[٢] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾.

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يومَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿خاشِعة﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب. وكل متضائلٍ ساكن خاشع. يقال: خَشَع في صلاته: إذا تذلل ونكَّس رأسه. وخَشَع الصوتُ: خفِي؛ قال الله تعالى: ﴿وخشعتِ الأَصْواتُ لِلرحمنِ﴾[٢]. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه. وقال قتادة وابن زيد: ﴿خاشعة﴾ أي في النار. والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس. ثم قال: ﴿عامِلة ناصِبة﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل. فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا ﴿خاشعة﴾ في الآخرة. قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملاً. ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عَمل يعمل عملاً. وذا سحاب عَمِل. قال الهذليّ[٣]:

حتى شَآها كلِيلٌ مَوْهِناً عمِلٌ باتت طِرابا وباتَ الليلَ لم يَنَمِ

(١) آية ٥٠ سورة إبراهيم. (٢) آية ١٠٨ سورة طه.

(٣) هو ساعدة بن جؤية. وقوله «شآها» أي ساقها. والكليل: البرق الضعيف. والموهن: القطعة من الليل. وباتت طراباً: أي باتت البقر العطاش طراباً إلى السير إلى الموضع الذي فيه البرق. وبات البرق الليل أجمع لا يقر: فعبر عن البرق بأنه لم ينم، لاتصاله من أول الليل إلى آخره (راجع هذا البيت والكلام عليه في خزانة الأدب الشاهد الرابع بعد الستمائة).

﴿ناصبة﴾ أي تعِبة. يقال: نَصِب (بالكسر) ينصَب نَصَباً: إذا تعب، ونَصْباً أيضاً، وأنصبه غيره. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عَبَدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له. وقال سعيد عن قتادة: ﴿عاملة ناصبة﴾ قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حُفاة عراة في العَرَصات، في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنة. قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم. وقال الكلبيّ: يُجَرّون على وجوههم في النار. وعنه وعن غيره: يُكَلَّفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فَينصَبون فيها أشدّ ما يكون من النَّصَب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوَحَل، وارتقائها في صَعُود من نار، وهبوطها في حَدُور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها. وقاله ابن عباس. وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير ﴿ناصبةً﴾ بالنصب على الحال. وقيل: على الذمّ. الباقون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على ﴿خاشعة﴾. ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن ﴿وجوه﴾، فلا يوقف على ﴿خاشعة﴾. وقيل: ﴿عاملة ناصبة﴾ أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة. وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذٍ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة. قال عكرمة والسدّيّ: عملت في الدنيا بالمعاصي. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرُّهبان أصحاب الصوامع؛ وقاله ابن عباس. وقد تقدّم في رواية الضحاك عنه. وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الشام أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل[1]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى. فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، ـ وقرأ قول الله عز وجل ـ ﴿وجوه يومئذٍ خاشعة . عاملةٌ ناصبة﴾. قال الكسائيّ:

(١) أي شعث وسخ، يقال: أقهل الرجل، وتقهل. «النهاية لابن الأثير».

التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل مُتَقَهِّل: يابس الجلد سَيِّءُ الحال، مثل المتقحل. وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة. وأنشد:

لَعْــــواً[1] إذا لاقيتـــــه تقهْــــلاَ

والقَهْل: كفران الإحسان. وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلاً: إذا أثنى ثناءً قبيحاً. وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه ودنس نفسه. وأنقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري. وعن عليّ رضي الله عنه أنهم أهل حَرُورَاءَ؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تَحقِرون صلاتكم[2] مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهمُ من الرَّمِيَّة. . .» الحديث.

[٤] ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

أي يصيبها صِلاؤها وحرّها. ﴿حامِية﴾ شديدة الحرّ؛ أي قد أُوقدت وأُحْميت المدة الطويلة. ومنه حَمِي النهار (بالكسر)، وحمِي التنور حَمْياً فيهما؛ أي اشتدّ حرّه. وحكى الكسائيّ: اشتدّ حَمْيُ الشمس وحَمْوُها: بمعنى. وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب ﴿تُصْلَى﴾ بضم التاء. الباقون بفتحها. وقرىء ﴿تُصَلَّى﴾ بالتشديد. وقد تقدم القول فيها في ﴿إذا السماء أنشقت﴾[3]. الماورديّ: فإن قيل فما معنى وصفها بالحَمْى، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد أختلف في المراد بالحامية هاهنا على أربعة أوجه: **أحدها** ـ أن المراد بذلك أنها دائمة الحَمْى، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حَمْيها بانطفائها. **الثاني** ـ أن المراد بالحامية أنها حِمًى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبيّ ﷺ: «إن لكل مِلِك حِمًى، وإن حِمى الله محارمه. ومن

---

(١) اللعو: السيء الخلق. والشره الحريص.

(٢) أي تعدون صلاتكم حقيرة بالنظر إلى صلاتهم.

(٣) راجع ١٩/ ٢٧٠.

يرتع حول الحِمَى يُوشِك أن يقع فيه». **الثالث** ـ أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام مُماسَتها؛ كما يحمِي الأسد عَرِينه، ومثله قول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقِي صَولةَ المستأسِدِ الحامِي

الرابع ـ أنها حامية حِمَى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدّة الانتقام. ولم يرد حِمَى جِرْم وذات؛ كما يقال: قد حمِيَ فلان: إذا اْغتاظ وغضب عند إرادة الانتقام. وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿تكادُ تَمَيَّزُ مِن الغيظِ﴾[1].

[٥] ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

الآني: الذي قد انتهى حَرّه؛ من الإيناء[2]، بمعنى التأخير. ومنه «آنيتَ وآذيت»[3]. وآناه يؤنيه إيناء، أي أخره وحبسه وأبطأه. ومنه ﴿يَطُوفونَ بينَها وبينَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[4]. وفي «التفاسير» ﴿مِن عينٍ آنيةٍ﴾ أي تناهَى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت. وقال الحسن: ﴿آنيةٍ﴾ أي حرها أدرك؛ أوقِدت عليها جهنّم منذ خلقت، فدُفِعوا إليها وِرداً عِطاشاً. وعن ٱبن أبي نجيح عن مجاهد قال: بلغت أناها، وحان شربها.

[٦] ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿ليس لهم﴾ أي لأهل النار. ﴿طَعامٌ إلا مِن ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم. قال عكرمة ومجاهد: الضَّرِيع: نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبْرِق إذا كان رطباً، فإذا يبِس فهو الضريع، لا تَقْرَبُه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سُمٌّ قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عامّة المفسرين. إلا أن الضحاك روى عن ٱبن عباس قال: هو شيء يَرْمِي به البحر، يسمَّى الضَّرِيعَ، من أقوات الأنعام

---

(١) آية ٨ سورة الملك. (٢) آنية: متناهية في شدة الحر، من أَنَى يأنِي، كرمى يرمى، وليس من (الإيناء) مصدر آني بمعنى آخر، قال الطبري في تفسير الآية: «تسقى أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنى حرها، وبلغ غايته في شدة الحر. (٣) أي في الحديث في صلاة الجمعة؛ إذ أنه قال لرجل جاء يوم الجمعة يتخطى رقاب الناس: لقد آنيت وآنيت. ومعنى «آنيت»: أخرت المجيء وأبطأت. و «آذيت» أي آذيت الناس بتخطيك. (٤) آية ٤٤ سورة الرحمن.

لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هُزْلاً. والصحيح ما قاله الجمهور: أنه نبت. قال أبو ذُؤيب(١):

رَعَى الشِّبرِقَ الريَّانَ حتى إذا ذَوَى وعاد ضرِّيعاً بانَ منه(٢) النَّحائصُ

وقال الهُذليّ(٣) وذكر إبلاً وسوء مرعاها:

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضريع فكلُّها حَدْباءُ دامِيةُ اليدين حَرُودُ(٤)

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر مُنتن الريح، يرمي به البحر. وقال الوالبيّ عن ابن عباس: هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها. وقال سعيد بن جُبير: هو الحجارة، وقاله عكرمة. والأظهر أنه شجر ذو شوك حَسْب ما هو في الدنيا. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشدّ مرارة من الصبرِ، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعاً». وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿ليس لهم طعام إلا مِن ضريع﴾ قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حَمْلها القيح والدم، أشدّ مرارة من الصَّبرِ، فذلك طعامهم. وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب. وقال ابن كيسان: هو طعام يَضْرعون عنده ويذِلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن آكله يضرع في أن يُعْفَى منه، لكراهته وخشونته. قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شُرِّبَه ذليل تلحقه ضراعة. وعن الحسن أيضاً: هو الزُّقوم. وقيل: هو وادٍ في جهنم. فالله أعلم. وقد قال الله تعالى في موضع

---

(١) لم نعثر على هذا البيت في ديوان أبي ذؤيب.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «بان عنه النحائص». والنحائص: جمع النحوص (بفتح النون)، وهي الأتان الوحشية الحائل. وقيل: هي التي في بطنها ولد. وقيل: التي لا لبن لها.

(٣) هو قيس بن عيزارة، كما في «اللسان».

(٤) هزم الضريع: ما تكسر منه. والحدباء: الناقة التي بدت حراقفها، وعظم ظهرها. والحرود: التي لا تكاد تدر.

آخر : ﴿ فَلَيسَ له اليومَ هاهُنا حَمِيمٌ . ولا طَعامٌ إلا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[١]. وقال هنا : ﴿إلا مِن ضَرِيع﴾ وهو غير الغِسلِين. ووجه الجمع أن النار دَرَكات؛ فمنهم مَن طعامه الزُّقوم، ومنهم من طعامه الغِسلين، ومنهم من طعامه الضَريع، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصّديد . قال الكلبيّ : الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى. ويجوز أن تُحمل الآيتان على حالتين كما قال: ﴿يطوفون بينها وبين حمِيم آنٍ ﴾[٢]. القُتَبيّ : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نَبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالُها وعقاربها وحَياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار. قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها . القُشَيريّ : وأمثل من قول القُتَبيّ أن نقول: إن الذي يُبقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبقي النبات وشجرة الزقوم في النار ، ليعذب بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا يَنْبت في النار ، ولا أنهم يأكلونه . فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس. وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلاً ، فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريع له مثلاً ، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء ، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادراً على أن ينبته في حريق النار ، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر ناراً ، فلا النار تُحرِق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تُطْفِيء النار ؛ فقال تعالى : ﴿ الذِي جعل لكم مِن الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم مِنه توقِدون﴾[٣]. وكما قيل حين نزلت ﴿ونحشرهم يوم القِيامةِ على وجوهِهِم﴾[٤]: قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: «الذي

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة.
(٢) آية ٥٥ سورة الرحمن.
(٣) آية ٨٠ سورة يس.
(٤) آية ٩٧ سورة الإسراء.

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يُمْشِيهم على وجوههم». فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب. أوليس قد أخبرَنا أنه ﴿كلما نضِجت جلودهم بدَّلْناهم جلوداً غيرها﴾[١]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهم مِن قَطِرانٍ﴾[٢]، وقال: ﴿إنَّ لَدَيْنا أنكالاً﴾[٣] أي قُيوداً. ﴿وَجحِيماً وطعاماً ذا غُصةٍ﴾ قيل: ذا شوك. فإنما يَتلوّن عليهم العذاب بهذه الأشياء.

[٧] ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾.

يعني الضريع لا يسمن آكله. وكيف يَسمن من يأكل الشوك! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضَّريع، فنزلت ﴿لا يُسْمِن ولا يغني مِن جوعٍ﴾. وكَذَبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رَطْباً، فإذا يبس لم تأكلْه. وقيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبت النافع، لأن المضارعة المشابهة. فوجدوه لا يسمن[٤] ولا يغني من جوع.

[٨] ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨﴾.

[٩] ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وجُوهٌ يَومئذٍ ناعِمةٌ﴾ أي ذات نَعْمة. وهي وجوه المؤمنين؛ نَعِمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح. ﴿لسِعيِها﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا. ﴿راضِيةٌ﴾ في الآخرة حين أُعطيت الجنة بعملها. ومجازه: لثواب سعيها راضية. وفيها واو مضمرة. المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة. والوجوه عبارة عن الأنفس. ﴿فِي جنةٍ عالِيةٍ﴾ أي مرتفعة، لأنها فوق السموات حَسْب ما تقدم. وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين. وهم فيها خالدون.

---

(١) آية ٥٦ سورة النساء. (٢) آية ٥٠ سورة إبراهيم.
(٣) آية ٢ سورة المزمل. (٤) في بعض النسخ: «لا يشبه».

[١١] ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١﴾.

أي كلاماً ساقطاً غير مَرْضيّ. وقال: ﴿لاغية﴾، واللَّغْو والَّلَغا واللَّاغية: بمعنى واحد. قال:

عـــنِ اللَّغَـــا ورَفَـــثِ التَّكلـــمِ(١)

وقال الفرّاء والأخفش: أي لا تَسمع فيها كلمة لغو. وفي المراد بها ستة أوجه: **أحدها** - يعني كذباً وبُهتاناً وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس. **الثاني** - لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة. **الثالث** - أنه الشتم؛ قاله مجاهد. **الرابع** - المعصية؛ قاله الحسن. **الخامس** - لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفرّاء. وقال الكلبيّ: لا يُسمع في الجنة حالف بيمين برّة ولا فاجرة. **السادس** - لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفرّاء أيضاً. وهو أحسنها لأنه يعمّ ما ذُكر. وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿لا يُسْمَع﴾ بياء غير مسمّى الفاعل. وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه. ومن قرأ بالياء فلأنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور. وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿لاغِية﴾ نصاً على إسناد ذلك للوجوه، أي لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

[١٢] ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢﴾.

[١٣] ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾.

[١٤] ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤﴾.

[١٥] ﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾. [١٦] ﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيها عين جارِية﴾ أي بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أُخدود. وقد تقدم في سورة ﴿الإنسان﴾ أن فيها عيوناً(٢). فـ ﴿عين﴾: بمعنى عيون. والله أعلم. ﴿فِيها سُرُرٌ مرفوُعة﴾ أي عالية. ورُوي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

---

(١) قبله: ورب أسراب حجيج كظم
قائله رؤبة. ونسبه ابن بري للعجاج.

(٢) راجع ١٩/ ١٢٤، ١٠٤.

السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله. ﴿وأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي أباريق وأوانٍ. والإبريق: هو ما له عُروة وخُرطوم. والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم. وقد تقدم هذا في سورة ﴿الزخرف﴾[1] وغيرها. ﴿ونَمارِقُ﴾ أي وسائد، الواحدة نُمْرُقة. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى. قال الشاعر:

وإنا لنُجْرِي الكاس بين شُروبنا وبينَ أبي قابوسَ فَوقَ النَّمارقِ

وقال آخر:

كُهولٌ وشبّانٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ على سُرُرٍ مَصفوفة ونمارقِ

وفي «الصحاح»: النُّمرق والنُّمرقة: وسادة صغيرة. وكذلك النِّمرِقة (بالكسر) لغة حكاها يعقوب. وربما سموا الطِّنْفِسة التي فوق الرحْل نُمرقة؛ عن أبي عُبيد. ﴿وزَرَابِيُّ مَبْثوثة﴾: قال أبو عُبيدة: الزرابيّ: البُسُط. وقال ابن عباس: الزَّرابيّ: الطَّنافس التي لها خَمْل رقيق، واحدتها: زُرْبِيّة؛ وقال الكلبيّ والفرّاء. والمبثوثة: المبسوطة؛ قال قتادة. وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة. وقيل كثيرة؛ قاله الفراء. وقيل: متفرقة في المجالس؛ قاله القُتَبيّ.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة. ومنه ﴿وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابةٍ﴾[2]. وقال أبو بكر الأنباريّ: وحدّثنا أحمد بن الحسين، قال حدّثنا حسين بن عرفة، قال حدّثنا عمار بن محمد، قال صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: ﴿هلْ أتاكَ حَديثُ الغَاشِيةِ﴾، وقرأ فيها: ﴿وزَرَابِيُّ مَبْثُوثة﴾: متكئين فيها ناعمين.

[١٧] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهلِ الدارين، تعجّب الكفار من ذلك، فكذّبوا وأنكروا؛ فذكّرهُمُ الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض. ثم ذكر الإبل أولاً، لأنها كثيرة في العرب، ولم يَرَوُا الفِيلة، فنبههم جل

(١) راجع ١٦/ ١١٣.
(٢) آية ١٦٤ سورة البقرة.

ثناؤه على عظيم من خَلقه، قد ذلله للصغير، يقوده ويُنيخه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحِمْل وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً من خَلقه، مسخراً لصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته. وعن بعض الحكماء: أنه حدّث عن البعير وبديع خَلْقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشِك أن تكون طوال الأعناق. وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبَّرها على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العَشْر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراريّ والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم. وقيل: لَمّا ذكَر السُّرُر المرفوعة قالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين أن الإبل تَبْرُك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السُّرُر تتطامن ثم ترتفع. قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما. وقيل: الإبل هنا القِطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرِّد. قال الثعلبيّ: وقيل في الإبِل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعيّ أبو سعيد عبدُ الملك بن قُرَيب، قال أبو عمرو: من قرأها ﴿أفلا ينظُرون إلى الإبِل كيف خُلِقت﴾ بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع، يَبرُك فتحمل عليه الحَمولة، وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم. ومن قرأها بالتثقيل فقال: ﴿الإبِل﴾[1]، عنى بها السحاب التي تحمل الماء والمطر. وقال الماورديّ: وفي الإبل وجهان: **أحدهما** ـ وهو أظهرهما وأشهرهما: أنها الإبل من النَّعَم. **الثاني** ـ أنها السحاب. فإن كان المراد بها السحاب، فلِما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها الإبل من النَّعَم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضروبه أربعة: حَلُوبة، ورَكُوبة، وأَكُولة، وحَمُولة. والإبل تجمع هذه الخِلال الأربع؛ فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم. وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النَّوَى والقَتّ، وتخرج اللبن. وسئل الحسن أيضاً عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يُؤكل لحمه، ولا يُركب ظهره، ولا يحلب

(١) في «البحر المحيط»: «قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام. الأصمعي عن أبي عمرو بإسكان الباء. وعلي وابن عباس بشد اللام، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا إنها السحاب».

درّه. وكان شُرَيْح يقول: اخرجوا بنا إلى الكُناسة[١] حتى ننظر إلى الإبل كيف خُلِقت. والإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرتها دخلتها الهاء، فقلت: أُبيلة وغنيمة، ونحو ذلك. وربما قالوا للإبل: إبْل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

[١٨] ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾.

[١٩] ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾.

[٢٠] ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وإلَى السَّماءِ كيفَ رُفِعَتْ﴾ أي رُفعت عن الأرض بلا عَمَد. وقيل: رفعت، فلا ينالها شيء. ﴿وإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي كيف نُصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دُحِيت مادت، فأرساهَا بالجبال. كما قال: ﴿وجعلنا في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِهِم﴾[٢]. ﴿وإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ﴾ أي بُسطت ومدّت. وقال أنس: صليت خلف عليّ رضي الله عنه، فقرأ ﴿كَيفَ خَلَقْتُ﴾ و ﴿رَفَعْتُ﴾ و ﴿نَصَبْتُ﴾ و ﴿سَطَحْتُ﴾، بضم التاءات؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى. وبه كان يقرأ محمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتها. وكذلك سائرها. وقرأ الحسن وأبو حَيْوة وأبو رجاء: ﴿سُطِّحَتْ﴾ بتشديد الطاء وإسكان التاء. وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا الطاء. وقدّم الإبل في الذكر، ولو قدّم غيرها لجاز. قال القشيريّ: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة. وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرف الناس بها. وأيضاً: مَرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأُخَر؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش؛ وقلة العَلَف، وكثرة الحَمْل، وهي مُعْظم أموال العرب. وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومَنْ هذا حاله تفكر فيما يحضره، فقد ينظر

(١) الكناسة: سوق الكوفة ترد إليها الإبل بأحمال البضائع، أو تصدر عنها، وهي كالمربد للبصرة.
(٢) آية ٣١ سورة الأنبياء.

في مركوبه، ثم يمد بصره إلى السماء، ثم إلى الأرض. فأمِروا بالنظر في هذه الأشياء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

[٢١] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾. [٢٢] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.
[٢٣] ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾. [٢٤] ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.
[٢٥] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾. [٢٦] ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فعِظهم يا محمد وَخَوِّفْهُمْ. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر﴾ أي واعظ. ﴿لست عليهم بِمصيطِرٍ﴾ أي بمسَلَّط عليهم فتقتلَهم. ثم نسختها آية السيف. وقرأ هارون الأعور ﴿بِمُسَيْطَرٍ﴾ (بفتح الطاء)، و ﴿المُسَيْطَرون﴾[1]. وهي لغة تميم. وفي «الصحاح»: ﴿المسيطِر والمصيطِر﴾: المسلّط على الشيء، ليشرِف عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله، من السطر، لأن[2] من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب مسطر، والذي يفعله مسطر ومسيطِر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿لست عليهِم بِمسيطِرٍ﴾. وسَطَرَه أي صَرَعَه. ﴿إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكَفر﴾ ٱستثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير. ﴿فيعذِّبه اللَّهُ العذابَ الأكْبر﴾ وهي جهنم الدائم عذابها. وإنما قال ﴿الأكبر﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقَحْط والأسر والقتل. ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود: ﴿إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وكَفَرَ فإنه يعذبه الله﴾. وقيل: هو استثناء متصل. والمعنى: لست بمسلّط إلا على من تولى وكفر، فأنت مُسَلَّط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير. ورُوِي أن علياً أتِي برجل ٱرتد، فٱستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرأ ﴿إلاّ مَنْ تَوَلَّى وكَفَر﴾. وقرأ ابن عباس وقتادة ﴿ألاَ﴾ على الاستفتاح والتنبيه، كقول ٱمرىء القيس:

أَلاَ رُبَّ يــومٍ لَــكَ مِنْهُــنَّ صَــالِــحٍ[3]

(١) آية ٣٧ سورة الطور. وقد أورده صاحب اللسان وشرحه. (٢) كذا في نسخ الأصل وتفسير ٱبن عادل نقلاً عن القرطبي. والذي في «الصحاح»: «وأصله من السطر، لأن الكتاب مسطر. . .». (٣) تمامه:

ولا سيمـــا يـــوم بـــدارة جلجـــل

و ﴿مَنْ﴾ على هذا: للشرط. والجواب ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: إلا من تولى وكفر يعذبه الله. ﴿إن إلينا إيابَهُمْ﴾ أي رُجوعهم بعد الموت. يقال: آب يئوب؛ أي رجع. قال عَبيد:

وكُـــلّ ذي غَيْبَـــةٍ يَئُـــوبُ ... وغـــائـــب المـــوتِ لا يَئُـــوبُ

وقرأ أبو جعفر ﴿إيّابَهُمْ﴾ بالتشديد. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام. وقيل: هما لغتان بمعنى. الزمخشري: وقرأ أبو جعفر المدنيّ ﴿إيابهم﴾ بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فِيْعالا: مصدر أيب، قيل من الإياب. أو أن يكون أصله إوّاباً فِعّالاً من أوّب، ثم قيل: إيواباً كدِيوان في دِوّان. ثم فعل ما فعل بأصل سيد ونحوه.

سـورة الفجـر

مكية، وهي ثلاثون آية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿والْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر. ﴿وليالٍ عَشْرٍ. والشَّفْعِ والوَتْرِ. والليلِ إذا يسر﴾ أقسام خمسة. واختُلِف في ﴿الفجر﴾، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله عليّ وابن الزُّبير وابن عباس رضي الله عنهم. وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوّله. وقال ابن مُحَيْصِن عن عطية عن ابن عباس(٢): يعني فجر يوم المحرم. ومثله قال قتادة. قال: هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة.

(١) في بعض نسخ الأصل: «سبع وعشرون» وفي بعضها: «تسع وعشرون».
(٢) في بعض النسخ: «ابن مسعود».

وعنه أيضاً: صلاة الصبح. وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: ﴿والفجر﴾: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد. وقال عكرمة: ﴿والفجر﴾ قال: ٱنشقاق الفجر من يوم جَمْع(١). وعن محمد بن كعب القُرَظيّ: ﴿والفجرِ﴾ آخر أيام العشر، إذا دفَعْتَ من جَمْع. وقال الضحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: ﴿وليالٍ عشرٍ﴾ أي ليال عشر من ذي الحجة. وكذا قال مجاهد والسدّيّ والكلبيّ في قوله: ﴿وليالٍ عَشْرٍ﴾ هو عشر ذي الحِجة، وقال ابن عباس. وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿وأتممناها بِعَشْرٍ﴾(٢)، وهي أفضل أيام السنة. وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «﴿والفجرِ. وليالٍ عشرٍ﴾ ـ قال: عشر الأضحى» فهي ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفاً لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة. وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها(٣)، فلو عُرِّفت لم تستقبل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً: هي العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريّ: هي العشر الأَوَّل من المحرّم، التي عاشِرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس ﴿وَليالِ(٤) عشرٍ﴾ (بالإضافة) يريد: وليالي أيام عشر(٥).

[٣] ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾.

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. وٱختلف في ذلك؛ فرُوِي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال: الشفع والوتر: الصلاة، منها شَفْع، ومنها وَتْر».

(١) جمع: هي مزدلفة. (٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف.

(٣) في «الجمل» عن القرطبي: لأنها أفضل أيام السنة. (٤) في «تفسير الألوسي»: «وقرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم ﴿وليال عشر﴾ بلام دون ياء، وبعضهم ﴿وليالي﴾ بالياء، وهو القياس».

(٥) قال الإمام محمد عبده في «تفسيره»: هي عشر الليالي في أول كل شهر.

وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «﴿والفجرِ وليالٍ عشرٍ﴾ - قال: هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع: يوم النحر». وهو قول ابن عباس وعكرمة. واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبيّ ﷺ، وهو أصح إسناداً من حديث عِمران بن حُصين. فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنّه عاشرها. وعن أبي أيوب قال: سُئِل النبيّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿والشَّفْعِ والوَتْرِ﴾ فقال: «الشفع: يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر». وقال مجاهد وابن عباس أيضاً: الشفع خَلْقه، قال الله تعالى: ﴿وخَلَقناكم أزواجاً﴾(١) والوَتْر هو الله عز وجل. فقيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن النبي ﷺ. ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق، قال الله تعالى: ﴿ومِن كُلِّ شَيْءٍ خلقنا زوجين﴾(٢): الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَد﴾. وقال النبي ﷺ: «إن للَّهِ تسعةً وتسعين اسماً، والله وِتر يحب الوِتر». وعن ابن عباس أيضاً: الشفع: صلاة الصبح» والوتر: صلاة المغرب. وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة. وقال ابن الزُّبير: الشفع: يوما مِنًى: الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فمن تعجل فِي يومينِ فلا إثم عليهِ: ومن تأخر فلا إثم عليهِ﴾(٣). وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام مِنًى الثلاثة. وهو قول عطاء. وقيل: إن الشفع والوتر: آدم وحوّاء؛ لأن آدم كان فرداً فشُفِـع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وتر. رواه ابن أبي نَجِيح، وحكاه القشيريّ عن ابن عباس. وفي رواية: الشفع: آدم وحوّاء، والوتر هو الله تعالى. وقيل: الشفع والوتر: الخلق؛ لأنهم شفع ووتر،

(١) آية ٨ سورة النبأ.
(٢) آية ٤٩ سورة الذاريات.
(٣) آية ٢٠٣ سورة البقرة.

فكأنه أقسم بالخلق. وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وما خَلَقَ الذكَرَ والأُنْثى﴾[١]. ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعه؛ كما قال: ﴿والشَّمْسِ وضُحاها﴾، ﴿والسماءِ وما بَنَاها﴾، ﴿والسَّماءِ والطَّارِقِ﴾. وقيل: الشفع: دَرَجات الجنة، وهي ثمان. والوتر، دَرَكات النار؛ لأنها سبعة. وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كأنه أقسم بالجنة والنار. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكَعْبة. وقال مقاتل بن حَيّان: الشفع: الأيام والليالي. والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة. وقال سفيان بن عُيينة: الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿ما يكون مِن نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هو رابِعهم﴾[٢]. وقال أبو بكر الورّاق: الشفع: تضادّ أوصاف المخلوقين: العز والذل، والقدرة والعجز، والقوّة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعَمَى، والسمع والصَّمَم، والكلام والخَرَس. والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عِز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوّة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عَمًى، وكلام بلا خَرَس، وسمع بلا صَمَم، وما وازاها. وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب. وقيل: الشفع: مسجد مكة والمدينة، وهما الحرمان. والوتر: مسجد بيت المقدس. وقيل: الشفع: القِرن بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفراد فيه. وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثى. والوتر: الجماد. وقيل: الشفع: ما يَنْمِي، والوتر: ما لا يَنْمِي، وقيل غير هذا. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائيّ وحمزة وخلف ﴿والوِترِ﴾ بكسر الواو. والباقون (بفتح الواو)، وهما لغتان بمعنى واحد. وفي الصحاح: الوِتر (بالكسر): الفرد، والوَتْر (بفتح الواو): الذحل[٣]. هذه لغة أهل العالية. فأمّا لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم. فأما تميم فبالكسر فيهما.

---

(١) آية ٣ سورة الليل.

(٢) آية ٧ سورة المجادلة.

(٣) الذحل: الحقد والعداوة.

[٤] ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ ﴾.

[٥] ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿والليلِ إذا يسرِي﴾ وهذا قسم خامس. وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم. ومعنى ﴿يسرِي﴾ أي يُسْرَى فيه؛ كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم. قال:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلان في السُّرَى ونِمتِ وما ليلُ المطِيِّ[١] بنائِم

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْر الليلِ والنهارِ﴾[٢]. وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القُتَبِيّ والأخفش. وقال أكثر المفسرين: معنى ﴿يَسْرِي﴾: سار فذهب. وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل. ورُوِي عن إبراهيم: ﴿والليلِ إذا يَسْرِ﴾ قال: إذا استوى. وقال عكرمة والكلبيّ ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله ﴿والليلِ﴾: هي ليلة المزدلِفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله. وقيل: ليلة القَدْر؛ لِسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها. وقيل: إنه أراد عموم الليل كله.

قلت: وهو الأظهر، كما تقدّم. والله أعلم. وقرأ ابن كثِير وابن مُحيصِن ويعقوب ﴿يسرِي﴾ بإثبات الياء في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فثبتت فيها الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف، وروي عن الكسائي. قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف، اتباعاً للمصحف. ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عُبيد، اتباعاً للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء. قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي. قال الفرّاء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها. وأنشد بعضهم:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَماً جُوداً وأخرى تعطِ بالسَّيف الدّما[٣]

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرد بها على الفرزدق. (٢) آية ٣٣ سورة سبأ.

(٣) البيت في «اللسان»: ليق غير منسوب لقائله. وفي «تفسير الطبري» (طبعة الحلبي ١١٦/١٢).

يقال: فلان ما يُلِيق درهماً من جوده؛ أي ما يمسكه، ولا يلصق به. وقال المؤرِّج: سألت الأخفش عن العِلة في إسقاط الياء من ﴿يَسْرِ﴾ فقال: لا أجيبك حتى تبِيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة؛ فقال: الليل لا يَسْرِي وإنما يَسْرَى، فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بَخَسْته من إعرابه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وما كانت أمكِ بغِيا﴾[1]، ولم يقل بغِية، لأنه صرفها عن باغية. الزمخشريّ: وياء ﴿يسرِي﴾ تحذف في الدَّرْج، اكتفاءً عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة. وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، وهو لَيُعَذَّبُنّ؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك ـ إلى قوله تعالى ـ فصبّ عليهم ربك سَوْط عذاب﴾. وقال ابن الأنباريّ هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ﴾. وقال مقاتل: ﴿هل﴾ هنا في موضع إنّ؛ تقديره: إن في ذلك قسماً لذي حِجْر. فـ ﴿هل﴾ على هذا في موضع جواب القسم. وقيل: هي على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير؛ كقولك: ألم أُنعِم عليك؛ إذا كنت قد أنعمت. وقيل: المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَع لذي حِجر. والجواب على هذا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ﴾. أو مضمر محذوف. ومعنى ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي لُبّ وعقل. قال الشاعر:

وكيفَ يرجَّى أَنْ تَتوبَ وإنَّما ... يُرَجَّى من الفِتيانِ مَنْ كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال: ﴿لِذِي حِجر﴾: لذي سِتر من الناس. وقال الحسن: لذي حلم. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجْر، ولذي عقل، ولذي حلم، ولذي سِتر؛ الكل بمعنى العقل. وأصل الحِجر: المنع. يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حِجْر؛ ومنه سمي الحَجَر، لامتناعه بصلابته؛ ومنه حَجر الحاكم على فلان، أي منعه وضبطه عن التصرّف؛ ولذلك سميت الحُجْرة حجرة، لامتناع ما فيها بها. وقال الفرّاء: العرب تقول: إنه لذو حِجر: إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها؛ كأنه أخذ من حَجَرت على الرجل.

---

(١) آية ٢٨ سورة مريم.

[٦] ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ ﴾.

[٧] ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تر كيفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي مالكك وخالقك. ﴿بِعادٍ. إرم﴾ قراءة العامة ﴿بعادٍ﴾ منوّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية ﴿بِعادِ إرَمَ﴾ مضافاً. فمن لم يضف جعل ﴿إرَمَ﴾ ٱسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عاداً ٱسم أبيهم، وإرَم ٱسم القَبِيلة؛ وجعله بدلاً منه، أو عطف بيان. ومن قرأه بالإضافة ولم يصرِفه جعله ٱسم أمّهم، أو ٱسم بلدتهم. وتقديره: بعاد أهل إرم. كقوله: ﴿وٱسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ ولم تنصرف ـ قبيلة كانت أو أرضاً ـ للتعريف والتأنيث. وقراءة العامة ﴿إِرَمَ﴾ بكسر الهمزة. وعن الحسن أيضاً ﴿بعادَ إرَمَ﴾ مفتوحتين، وقرِيء ﴿بعادَ إرْمَ﴾ بسكون الراء، على التخفيف؛ كما قريء ﴿بوَرْقِكم﴾. وقريء ﴿بِعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ﴾ بإضافة ﴿إرَمَ﴾ ـ إلى ـ ﴿ذاتِ العِمادِ﴾. والإرم: العلم. أي بعاد أهل ذات العَلَم. وقريء ﴿بِعادٍ إرَمَ ذاتِ العِمادِ﴾ أي جعل الله ذاتَ العماد رميماً. وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة ﴿أَرَمَ﴾ بفتح الهمزة. قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدها: أَرَم. وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي والفجر وكذا وكذا إنّ ربك لبالِمرصاد ألم تر. أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد. وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد عامّ. وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلاد العرب، وحِجر ثمود موجود اليوم. وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب. وقد تقدّم هذا المعنى في سورة ﴿البروج﴾[١] وغيرها ﴿بِعادٍ﴾ أي بقوم عاد. فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبـي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقِلّوه، وإن كان أحدهم ليُدخِل قدمه في الأرض فتدخل فيها. و ﴿إرَم﴾: قيل هو سام بن نوح؛ قاله ٱبن إسحاق. وروى عطاء عن ٱبن عباس ـ وحكى عن ٱبن إسحاق

(١) راجع ١٩/ ٢٩٥.

أيضاً ـ قال: عاد ابن إرَم. فإرَم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم بن عوص بن سام بن نوح. وعلى القول الأوّل: هو اسم جدّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم بن سام، وأَرْفَخْشَد بن سام. فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجبابرة والملوك الطغاة والعصاة. وقال مجاهد: ﴿إرَم﴾ أمّة من الأمم. وعنه أيضاً: أن معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح. وعن مجاهد أيضاً أن معناها القوية[١]. وقال قتادة: هي قبيلة من عاد. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾[٢]. فقيل لِعقب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد؛ كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرَم: تسمية لهم باسم جَدّهم. ولمن بعدهم: عادٌ الأخيرة. قال ابن الرُّقَيّات:

مَجْداً تَلِيداً بناهُ أوّلهُم أدرك عاداً وقبلَه إرَما

وقال مَعْمر: ﴿إرم﴾: إليه مجمع عاد وثمود. وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ. وكانت القبائل تنتسب إلى إرم. ﴿ذاتِ العِمادِ، الَّتِي لم يُخْلَق مِثلُها في البِلادِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العَربيّ: وهو باطل؛ لأن في «الصحيح»: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في الهواء، فلم يزل الخلق ينقُص إلى الآن». وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً. قال أبو عبيدة: ﴿ذاتِ العِمادِ﴾ ذات الطُول. يقال: رجل مُعَمَّد إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد. وعن قتادة أيضاً: كانوا عِماداً لقومهم؛ يقال: فلان عَمِيد القوم وعَمُودهم: أي سيدهم. وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم. وقيل: ﴿ذاتِ العِمادِ﴾ أي ذات الأبنية المرفوعة على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد:

---

(١) في بعض النسخ: «القرية».

(٢) آية ٥٠ سورة النجم.

﴿ذاتِ العِمادِ﴾ يعني إحكام البُنيان بالعَمَد. وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث. قال عمرو بن كلثوم:

ونحـن إذا عِمـادُ الحـيّ خَـرَّتْ ... على الأَحْفاضِ نَمْنع مَنْ يَلِينا

والواحدة عِمادة. وفلان طويل العِماد: إذا كان منزله مَعْلَماً لزائره. والأحفاض: جمع حَفَض (بالتحريك) وهو متاع البيت إذا هُيِّيءَ ليُحمل؛ أي خَرّتْ على المتاع. ويروى؛ «عن الأحفاض» أي خرّت عن الإبل التي تحمل خُرْثِيَّ[1] البيت. وقال الضحاك: ﴿ذاتِ العِمادِ﴾ ذات القوّة والشدّة، مأخوذ من قوّة الأعمدة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وقالُوا مَنْ أَشدُّ منَّا قُوَّة﴾[2]. وروى عوف عن خالد الرّبعِيّ ﴿إرم ذاتِ العِمادِ﴾ قال: هي دمشق. وهو قول عكرمة وسعيد المَقْبُرِيّ. رواه ابن وهب وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب القُرظِيّ: هي الإسكندرية.

[٨] ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾.

الضمير في ﴿مِثلها﴾ يرجع إلى القبيلة. أي لم يخلق مثل القبيلة في البلاد: قوّة وشدّة، وعِظم أجساد، وطول قامة؛ عن الحسن وغيره. وفي حرف عبد الله ﴿الَّتي لم يُخْلَقْ مِثلُهُمْ في البلاد﴾. وقيل: يرجع للمدينة. والأوّل أظهر، وعليه الأكثر، حسْب ما ذكرناه. ومن جعل ﴿إرم﴾ مدينة قدّر حذفاً؛ المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم. وإرم على هذا: مؤنثة معرّفة. واختار ابن العربيّ أنها دِمشق، لأنه ليس في البلاد مثلها. ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها. ثم قال: وإن في الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد، ولكن لها أمثال ، فأمّا دِمشق فلا مِثل لها. وقد روى مَعْن عن مالك أن كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو ؟ فإذا فيه «أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتها حين لا شيبَ ولا مَوْت. قال مالك: إن كان لتمرّ بهم

(١) الخرثي ككرسيّ: سقط متاع البيت وأثاثه (أردؤه).

(٢) آية ١٥ سورة فصلت.

مائة سنة لا يرون فيها جنازة. وذكر عن ثور بن زيد[١] أنه قال: أنا شدّاد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذي شَدَدْت بذراعي بطن الواد، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع، لا يخرجه إلا أمّة محمدﷺ. ورُوِي أنه كان لعاد ٱبنان: شدّاد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد فملك الدنيا، ودانت له ملوكها؛ فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها. فبنى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن، في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة. وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها[٢] من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المُطَّرِدة[٣]. ولما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب[٤] فسأله، فقال: هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبل له؛ ثم التفت فأبصر ٱبن قِلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل. وقيل: أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد. فالكناية للعماد. والعماد على هذا: جمع عَمَد. وقيل: الإرَم: الهلاك؛ يقال: أَرِم بنو فلان: أي هلكوا[٥]؛ وقاله ٱبن عباس. وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ[٦] ذاتَ العِمادِ»؛ أي أهلكهم، فجعلهم رَمِيماً[٧].

[٩] ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

ثمود: هم قوم صالح. و ﴿جابوا﴾: قطعوا. ومنه: فلان يجوب البلاد، أي يقطعها. وإنما سمي جيب القميص لأنه جِيبَ؛ أي قطع. قال الشاعر وكان قد نزل على ٱبن الزبير بمكة، فكتب له بستين وَسْقاً يأخذها بالكوفة. فقال:

---

(١) في «الأصول»: «يزيد» وهو تحريف. (٢) الأساطين: جمع الأسطوانة، وهي العمود والسارية. (٣) أي الجارية. (٤) يريد: كعبا الحبر: عالم أهل الكتاب.

(٥) حكاه الطبري. (٦) كذا بفتح الهمزة والراء. حكاه الشوكاني في «فتح القدير» (٥/ ٤٣٢). (٧) قوله (جعلهم رميماً) بيان للمعنى، وليس تفسيراً للاشتقاق.

راحت رَوَاحاً قَلُوصِي وهي حامدة آلَ الزُّبَير ولم تَعْدِل بهم أَحدَا
راحتْ بستينَ وَسْقاً في حَقِيبتها ما حَمَلَتْ حَمْلَها الأدنى ولا السَّدَدا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصاً قبلها حملت سِتين وَسْقاً ولا جابت به بلدا

أي قطعت. قال المفسرون: أوّل من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود. فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة. ومن الدور والمنازل ألفَيْ ألفٍ وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وكانوا ينحِتُون مِن الجِبالِ بيوتاً آمِنِين﴾[1]. وكانوا القوّتهم يُخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم. ﴿بِالوادِي﴾ أي بوادي القُرَى؛ قاله محمد بن إسحاق. وروى أبو الأشهب عن أبي نَضْرة قال: أتى رسول الله ﷺ في غَزاة تَبوك على وادي ثمود، وهو على فَرَس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في وادٍ ملعون». وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً. وكل مُنْفَرَج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

[١٠] ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾.

أي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه؛ قاله ابن عباس. وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا؛ تجبراً منه وعُتُوّاً. وهكذا فعل بأمرأته آسية وماشطة ابنته؛ حَسْب ما تقدم في آخر سورة ﴿التحريم﴾[2]. وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه. وقد مضى في سورة ﴿ص﴾[3] من ذكر أوتاده ما فيه كفاية. والحمد لله.

[١١] ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾.
[١٢] ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾.
[١٣] ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) آية ٨٣ سورة الحجر.
(٢) راجع ١٨/ ٢٠٢.
(٣) راجع ١٥/ ١٥٤.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوا فِي البِلادِ﴾ يعني عاداً وثموداً[١] وفرعون ﴿طَغَوْا﴾ أي تمرّدوا وعَتَوْا وتجاوزوا القدر في الظلم والعُدوان. ﴿فأَكْثَرُوا فِيها الفَسادَ﴾ أي الجَوْر والأذى. و ﴿الذِينَ طَغَوا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الذمّ. ويجوز أن يكون مرفوعاً على: هم الذين طغوا، أو مجروراً على وصف المذكورين: عادٍ، وثمودٍ، وفرعونَ. ﴿فَصبَّ عليهِم ربُّك سَوْطَ عَذابٍ﴾ أي أفرغ عليهم وألقَى؛ يقال: صبّ على فلان خِلعة، أي ألقاها عليه. وقال النابغة:

فَصبّ[٢] عليه اللّهُ أحْسَنَ صَنْعِهِ وكـان لـه بيـن البـرِية نـاصـراً

﴿سَوْط عذابٍ﴾ أي نصِيب عذاب. ويقال: شِدّته؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يُعَذَّب به. قال الشاعر:

ألـم تـر أن الله أظهـرَ دِينـه وصبَّ على الكفار سَوْطَ عَذابِ

وقال الفرّاء: وهي كلما تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب. وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يُعذّبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب. وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم: ساطه يَسوطه سَوْطاً أي خلطه، فهو سائط. فالسوط: خلط الشيء بعضِه ببعض؛ ومنه سمي المِسْواط. وسَاطَهُ[٣] أي خَلَطه، فهو سائط، وأكثر ذلك يقال: سَوَّط فلان أموره. قال:

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأْيِ غَير مُوَفَّقٍ فلسْـت علـى تَسـوِيطهـا بمُعـانِ

قال أبو زيد: يقال أموالهم سَوِيطة بينهم؛ أي مختلطة. حكاه عنه يعقوب. وقال الزجاج: أي جعل سوطَهم الذي ضربهم به العذاب. يقال: ساط دابته يَسُوطها؛ أي ضربها

(١) اختلف في ﴿ثمود﴾ فمنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه؛ فمن صرفه ذهب به إلى الحي لأنه اسم عربي مذكر سمي بمذكّر. ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهي مؤنثة.

(٢) الرواية في البيت كما في ديوانه وشعراء النصرانية:

ورب عليـــــــــه الله. . . الـــــــــخ

قال البطليوسي شارح الديوان: ربه أتمه. وأصله أن يقال: ربيت معروفي عند فلان أربه ربا: إذا أدمته عليه وتممته لديه. و «رب عليه»: دعاء معطوف على ما قبله. وهو مدح في النعمان. وعلى هذه الرواية لا شاهد في البيت.

(٣) في الأصل: (سوطه) بصيغة المصدر. وصيغة الفعل الثلاثي الماضي أمكن هنا.

بسوطه. وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها. وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب.

[١٤] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أي يَرْصُد عمل كل إنسان حتى يجازِيه به؛ قاله الحسن وعكرمة. وقيل: أي على طريق العباد لا يفوته أحد. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة ﴿براءة﴾[١] والحمد لله. فروى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أوّل قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة؛ فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة. ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة. ثم يُسأل عن الحجّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة. ثم يسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: ألا من كانت له مَظْلِمة فليأت؛ فيقتص للناس منه، ويقتص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿إن ربك لبِالمِرصادِ﴾. وقال الثوريّ: ﴿لبِالمِرصادِ﴾ يعني جهنم؛ عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرَّحِم، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى.

قلت: أي حكمته وإرادته وأمره. والله أعلم. وعن ابن عباس أيضاً ﴿لبِالمِرصادِ﴾ أي يسمع ويرى.

قلت: هذا قول حسن؛ ﴿يَسْمع﴾ أقوالهم ونجواهم، و ﴿يَرَى﴾ أي يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازِي كلاً بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد. وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال: ﴿إن ربك لبِالمِرصادِ﴾ يا أبا جعفر! قال الزمخشرِي: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعض من

(١) راجع ٨/ ٧٣.

تُوُعِّد بذلك من الجبابرة؛ فلِله درّه. أيُّ أسدٍ فرّاس كان بين يديه[١]؟ يَدُقّ الظّلمة بإنكاره، ويقمَع أهل الأهواء والبدع بٱحتجاجه!

[١٥] ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾.

[١٦] ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فأمّا الإنسانُ﴾ يعني الكافر. قال ٱبن عباس: يريد عُتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل؛ أبيّ بن خلف. ﴿إذا ما ابتلاه ربه﴾ أي ٱمتحنه وٱختبره بالنعمة. و ﴿ما﴾: زائدة صلة. ﴿فأكْرمه﴾ بِالمال. ﴿وَنعَّمه﴾ بما أوسع عليه. ﴿فيَقولُ ربّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده. ﴿وأما إذَا ما ٱبْتلاهُ﴾ أي ٱمتحنه بالفقر وٱختبره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي ضيق ﴿عليهِ رِزقَه﴾ على مقدار البُلْغة. ﴿فيقولُ رَبِّي أهانَنِ﴾ أي أولاني هوانا. وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث: وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقِلته. فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدّي إلى حظ الآخرة، وإن وسَّع عليه في الدنيا حمِده وشكره.

قلت: الآيتان صفة كل كافر. وكثير من المسلمين يظنّ أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحقَّ هذا لم يعطنيه الله. وكذا إن قَتَّر عليه يظنّ أن ذلك لهوانه على الله. وقراءة العامّة ﴿فقَدر﴾ مخففة الدال. وقرأ ٱبن عامر مشدّداً، وهما لغتان. والاختيار التخفيف؛ لقوله: ﴿ومن قُدِرَ عليهِ رِزقه﴾[٢]. قال أبو عمرو: و ﴿قَدِر﴾ أي قُتِّر. و ﴿قَدّر﴾ مشدّدا: هو أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال ﴿ ربّي أهانن ﴾. وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو ﴿ربّي﴾ بفتح الياء في الموضعين. وأسكن الباقون. وأثبت البَزّي

(١) في بعض الأصول والزمخشري: «ثوبيه».
(٢) آية ٧ سورة الطلاق.

وٱبن مُحَيصِن ويعقوب الياء من ﴿أكرمنِ﴾، و ﴿أهاننِ﴾ في الحالين؛ لأنها ٱسم فلا تحذف. وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف، اتباعاً للمصحف. وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لخط المصحف. الباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة ألا يخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

[١٧] ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

[١٨] ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾.

[١٩] ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾.

[٢٠] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردّ؛ أي ليس الأمر كما يُظَنّ، فليس الغِنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفراء: ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمدُ الله عز وجل على الغنى والفقر. وفي الحديث: «يقول الله عز وجل: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهِين من أهنْت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي».

قوله تعالى: ﴿بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليتيمَ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسْرافاً وبِدَاراً أَنْ يَكْبروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿يُكْرِمون﴾، و ﴿يَحُضُّون﴾ و ﴿يأكلون﴾، و ﴿يُحِبُّونَ﴾ بالياء؛ لأنه تقدّم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبر عنه بلفظ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً. وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله كما ذكرنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أُمية بن خَلَف. ﴿ولا تَحُضونَ عَلى طعامِ المِسْكِينِ﴾ أي لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكين يجيئهم. وقرأ الكوفيون ﴿ ولا تَحَاضُّونَ ﴾ بفتح التاء والحاء والألف. أي يَحُضُّ بعضهم بعضاً. وأصله تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها. وهو ٱختيار أبي عُبيد. ورُوِي عن إبراهيمَ والشَّيْزَرِيّ عن الكسائي والسُّلَمِيّ ﴿ تُحَاضُّون ﴾ بضم

التاء، وهو تُفاعِلون من الحضّ، وهو الحث. ﴿وتَأْكُلُون التُّراثَ﴾ أي ميراث اليتامى. وأصله الوُراث من ورِثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا في تُجاه وتُخمَة وتُكَأَة وتُؤَدة ونحو ذلك. وقد تقدّم. ﴿أَكْلاً لمًّا﴾ أي شديداً؛ قاله السُّدّيّ. قيل ﴿لَمّا﴾: جمعا؛ من قولهم: لممت الطعام لما إذا أكلته جمعا؛ قاله الحسن وأبو عُبيدة. وأصل اللَّمّ في كلام العرب: الجمع، يقال: لَمَمْت الشيء أَلُمُّه لَمًّا: إذا جمعته، ومنه يقال: لمّ الله شعثه، أي جمع ما تفرّق من أموره. قال النابغة.

ولَسْـتَ بِمُسْتَبِـقٍ أَخـاً لا تَلُمُّـه   علَى شَعَثٍ أَيُّ الرجال المُهَذَّبُ

ومنه قولهم: إن دارك لَمُومَة؛ أي تَلُمّ الناس وتَرُبُّهم وتجمعهم. وقال المِرناق[١] الطائيُّ يمدح علقمة بن سيف:

لأَحبَّني حُبّ الصبيّ ولَمَّنِي[٢]   لَمَّ الهُدِيّ إلى الكرِيم الماجدِ

وقال الليث: اللمّ الجمع الشديد؛ ومنه حجر ململوم، وكتيبة ململومة. فالآكل يَلُم الثريد، فيجمعه لُقَما ثم يأكله. وقال مجاهد. يَسفُّه سَفًّا: وقال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب غيره. قال الحُطيئة:

إذا كـانَ لَمَّـا يُتْبِـع الـذمَّ ربَّـه   فلا قدّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعنى أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم. وقال ٱبن زيد: هو أنه إذا أكل ماله أَلَمّ بمال غيره فأكله، ولا يفكر: أكل من خبيث أو طيب. قال: وكان أهل الشرك لا يورّثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثِهم، وتراثهم مع تُراثهم. وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك، فَيلُمّ في الأكل بين حرامه وحلاله. ويجوز

(١) كذا في نسخ الأصل ومعجم الشعراء للمرزباني. قال المرزباني: «وأحسبه لقبا». وفي لسان العرب: «قال فدكى بن أعبد يمدح...». وفي كتاب أشعار الحماسة: «وقال رجل من بهراء، وٱسمه فدكى يمدح...».

(٢) في اللسان والحماسة ومعجم الشعراء: «ورمني» بالراء بدل «ولمني» باللام، وعلى هذا لا شاهد فيه. وقوله «ورمني»: أي أصلح حالي وشأني. و «الهدى»: العروس تهدى إلى زوجها، فإذا زفت إليه تكلف أهلها في حسن تجهيزها، لئلا يعير أهل زوجها خللا وقع في أمرها.

أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سَهْلا مَهْلا، من غير أن يَعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرّاث البطالون. ﴿وتُحبُّون المالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيراً، حلاله وحرامه. والجمّ الكثير. يقال: جمّ الشيء يَجُمّ جُموما، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جمّ الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر. وقال الشاعر[1]:

إن تغفِـرِ اللّهُـمَّ تغفِـرْ جَمَّـا وأيُّ عبـدٍ لـكَ لا أَلمَّـا

والجَمَّة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه. والجَموم: البئر الكثيرة الماء. والجُمومُ (بالضم): المصدر؛ يقال: جمّ الماء يجِم جموماً: إذا كثر في البئر واجتمع، بعد ما استقِي ما فيها.

[٢١] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو ردّ لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدَكّ الأرض، ولا ينفع الندم. والدّك: الكسر والدقّ؛ وقد تقدّم[2]. أي زلزلت الأرض، وحُرِّكت تحريكاً بعد تحريك. وقال الزجاج: أي زلزلت فَدَك بعضها بعضاً. وقال المبرد: أي ألصِقت وذهب ارتفاعها. يقال ناقة: دَكَّاء، أي لا سنام لها، والجمع دُكٌّ. وقد مضى في سورة ﴿الأعراف﴾ و ﴿الحاقة﴾ القول في هذا. ويقولون: دُكّ الشيء أي هُدِم. قال:

هـل غيـر غـارٍ[3] دَكَّ غـاراً فـانهـدمْ

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي مرة بعد مرة؛ زلزلت فكسَّر بعضها بعضاً؛ فتكسر كل شيء على ظهرها. وقيل: دُكّت جبالها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دُكت أي استوت في الانفراش؛ فذهب دُورها وقُصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سمي الدّكان، لاستوائه في الانفراش. والدك: حطُّ المرتفع من الأرض بالبسط؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمدّ الأرض مدّ الأديم

---

(١) هو أبو خراش الهذلي.

(٢) راجع ٧/ ٢٧٨ و ١١/ ٦٣ و ١٨/ ٢٦٤.

(٣) الغار: الجمع الكثير من الناس.

[٢٢] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

[٢٣] ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وجاءَ ربُّك﴾ أي أمره وقضاؤه؛ قاله الحسن. وهو من باب حذف المضاف. وقيل: أي جاءهم الربّ بالآيات العظيمة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إلاّ أن يأتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِن الغَمامِ﴾[١]، أي بظلل. وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيماً لشأن تلك الآيات. ومنه قوله تعالى في الحديث: «يابن آدم، مرِضتُ فلم تَعُدنِي، واستسقيتُك فلم تَسْقِنِي، واستطعمتك فلم تُطْعِمْني». وقيل: ﴿وجاءَ رَبُّك﴾ أي زالت الشُّبَهُ ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشُّبَه والشك عند مجيء الشيء الذي كان يُشَك فيه. قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت[٢]، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحوّل من مكان إلى مكان، وأنّى له التحوّل والانتقال، ولا مكان له ولا أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأنّ في جَرَيان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز.

قوله تعالى: ﴿والمَلَكُ﴾ أي الملائكة. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي صفوفاً. ﴿وجِيءَ يومَئذٍ بِجَهَنَّم﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تغيظ وزفِير، حتى تنصب عن يسار العرش. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بجنهم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرّونها». وقال أبو سعيد الخُدرِيّ: لما نزلت: ﴿وجِيءَ يومَئذٍ بِجَهَنَّم﴾ تغير لون رسول الله ﷺ، وعُرِف في وجهه، حتى اشتدّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريل: ﴿كَلا إذا دُكتِ الأرضُ دَكًّا دَكًّا ـ الآية ـ وجِيء يومئذٍ بِجهنم﴾. قال عليّ رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: «يؤتى بها تقاد بسبعين ألفَ زمام، يقود بكل زمام سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُد شَرْدَة لو تركت لأحرقت أهل الجمع

---

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة. (٢) في بعض الأصول: «واستوت».

ثم تَعْرِض لي جهنم فتقول: ما لي ولك يا محمد، إن الله قد حرّم لحمك عليّ» فلا يبق أحد إلا قال نفسي نفسي! إلا محمد ﷺ فإنه يقول: رب أمتي! ربِّ أمتي!

قوله تعالى: ﴿يومَئذٍ يتذَكَّرُ الإنْسانُ﴾ أي يتعظ ويتوب. وهو الكافر، أو من هِمته معظم[1] الدنيا. ﴿وأنَّى له الذِّكْرَى﴾ أي ومِن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرّط فيها في الدنيا. ويقال: أي ومِن أين له منفعة الذكرى. فلا بدّ من تقدير حذف المضاف، وإلا فبين ﴿يَوْمَئذٍ يتذكر﴾ وبين ﴿وأنَّى له الذكرى﴾ تنافٍ؛ قاله الزمخشريّ.

[٢٤] ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾.

أي في حياتي. فاللام بمعنى في. وقيل: أي قدمت عملاً صالحاً لحياتي، أي لحياة لا موت فيها. وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى: يا ليتني قدّمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة.

[٢٥] ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥﴾.

[٢٦] ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمئذٍ لا يُعَذِّب عَذَابَه أَحَدٌ﴾ أي لا يعذِّب كعذاب الله أَحَد، ولا يُوثِق كوثاقه أحد. والكناية ترجع إلى الله تعالى. وهو قول ابن عباس والحسن. وقرأ الكسائي ﴿لا يُعَذَّب﴾ ﴿ولا يُوثَق﴾ بفتح الذال والثاء؛ أي لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يَوْمَئذ، ولا يوثَق كما يوثَق الكافر. والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشدّ الناس عذاباً، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير. وقيل: أنه أمية بن خلف؛ حكاه الفرّاء. يعني أنه لا يعذّب كعذاب هذا الكافر المعيَّن أحد، ولا يوثَق بالسلاسل والأغلال كوَثاقه أحد؛ لتناهيه في كفره وعناده. وقيل: أي لا يعذَّب مكانه

(١) هكذا وردت في جميع نسخ الأصل. وفي تفسير ابن عادل: «ومن همته الدنيا».

أحد، فلا يؤخذ منه فداء. والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق. ومنه قول الشاعر:

وبَعْـدَ عَطـائِـكَ المِـائـةَ الـرِّتـاعـا[(١)]

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر. وٱختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء. وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف: أنه لا يعذب أحد كعذاب الله.
وقد روى أبو قِلابة عن النبيّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذال والثاء. وروي أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيّ ﷺ. وقال أبو عليّ: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة؛ أي لا يعذب أحدٌ أحدا مثل تعذيب هذا الكافر؛ فتكون الهاء للكافر.
والمراد بـ ﴿أحد﴾ الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار.

[٢٧] ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

[٢٨] ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.

[٢٩] ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾.

[٣٠] ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُها النَّفسُ المطمئِنة﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم الله في إغنائه وإفقاره، ذكر حال من ٱطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه. وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل. والنفس المطمئنة: الساكنة المُوقنة؛ أيقنت أن الله ربها، فأخبتت لذلك؛ قاله مجاهد وغيره. وقال ٱبن عباس: أي المطمئنة بثواب الله. وعنه المؤمنة. وقال الحسن: المؤمنة الموقنة. وعن مجاهد أيضاً: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأنّ ما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله. وفي حرف أُبيّ بن كعب ﴿يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة﴾. وقيل: التي عمِلت على يقين بما وعد الله في كتابه. وقال ٱبن كَيسان: المطمئنة هنا: المخلصة.

---

(١) هذا عجز بيت للقطامي، من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث، وصدره:

أكفـــرا بعـــد ردّ المـــوت عنـــي

والرتاع: الإبل الراتعة.

وقال ابن عطاء: العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين. وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه ﴿الَّذِين آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكرِ[١] اللهِ﴾. وقيل: المطمئنة بالإيمان، المُصدِّقة بالمبعث والثواب. وقال ٱبن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع. وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفس حمزة. والصحيح أنها عامة في كل نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ طائع. قال الحسن البصرِيّ: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض رُوح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، وٱطمأن الله إليها. وقال عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمن أرسل الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفة من الجنة، فيقولان لها: «ٱخرُجي أيَّتها النفسُ المطمئنةُ راضية مَرْضِية، ومَرْضيا عنك، ٱخرجي إلى رَوْحٍ وريَحْان، ورَبٍّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وَجَد أحد من أنفه على ظهر الأرض. وذكر الحديث. وقال سعيد بن زايد: قرأ رجل عند النبيّ ﷺ: ﴿يا أَيَّتُها النفسُ المُطمَئِنَّة﴾، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا يا رسول الله! فقال النبيّ ﷺ: «إن المَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر». وقال سعيد بن جبير: مات ٱبن عباس بالطائف، فجاء طائر لم يُرَ على خِلقته طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شَفِير القبر ـ لا يُدْرَى من تلاها ـ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النفسُ المُطْمَئِنة ٱرجِعِي إلى ربِّك راضيةً مرضِية﴾. وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رُومَة[٢]. وقيل: نزلت في خُبَيب بن عدِيّ الذي صَلَبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فحوّل الله وجهه نحو القِبلة. والله أعلم.

معنى ﴿إِلَى رَبِّك﴾ أي إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ٱبن عباس وعِكرمة وعطاء. وٱختاره الطَّبَرِيّ؛ ودليله قراءة ٱبن عباس ﴿فادْخُلِي فِي عَبْدِي﴾ على التوحيد، فيأمر الله تعالى الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد. وقرأ ٱبن مسعود ﴿في جسد عبدي﴾. وقال الحسن: ٱرجعي إلى ثواب ربك وكرامته. وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت

(١) آية ٣٨ سورة الرعد.

(٢) هي بئر بالمدينة.

﴿فادْخلِي فِي عِبادِي﴾ أي في أجساد عبادي؛ دليله قراءة ٱبن عباس وابن مسعود. قال ٱبن عباس: هذا يومَ القيامة؛ وقاله الضحاك. والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مَسْكَن الأبرار، ودار الصالحين والأخيار. ومعنى ﴿فِي عِبادِي﴾ أي في الصالحين من عبادي؛ كما قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهم فِي الصَّالِحِين﴾[1]. وقال الأخفش: ﴿فِي عِبادِي﴾ أي في حِزبي؛ والمعنى واحد. أي ٱنتظمي في سِلْكهم. ﴿وادخلِي جنتِي﴾ معهم.

سورة «البلـد»

مكية بٱتفاق. وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

يجوز أن تكون ﴿لا﴾ زائدة؛ كما تقدّم في ﴿لا أقسِم بِيومِ القِيامةِ﴾[2]؛ قاله الأخفش. أي أقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهذا البلدِ﴾ وقد أقسم به في قوله: ﴿وهذا البلدِ الأمِينِ﴾ فكيف يَجْحَد القسم به وقد أقسم به. قال الشاعر:

تَذَكَّرتُ ليلى فاعترتني صَبابة وكـاد صمِيـم القلـبِ لا يَتَقطَّـع

أي يتقطع، ودخل حرف ﴿لا﴾ صلة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَك ألاَّ تَسْجـدَ إذْ أَمَرْتُـك﴾[3] بدليـل قولـه تعالـى في صٓ: ﴿ما منعك أن تسجد﴾[4]. وقـرأ الحسـن والأعمـش وابـن كثِيـر ﴿لأُقْسِم﴾ من غيـر ألف بعـد اللام إثباتـا. وأجـاز الأخفش أيضـاً أن تكـون بمعنـى ﴿ألاَ﴾. وقيل: ليست بنفي القسم، وإنما هو كقول العرب: لا والله لا فعلت كذا، ولا والله ما كان

(١) آية ٩ سورة العنكبوت.
(٢) راجع ١٩/ ٩٠.
(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع ٧/ ١٧٠.
(٤) آية ٧٥.

كذا، ولا والله لأَفْعَلنّ كذا. وقيل: هي نفي صحيح؛ والمعنى: لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكيّ. ورواه ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد قال: ﴿لا﴾ ردٌّ عليهم. وهذا ٱختيار ٱبن العربيّ؛ لأنه قال: «وأما من قال إنها ردّ، فهو قول ليس له ردّ؛ لأنه يصح به المعنى، ويتمكن اللفظ والمراد». فهو ردّ لكلام من أنكر البعث ثم ٱبتدأ القسم. وقال القشيري: قوله ﴿لا﴾: ردّ لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة، المغرور بالدنيا. أي ليس الأمر كما يحسبه، من أنه لن يقدر عليه أحد، ثم ٱبتدأ القسم. و ﴿البلد﴾: هي مكة، أجمعوا عليه. أيِ أُقسِم بالبلد الحرام الذي أنت فيه، لكرامتك عليّ وحبي لك. وقال الواسطيّ أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيا، وبركتك ميتا؛ يعنى المدينة. والأوّل أصح؛ لأن السورة نزلت بمكة بٱتفاق.

[٢] ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

يعنى في المستقبل؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهمْ مَيِّتون﴾[١]. ومثله واسع[٢] في كلام العرب. تقول لمن تَعِدُه الإكرامَ والحِباء: أنت مُكرمٌ مَحْبُوّ. وهو في كلام الله واسع، لأن الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة؛ وكفاك دليلاً قاطعاً على أنَّه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال: أن السورة بٱتفاق مكية قبلَ الفتح. فروى منصور عن مجاهد: ﴿وأَنتَ حِلٌّ﴾ قال: ما صنعت فيه من شيء فأنت في حِلّ. وكذا قال ٱبن عباس: أُحِلّ له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء، فقتل ٱبن خَطَل[٣] ومِقْيس بن صُبَابة وغيرهما. ولم يَحِلَّ لأحد من الناس أن يقتل بها أحداً بعد رسول الله ﷺ. وروى السُّدّي قال: أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله. وروى أبو صالح عن ٱبن عباس قال: أُحِلّت له ساعة من نهار، ثم أُطبِقت وحرّمت إلى يوم القيامة؛ وذلك يومَ فتح مكة. وثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنّ الله حرّم مكة يوم خَلَق السمواتِ والأرضَ، فهي حَرام إلى أن تقوم الساعة، فلم

(١) آية ٣٠ سورة الزمر. (٢) في بعض نسخ الأصل: «شائع».
(٣) هو عبد الله، كان معلقاً بأستار الكعبة؛ فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر الرسول صلوات الله عليه.

تَحِلّ لأحد قبلي، ولا تَحِلّ لأحد بعدي، ولم تحِلَّ لي إلاّ ساعةً من نهار» الحديث. وقد تقدّم في سورة ﴿المائدة﴾. ٱبن زيد: لم يكن بها أحد حَلالاً غيرَ النبي ﷺ. وقيل: وأنت مُقِيم فيه وهو محلك. وقيل: وأنت فيه محْسن، وأنا عنك فيه راضٍ. وذكر أهل اللغة أنه يقال: رجل حِلٌّ وحَلال ومُحِلّ، ورجل حَرَامٌ ومحلّ، ورجل حَرَام ومُحْرِم. وقال قتادة: أنت حِلٌّ به: لست بآثم. وقيل: هو ثناء على النبيّ ﷺ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يَحرُم عليك ٱرتكابه، معرفة منك بحق هذا البيت؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه. أي أقسِم بهذا البيت المعظم الذي قد عَرَفتَ حرمته، فأنت مقيم فيه معظم له، غير مرتكب فيه ما يحرُم عليك. وقال شُرَحْبِيل بن سعد: ﴿وأنت حِل بِهذا البلِد﴾ أي حلال؛ أي هم يحرّمُون مكة أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا[١] بها شجرة، ثم هم مع هذا يستحلون إخراجك وقتلك.

[٣] ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدم: عليه السلام. ﴿وما ولد﴾ أي وما نَسَل من ولده. أقسم بهم لأنهم أَعجبُ ما خلق الله تعالى على وجه الأرض؛ لما فيهم من التِّبيان والنطق والتدبير، وفيهم الأنبياء والدُّعاة إلى الله تعالى. وقيل: هو إقسام بآدم والصالحين من ذُرّيته، وأما[٢] غير الصالحين فكأنهم بهائم. وقيل: الوالد إبراهيم. وما ولد: ذرِّيته؛ قاله أبو عمران الجَونِيّ. ثم يحتمل أنه يريد جميع ذرّيته. ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذرّيته. قال الفرّاء: وصَلَحتْ ﴿ما﴾ للناس؛ كقوله: ﴿مَا طابَ لَكُمْ﴾، وكقوله: ﴿وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى﴾ وهو الخالق للذكر والأنثى. وقيل: ﴿ما﴾ مع ما بعدها في موضع المصدر؛ أي ووالد ووِلادته؛ كقوله تعالى: ﴿ والسماءِ وما بناها ﴾. وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: ﴿ ووالِدٍ ﴾ يعني الذي يولد له. ﴿وما ولد﴾

(١) عضد الشجرة وغيرها: قطعها بالمعضد والمعضد: سيف يمتهن في قطع الشجرة.

(٢) في بعض نسخ الأصل: «وأما الطالحون».

يعني العاقر الذي لا يُولَد له؛ وقاله ٱبن عباس. و ﴿ما﴾ على هذا نفي. وهو بعيد، ولا يصح إلا بإضمار الموصول؛ أي ووالد والذي ما ولد، وذلك لا يجوز عند البصريين. وقيل: هو عموم في كل والد وكل مولود؛ قاله عطية العَوفي. ورُوِي معناه عن ٱبن عباس أيضاً. وهو ٱختيار الطبريّ. قال الماورديّ: ويحتمل أن الوالد النبيّ ﷺ، لتقدّم ذكره، وما ولد أمّته: لقوله عليه السلام: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم». فأقسم به وبأمّته بعد أن أقسم ببلده؛ مبالغة في تشريفه عليه السلام.

[٤] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

إلى هنا ٱنتهى القَسَم؛ وهذا جوابه. ولله أن يُقْسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدم. والإنسان هنا ٱبن آدم. ﴿في كَبَدٍ﴾ أي في شدّة وعناء من مكابدة الدنيا. وأصل الكَبَد الشدّة. ومنه تكبَّد اللبن: غَلُظَ وخَثُر وٱشتدّ. ومنه الكَبِد؛ لأنه دم تغلّظ وٱشتدّ. ويقال: كابدت هذا الأمر: قاسيت شدّته. قال لَبيد:

يـا عيـنُ هـلاَّ بكيـتِ أربـدَ إذْ قُمْنـا وقـام الخصـومُ فـي كَبَـدِ

قال ٱبن عباس والحسن: ﴿في كَبَد﴾ أي في شدّة ونَصَب. وعن ٱبن عباس أيضاً: في شدّة من حمله وولادته ورضاعه ونَبْت أسنانه، وغير ذلك من أحواله. وروى عكرمة عنه قال: منتصباً في بطن أمّه. والكَبَد: الاستواء والاستقامة. فهذا ٱمتنان عليه في الخلقة. ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة في بطن أمها إلا منكَبة على وجْهها إلا ٱبن آدم، فإنه منتصِب ٱنتصاباً؛ وهو قول النخَعِيّ ومجاهد وغيرهما. ٱبن كيسان؛ منتصباً رأسُه في بطن أمه؛ فإذا أَذِنَ الله أن يخرج من بطن أمه قَلَبَ رأسَه إلى رجلي أمّه . وقال الحسن : يُكابِد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعنه أيضاً: يكابد الشكر على السَّرَّاء ويكابد الصبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ٱبن عمر. وقال يَمانٌ: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ٱبن آدم؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق. قال عُلماؤنا: أوّل ما يكابد قطع سُرَّته؛ ثم إذا

قِمط قِماطاً، وشَدَّ رِباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرّك لسانه، ثم يكابد الفِطام، الذي هو أشدّ من اللِّطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المُعَلِّم وصَولَته، والمؤدّب وسياسته، والأستاذ وهَيبته، ثم يكابد شغل التَّزْويج والتعجيل فيه[1]، ثم يكابد شُغْل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكِبَر والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادُها، ونوائب يطول إيرادُها، من صُداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغَمّ الدَّين، ووجع السنّ، وألم الأذن. ويكابِد مِحَناً في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلاّ يقاسي فيه شدّة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملَك، وضَغْطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقرّ به القرار، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمر إليه لما ٱختار هذه الشدائد. ودلّ هذا على أن له خالقاً دَبَّره، وقضى عليه بهذه الأَحوال؛ فليمتثل أمره. وقال ٱبن زيد: الإنسان هنا آدم. وقوله: ﴿في كَبَد﴾ أي في وسط السماء. وقال الكَلْبيّ: إن هذا نزل في رجل من بني جُمَحَ؛ كان يقال له أَبُو الأشدين[2]، وكان يأخذ الأديم العُكاظِيّ فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه؛ وكان من أعداء النبيّ ﷺ، وفيه نزل ﴿أيحسَبُ أن لَن يَقْدِرَ عليهِ أَحَد﴾ يعني: لقوّته. ورُوي عن ٱبن عباس. ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي شديداً، يعني شديد الخَلق؛ وكان من أشدّ رجال قريش. وكذلك رُكانة بن هاشم بن عبد المطلب، وكان مثلاً في البأس والشدّة. وقيل: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضعف خِلقته، ومهانة مادّته. ٱبن عطاء: في ظلمة وجهل. الترمِذِي: مُضِيعاً ما يَعْنِيه، مشتغِلاً بما لا يعنيه.

(١) في نسخة من نسخ الأصل و «حاشية الجمل»: «ثم يكابد شغل التزبح والتعجيل فيه، والترويج».
(٢) كذا في نسخ الأصل. وفي «الكشاف وروح المعاني» والبيضاوي والثعلبي: «أبو الأشد».

[٥] ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

[٦] ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

[٧] ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

[٨] ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يقدِرَ عَلَيه أَحَد﴾ أي أيظنّ ٱبن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل. ﴿يَقُول أهلكت﴾ أي أنفقت. ﴿مالاً لُبَداً﴾ أي كثيراً مجتمعاً. ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي أيظنّ. ﴿أَنْ لمْ يَرَهُ﴾ أي أن لم يعاينه ﴿أَحَدٌ﴾ بل علم الله عز وجل ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهلكت ولم يكن أنفقه. وروى أبو هريرة قال: يوقف العبد، فيقال ماذا عملت في المال الذي رزقتك؟ فيقول: أنفقته وزَكَّيته. فيقال: كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سَخِيّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمر به إلى النار. وعن سعيد عن قتادة: إنك مسؤول عن مالِكَ من أينَ جمعت؟ وكيف أنفقت؟ وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدَّين يقول: أنفقت في عداوة محمد مالاً كثيراً وهو في ذلك كاذب. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فٱستفتى النبيّ ﷺ، فأمره أن يُكَفِّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمد. وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق، فيكون طغياناً منه، أو أسفاً عليه، فيكون ندماً منه. وقرأ أبو جعفر ﴿مالاً لُبَّداً﴾ بتشديد الباء مفتوحة، على جمع لابد؛ مثل راكع وركَّع، وساجد وسُجّد، وشاهد وشُهَّد، ونحوه. وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمّ الباء واللام مخففاً، جمع لُبود. الباقون بضمّ اللام وكسرها وفتح الباء مخففاً، جمع لُبْدَة ولبدة، وهو ما تلبد؛ يريد الكثرة. وقد مضى في سورة ﴿الجن﴾ القول فيه[1]. وروي عن النبيّ ﷺ أنه كان يقرأ ﴿أَيَحْسَبُ﴾ بضم السين في الموضعين. وقال الحسن: يقول أتلفت مالاً كثيراً، فمن يحاسبني به؛ دعني أَحْسبُه. ألم يعلم أن الله قادر على مُحاسبته، وأن الله عز وجل يرى صنيعه، ثم عَدّد عليه نعمه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل له عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما ﴿ولِساناً﴾ ينطق به. ﴿وشَفَتَيْنِ﴾ يستُر بهما

(١) راجع ١٩/٢٢ وما بعده.

ثغره. والمعنى: نحن فعلنا ذلك، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحصِيَ عليه ما عمله.
وقال أبو حازم: قال النبيّ ﷺ: «إن الله تعالى قال: يا بن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بطبقين، فأطبِق؛ وإن نازعك بصرك فيما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين، فأطْبِق؛ وإن نازعك فرجك إلى ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقَين، فأطبق». والشَّفَة: أصلها شَفْهة، حذفت منها الهاء، وتصغيرها: شُفيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات؛ والهاء أقيس، والواو أعمّ، تشبيهاً بالسنوات. وقال الأزهريّ: يقال هذه شَفَة في الوصل وشَفَةٌ، بالتاء والهاء. وقال قتادة: نِعَم الله ظاهرة، يقرّرك بها حتى تشكر.

[١٠] ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. أي بيناهما له بما أرسلناه من الرسُل. والنجد. الطريق في ٱرتفاع. وهذا قول ٱبن عباس وٱبن مسعود وغيرهما. وروى قتادة قال: ذُكِر لنا أن النبيّ ﷺ كان يقول: «يا أَيُّهَا الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجد الخير، ونجد الشر، فلِم تجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير» ورُوي عن عكرمة قال: النَّجدان: الثديان. وهو قول سعيد بن المسيّب والضحاك، وروِي عن ٱبن عباس وعليّ رضي الله عنهما؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه. فالنجد: العُلُوّ، وجمعه نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»، لارتفاعها عن انخفاض تِهامة. فالنجدان: الطريقان العاليان. قال ٱمرؤ القيس:

فريقان منهمْ[١] جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ وآخرُ منهم قاطِعٌ نجدَ كَبْكَبِ

[١١] ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

أي فهلا أنفق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد، هلا أنفقه لاقتحام العَقَبة فيأمن!
والاقتحام: الرّمْيُ بالنفس في شيء من غير رَوِية؛ يقال منه: قَحَم في الأَمْر قُحوماً: أي رمى

(١) كذا في الأصل وديوان ٱمرىء القيس: وفي «اللسان» (مادة نجد):
غـداة غـدوا فسـالـك بطـن نخلـة
والجازع: القاطع. وبطن نخلة: موضع بين مكة والطائف. وكبكب: الجبل الأحمر الذي تجده بظهرك إذا وقفت بعرفة.

بنفسه فيه من غير روِية. وقَحَّم الفَرَس فارسَه تقحيماً على وجهه: إذا رماه. وتقحيم النفِس في الشيء: إدخالها فيه من غير روِية. والقُحْمة (بالضم) المَهْلَكة، والسنة الشديدة. يقال: أصابت الأعراب القُحْمة: إذا أصابهم قحط، فدخلوا الريف. والقُحَم: صِعاب الطريق. وقال الفرّاء والزجاج: وذكر ﴿لا﴾ مرة واحدة، والعرب لا تكاد تفرد ﴿لا﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلام آخر؛ كقوله تعالى: ﴿فلا صَدَّق ولا صلى﴾[(١)] ﴿ولا خَوفٌ عليهِم ولا هم يحزنون﴾. وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه؛ فيجوز أن يكون قوله: ﴿ثم كان من الذِين آمنوا﴾ قائماً مقام التكرير؛ كأنه قال: فلا ٱقتحم العقبة ولا آمن. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء؛ كقوله: لا نجا ولا سلِم. ﴿ومَا أَدْرَاكَ ما العَقَبَةُ﴾؟ قال سفيان بن عُيينة: كل شيء قال فيه ﴿وما أدراك﴾؟ فإنه أَخْبَر به، وكل شيء قال فيه ﴿وما يدريك﴾؟ فإنه لم يخبر به. وقال: معنى ﴿فلا ٱقتحم العقبة﴾ أي فلم يقتحم العقبة؛ كقول زُهَير:

وكانَ طَوَى كَشْحا على مُسْتَكِنَّةٍ ... فـلا هُـوَ أَبـداهـا ولـم يَتَقَـدَّمِ[(٢)]

أي فلم يبدها ولم يتقدّم. وكذا قال المبرّد وأبو عليّ: ﴿لا﴾: بمعنى لم. وذكره البخاريّ عن مجاهد. أي فلم يقتحم العقبة في الدنيا، فلا يحتاج إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبة وركوبها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وكذا وكذا؛ فبين وجوهاً من القُرَب المالية. وقال ٱبن زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام الاستفهام الذي معناه الإنكار؛ تقديره: أفلا ٱقتحم العقبة، أو هلا ٱقتحم العقبة. يقول: هلا أنفق ماله في فكّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان، ليجاوز به العقبة؛ فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد ﷺ. ثم قيل: ٱقتحام العقبة هاهنا ضرب مَثَل، أي هل تَحَمَّلَ عِظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه، والإيمان به. وهذا إنما يليق بقول من حمل ﴿فَلا ٱقْتَحَم العَقَبَةَ﴾ على الدعاء؛ أي فلا نجا ولا سلم من لم ينفق ماله في كذا وكذا. وقيل: شبه عِظَم الذنوب وثِقلها وشدّتها بعقبة، فإذا أعتق رقبة وعمِل صالحاً، كان مثله كمثل من ٱقتحم العقبة، وهي الذنوب التي تضره وتؤذيه وتثقله. قال

(١) آية ٣١ سورة القيامة.

(٢) الكشح: الخاصرة. ومستكنة: على نية أكنها في نفسه

ابن عمر: هذه العقبة جبل في جهنم. وعن أبي رجاء قال: بلغنا أن العقبة مَصْعَدُها سبعة آلاف سنة، ومهبِطها سبعة آلاف سنة. وقال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجِسر، فٱقتحِمُوها بطاعة الله. وقال مجاهد والضحاك والكلبي: هي الصراط يُضْرب على جهنم كحدّ السيف، مسيرة ثلاثة آلاف سنة، سهلاً وصُعوداً وهُبوطاً. واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء. وقيل: اقتحامه عليه قدرُ ما يصلي صلاة المكتوبة. وروي عن أبي الدرداء أنه قال: إن وراءنا عقبة، أَنْجَى الناسِ منها أخفهم حِمْلا. وقيل: النار نفسها هي العقبة. فروى أبو رجاء عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعْتَق رقبة إلا كانت فداءه من النار. وعن عبد الله بن عمر قال: من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فَرجه بفرجه». وفي الترمذي عن أبي أُمامة وغيره من أصحاب النبيّ ﷺ قال: «أيُّما ٱمرىءٍ مُسْلِمٍ أعتقَ ٱمْرأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجْزِي كل عضو منه عضواً منه، وأيُّما ٱمرأة مسلمة أعتقتْ ٱمرأة مُسلمة، كانت فكاكَها من النار، يجزي كل عضو منها عضواً منها». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقيل: العقبة خلاصه من هول العَرْض. وقال قتادة وكعب: هي نار دون الجسر. وقال الحسن: هي والله عقبة شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان. وأنشد بعضهم:

إنـي بُلِيـتُ بـأربـعٍ يَـرْمينَنـي ... بالنَّبْل قد نَصَبوا عليّ شِراكَا
إبليسُ والـدنيا ونفسـي والهـوَى ... مـن أيـن أربـو بينهـن فكـاكـا
يـا ربِّ سـاعـدنـي بعفـوٍ إننـي ... أصبحـت لا أرجـو لهـن سِواكـا

[١٢] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

فيه حذف؛ أي وما أدراك ما ٱقتحام العقبة. وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين؛ والخطاب للنبيّ ﷺ، ليعلمه ٱقتحام العقبة. قال القشيري: وحمل العقبة على

عقَبة جَهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنم؛ إلا أن يحمل على أن المراد فهلاَّ صَيَّر نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً. واختار البخاريّ قول مجاهد: إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا. قال ابن العربيّ: «وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية: ﴿وما أدْراكَ ما العَقَبةُ﴾؟ ثم قال في الآية الثالثة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، وفي الآية الرابعة ﴿أَوْ إطْعامٌ فِي يوم ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، ثم قال في الآية الخامسة: ﴿يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ﴾، ثم قال في الآية السادسة: ﴿أَوْ مِسكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوك العقبة في الآخرة».

[١٣] ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكها: خلاصها من الأسر. وقيل: من الرّق. وفي الحديث «وفك الرقبةِ أن تُعِين في ثَمَنها» من حديث البرَاء، وقد تقدم في سورة ﴿براءة﴾[(١)]. والفكّ: هو حلّ القيد؛ والرِّق قيد. وسمي المرقوق رَقَبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وسُمِّي عنقها فَكّا كفك الأسير من الأَسْر. قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكناه بلا ثَمَنٍ   وجَـزِّ نـاصيـةٍ كنـا مَـوَاليهـا

وروى عُقبة بن عامر الجهنيّ أن رسول الله ﷺ قال: «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار». قال الماورديّ: ويحتمل ثانياً أنه أراد فك رقبته وخلاص نفسه، باجتناب المعاصي، وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصْبَغُ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العِتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبيّ ﷺ وقد سُئِل أيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها». ابن العربيّ: «والمراد في هذا الحديث: (من

---

(١) راجع ٨/١٨٣.

المسلمين)؛ بدليل قوله عليه السلام: «مَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلماً» و «مَنْ أَعْتَقَ رقبة مُؤْمِنة». وما ذكره أصبغ وَهْلَة[1]، وإنما نظر إلى تنقيص المال، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة، وتفريغه للتوحيد، أولى».

الثالثة ـ العِتق والصدقة من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفة: أن العتق أفضل من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقة أفضل. والآية أدل على قول أبي حنيفة؛ لتقديم العتق على الصدقة. وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة: أيضعه في ذي قرابة أو يعتق رقبة؟ قال: الرقبة أفضل؛ لأن النبيّ ﷺ [قال]: «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً من النار».

[١٤] ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أو إِطْعامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي مَجاعة. والسَّغَب: الجوع. والساغب: الجائع ـ وقرأ الحسن ﴿أو إطعامٌ فِي يومٍ ذا مَسْغَبةٍ﴾ بالألف في ﴿ذا﴾ ـ وأنشد أبو عبيدة:

فلَوْ كنتُ جاراً[2] يابن قَيْسٍ بن عاصمٍ لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبَا

وإطعام الطعام فضيلة، وهو من السَّغَب الذي هو الجوع أفضل. وقال النَّخَعِيّ في قوله تعالى: ﴿أو إِطْعَامٌ فِي يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يوم عزيز فيه الطعام. ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من موجِباتِ الرحمةِ إطعامُ المُسْلِم السَّغْبانَ». ﴿يَتِيماً ذا مَقْرَبةٍ﴾ أي قرابة. يقال: فلان ذو قرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يَكْفله. وأهل اللغة يقولون: سُمّي يتيماً لضعفه. يقال: يَتَمَ الرجل يُتْماً: إذا ضعف.

---

(١) كذا في «الأصول» وابن العربي، ولعلها المرة من الوهل، وهو الغلط. وهل إلى الشيء (بالفتح) يهل (بالكسر) وهلا (بالسكون): إذا ذهب وهمه إليه. ويجوز أن يكون بمعنى غلطةً أو سهوة.

(٢) كذا في «الأصول». يريد: فلو كنت جاراً قائماً بحق الجوار لما حدث هذا.

وذكروا أن اليَتيم في الناس من قِبل الأب، وفي البهائم من قِبل الأمهات. وقد مضى في سورة ﴿البقرة﴾ مُسْتوفًى(١)، وقال بعض أهل اللغة: اليتيم الذي يموت أبواه. وقال قيس بن الملوَّح:

إلَى اللَّهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إلَـى اللَّـهِ فقـدَ الـوالِـدَيْـن يَتِيـمُ

قوله تعالى: ﴿أَو مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾ أي لا شيء له، حتى كأنه قد لصِق بالتّراب من الفقر، ليس له مَأوى إلا التراب. قال ٱبن عباس: هو المطروح على الطريق، الذي لا بيت له. مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لِباس ولا غيره. وقال قتادة: إنه ذو العيال. عكرمة: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ٱبن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمة عن ٱبن عباس: ذو المَتْرَبَة البعيد التربة؛ يعني الغريب البعيد عن وطنه. وقال أبو حامد الخارَزَنْجِيّ: المَتْربة هنا: من التَّرِيب؛ وهي شدة الحال. يقال ترب: إذا ٱفتقر. قال الهُذَلِيّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِمَاءَ البُدْن في تُرْبة الحال

وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو والكسائيّ: ﴿فَكَّ﴾ بفتح الكاف، على الفعل الماضي. ﴿رقبةً﴾ نصباً لكونها مفعولاً ﴿أو أَطْعَمَ﴾ بفتح الهمزة ونصب الميم، من غير ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: ﴿ثم كان مِن الذِين آمنوا﴾ فهذا أشكل بـ ﴿فكَّ وأَطعمَ﴾. وقرأ الباقون: ﴿فَكُّ﴾ رفعاً، على أنه مصدر فككت. ﴿رقبةٍ﴾ خفض بالإضافة. ﴿أو إطعامٌ﴾ بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضاً. وٱختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسير لقوله تعالى: ﴿وما أدْرَاكَ ما العَقَبةُ﴾؟ ثم أخبره فقال: ﴿فَكُّ رَقَبةٍ. أو إِطْعَامٌ﴾. المعنى: ٱقتحام العقبة: فكّ رقبة أو إطعام. ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى؛ أي ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذا مَسْغَبة؛ فكيف يجاوز العَقَبة. وقرأ الحسن وأبو رَجاء: ﴿ذا مسغبة﴾ بالنصب على أنه مفعول ﴿إطعام﴾ أي يطعمون ذا مَسْغَبة و ﴿يَتيماً﴾ بدل منه. الباقون ﴿ذِي مَسْغبة﴾ فهو صفة لـ ﴿يوم﴾. ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور؛ لأن قوله: ﴿في يوم﴾ ظرف منصوب الموضع، فيكون وصفاً له على المعنى دون اللفظ.

(١) راجع ٢/ ١٤ طبعة ثانية

[١٧] ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

[١٨] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

[١٩] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾.

[٢٠] ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمّ كانَ مِنَ الذِينَ آمنوا﴾ يعني: أنه لا يقتحم العقبَةَ من فكَّ رقبة، أو أطعمَ في يوم ذا مَسْغَبة، حتى يكون من الذين آمنوا؛ أي صدّقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله. فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وما منعهم أَن تقبل مِنهم نفقاتهم إلاَّ أنهم كفروا بِاللَّهِ وبِرَسولِه﴾[١]. وقالت عائشة: يا رسول الله، إن ٱبن جُدْعَانَ كان في الجاهلية يصِل الرحِم، ويُطعم الطعام، ويَفُكُّ العانيَ، ويُعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً ربِّ ٱغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين». وقيل: ﴿ثُمَّ كانَ مِن الذِينَ آمَنُوا﴾ أي فعل هذه الأشياء وهو مؤمن، ثم بقي على إيمانه حتى الوفاة؛ نظيره قوله تعالى: ﴿وإِنّي لَغَفَّار لمن تاب وآمن وعمِل صالِحاً ثم ٱهتدَى﴾[٢]. وقيل: المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى. وقيل: أتى بهذه القُرَب لوجه الله، ثم آمن بمحمد ﷺ. وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم، يا رسول الله، إنا كنا نَتَحَنَّثُ[٣] بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه السلام: «أسلمت على ما أسلفت من الخير». وقيل: إن ﴿ثم﴾ بمعنى الواو؛ أي وكان هذا المعتِق الرقبة، والمطعم في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وتَواصَوْا﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً. ﴿بِالصبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه؛ وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب. ﴿وتواصَوْا بِالمَرْحَمةِ﴾ أي بالرَّحمة على الخلق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيم والمسكين. ﴿أُولئكَ أَصحابُ المَيْمَنةِ﴾ أي الذين يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيّ وغيره. وقال يحيى بن سلام: لأنهم مَيامينُ على أنفسهم. ٱبن زيد: لأنهم أُخِذوا من شِقّ آدم الأيمن. وقيل: لأن منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهْران: ﴿والذين كفروا

---

(١) آية ٥٤ سورة التوبة. (٢) آية ٨٢ سورة طه. (٣) أي نتقرّب بها إلى الله.

بِآيَاتِنا﴾ أي القرآن. ﴿هُمْ أَصْحابُ المَشْأَمَةِ﴾ أي يأخذون كتبهم بشمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنهم مَشائيم على أنفسهم. ٱبن زيد: لأنهم أُخِذوا من شِق آدم الأيسر. ميمون: لأن منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يُقال: إن أصحاب الميمنة أصحابُ الجنة، وأصحاب المَشأمة أصحابُ النار؛ قال الله تعالى: ﴿وأَصحابُ اليمين[1] مَا أصحابُ اليمينِ، في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾، وقال: ﴿وأصحابُ الشِّمالِ ما أصحاب الشِّمالِ. فِي سَمُومٍ وحَمِيمٍ﴾. وما كان مثله. ومعنى ﴿مُؤْصَدَة﴾ أي مطبَقة مُغْلَقة. قال:

تَحِـنُّ إلـى أجبـال مكـة نـاقَتِـي ... ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤْصَدَهْ

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخلُها. وأهل اللغة يقولون: أَوْصَدْتُ البابَ وآصَدْتُهُ؛ أي أغلقته. فمن قال أوصدت، فالاسم الوِصاد»، ومن قال آصدته، فالاسم الإصاد. وقرأ أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب والشَّيْزَرِيُّ عن الكسائيّ ﴿مُؤْصَدَة﴾ بالهمز هنا، وفي ﴿الهمزة﴾. الباقون بلا همز. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش[2] قال: لنا إمام يهمز ﴿مُؤْصَدَة﴾، فأشتهي أن أسُدّ أذنيّ إذا سمعته.

سورة الشمس

مكية بٱتفاق، وهي خَمْسَ عَشْرةَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَـٰهَا ۝١﴾.

قال مجاهد: ﴿وضُحاها﴾ أي ضوئها وإشراقها. وهو قَسَم ثان. وأضاف الضحى إلى الشمس، لأنه إنما يكون بٱرتفاع الشمس. وقال قتادة: بهاؤها. السُّدّي: حرّها. وروى الضحاك عن ٱبن عباس: ﴿وضحاها﴾ قال: جعل فيها الضوء وجعلها حارة. وقال اليزيديّ: هو ٱنبساطها. وقيل: ما ظهر بها من كل مخلوق؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨، ٤٢ سورة الواقعة.

(٢) كان ينكر على الكسائي همز (مؤصدة).

كلها. حكاه الماورديّ: والضُّحا: مؤنثة. يقال: ٱرتفعت الضُّحا، [وهي] فوق الضَّحْو[1]. وقد تُذَكَّر. فمن أنّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوَة. ومن ذكَّر ذهب إلى أنه ٱسم على فُعَل، نحو صُرَدٍ ونُغَرٍ[2]. وهو ظرف غير متمكن مثل سَحَر. تقول: لقِيتُه ضُحاً وضُحَا؛ إذا أردت به ضُحا يومِك لم تنوّنه. وقال الفرّاء: الضُّحا هو النهار؛ كقول قتادة. والمعروف عند العرب أن الضحا: إذا طلعت الشمس وبُعَيْد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضَّحاء بالمد. ومن قال: الضُّحا: النهار كله، فذلك لدوام نور الشمس. ومن قال: إنه نور الشمس أو حرها، فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس. وقد ٱستدل من قال: إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى: ﴿ولا تَضْحَى﴾ أي لا يؤذيك الحرّ. وقال المبرد: أصل الضُّحَا من الضِّحّ، وهو نور الشمس، والألف مقلوبة من الحاء الثانية. تقول: ضَحْوَة وضَحَوَات، وضَحَوَاتٌ وضُحَا، فالواو من (ضَحْوَة) مقلوبة عن الحاء الثانية، والألف في (ضُحَا) مقلوبة عن الواو. وقال أبو الهيثم: الضِّح: نقيض الظِّل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله الضُّحَا، فٱستثقلوا الياء مع سكون الحاء، فقلبوها ألفاً.

[٢] ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

أي تَبِعها: وذلك إذا سقطت رِىءَ الهلال. يقال: تَلَوْت فلاناً: إذا تَبِعته. قال قتادة: إنما ذلك ليلة الهلال، إذا سَقَطت الشمس رِىءَ[3] الهلال. وقال ٱبن زيد: إذا غَرَبت الشمس في النصف الأول من الشهر، تلاها القمر بالطلوع، وفي آخر الشهر يتلُوها بالغروب. الفراء: ﴿تلاها﴾: أخذ منها؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس. وقال قوم: ﴿والقمرِ إذا تَلاَها﴾ حين ٱستوى وٱستدار، فكان مِثْلَها في الضياء والنور؛ وقاله الزجاج.

---

(١) كذا في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي. وفي نسخ الأصل وتفسير ابن عادل: «فوق الصخور». تحريف. يريد أن الضحا: أشد ارتفاعاً من الضحو والضحوة (كما في «اللسان»: ضحا).

(٢) الصرد: طائر فوق العصفور. والنغر: فرخ العصفور.

(٣) أصله (رئي): قدّمت الياء على الهمزة.

[٣] ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي كشفها. فقال قوم: جلّى الظلمة؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ كما تقول: أضحت باردة؛ تريد أضحت غَداتُنا باردة. وهذا قول الفرّاء والكلبيّ وغيرهما. وقال قوم: الضمير في ﴿جَلاَّها﴾ للشمس؛ والمعنى: أنه يبين بضوئه جِرْمها. ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

تَجَلَّت لنا كالشمسِ تحتَ غَمامةٍ ... بدا حاجبٌ منها وضَنَّت بحاجِبِ

وقيل: جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر، لاستتاره ليلاً وٱنتشاره نهاراً. وقيل: جَلَّى الدنيا. وقيل: جَلَّى الأرض؛ وإن لم يجر لها ذكر؛ ومثله قوله تعالى: ﴿حتى تَوَارَتْ بِالحجابِ﴾[١] على ما تقدّم آنفاً.

[٤] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾.

أي يغشى الشمس، فيَذْهَب بضوئها عند سقوطها؛ قاله مجاهد وغيره. وقيل: يغشى الدنيا بالظُّلَم، فتُظلم الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور.

[٥] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أي وبنيانها. فما مصدرية؛ كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبّي﴾[٢] أي بغفران ربي؛ قاله قتادة، وٱختاره المبرد. وقيل: المعنى ومَن بناها؛ قاله الحسن ومجاهد؛ وهو ٱختيار الطبرِيّ. أي ومن خلقها ورفعها، وهو الله تعالى. وحُكِي عن أهل الحجاز: سُبحانَ ما سَبَّحَتْ له؛ أي سبحان مَنْ سَبَّحت له.

[٦] ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي وطحوها. وقيل: ومَنْ طحاها؛ على ما ذكرناه آنفاً. أي بسطها؛ كذا قال عامة المفسرين؛ مثل دحاها. قال الحسن ومجاهد وغيرهما: طحاها ودحاها: واحد؛ أي بسطها

---

(١) آية ٣٢ سورة ص. (٢) آية ٢٧ سورة يس.

من كل جانب. والطَّحْو: البسط؛ طَحَا يطحُو طحْواً، وطَحَى يَطْحِي طَحْياً، وطَحَيت: اضطجعت؛ عن أبي عمرو، وعن ابن عباس: طحاها: قَسَمها. وقيل: خلقها؛ قال الشاعر:

وما تَدْرِي جَذِيمة من طَحَاها ولا مَنْ ساكِنُ العرشِ الرَّفيعِ

الماورديّ: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز؛ لأنه حياة لما خُلِق عليها. ويقال في بعض أيمان العرب: لا، والقمر الطَّاحِي؛ أي المُشْرِفُ المشرق المرتفع. قال أبو عمرو: طحا الرجل: إذا ذهب في الأرض. يقال: ما أدري أين طَحَا ويقال: طحا به قلبه: إذا ذهب به في كل شيء. قال علقمة:

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

[٧] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾.

قيل: المعنى وتسويتها. ﴿فما﴾: بمعنى المصدر. وقيل: المعنى ومن سَوّاها، وهو الله عز وجل. وفي النفس قولان: **أحدهما** - آدم. **الثاني** - كل نفس منفوسة. وسوّى: بمعنى هيأ. وقال مجاهد: سوّاها: سَوَّى خَلْقها وعَدَّل. وهذه الأسماء كلها مجرورة على القَسَم. أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه.

[٨] ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فأَلْهَمَهَا﴾ أي عَرَّفها؛ كذا رَوَى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد. أي عرفها طريق الفجور والتقوى؛ وقاله ابن عباس. وعن مجاهد أيضاً: عَرَّفها الطاعةَ والمعصية. وعن محمد بن كعب قال: إذا أراد الله عز وجل بعبده خيراً، ألهمه الخيرَ فعمِل به، وإذا أراد به السوء، ألهمه الشر فعمِل به. وقال الفَراء: ﴿فألهمها﴾ قال: عرّفها طريق الخير وطريق الشر؛ كما قال: ﴿وهَدَيْناه النَّجْدينِ﴾[١]. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: أَلْهَمَ المؤمن المتقي تقواه، وألهم الفاجر فجوره. وعن سعيد عن قتادة قال: بَيَّن لها فجورها وتقواها. والمعنى

---

(١) آية ١٠ سورة البلد.

متقارب. ورُوِي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَأَلْهَمَها فُجورَها وتقواها﴾ قال: «اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خيرُ من زكَّاها، أنت ولِيُّها ومَولاها». ورواه جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس: أن النبيّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿فألْهمَها فُجورَها وتَقْوَاها﴾ رفع صوته بها، وقال: «اللهم آتِ نفسِي تقواها، أنت ولِيها ومولاها، وأنت خيرُ من زَكَّاها». وفي «صحيح مسلم»، عن أبي الأسود الدُّؤَلِيّ قال: قال لي عِمران بن حصين: أرأيتَ ما يعمل الناس اليوم، ويَكْدَحون فيه، أشيء قُضِي ومَضَى عليهم من قَدَرٍ سبق، أو فيما يَسْتقبلون[١] مما أتاهم به نبِيُّهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قُضِي عليهم، ومَضى عليهم. قال فقال: أفلا يكون ظُلْماً؟ قال: ففزِعت من ذلك فَزَعاً شديداً، وقلت: كل شيء خَلْقُ اللَّهِ ومِلْك يده، فلا يُسْأَل عما يفعلُ وَهُمْ يُسْألون. فقال لي: يرحمك الله! إني لم أرِد بما سألتك إلا لأحزِر[٢] عقلَك، إنّ رجلين من مُزَينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعملُ الناس اليوم ويَكْدَحون فيه: أشيء قُضِيَ عليهم ومضى فيهمْ من قَدَرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبِيُّهم. وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا بل شيء قُضِي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ونفسٍ وما سَوَّاها. فألهمها فجورها وتَقْواها﴾. والفجور والتقوى: مصدران في موضع المفعول به.

[٩] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾. [١٠] ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفلحَ مَنْ زكَّاها﴾ هذا جواب القسم، بمعنى: لقد أفلح. قال الزجاج: اللام حذفت، لأن الكلام طال، فصار طوله عِوضاً منها. وقيل: الجواب محذوف؛ أي والشمس وكذا وكذا لَتُبْعثن. الزمخشريّ: تقديره لَيُدَمْدِمنّ الله عليهم؛ أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دَمْدَم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً. وأما ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾ فكلام تابع لأوّله؛ لقوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾، على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم

(١) في بعض الأصول: «مما يستقبلون به... الخ».
(٢) أي لأمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك.

في شيء. وقيل: هو على التقديم والتأخير بغير حذف؛ والمعنى: قد أفلح من زَكّاها، وقد خاب من دَسّاها، والشمس وضحاها. ﴿أفلح﴾ فاز. ﴿مَنْ زَكَّاها﴾ أي من زكى الله نفسه بالطاعة. ﴿وقدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ أي خسِرت نفسٌ دَسَّها الله عز وجل بالمعصية. وقال ٱبن عباس: خابت نفس أضلها وأغواها. وقيل: أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وصالح الأعمال، وخاب من دسّ نفسه في المعاصي؛ قاله قتادة وغيره. وأصل الزكاة: النموّ والزيادة، ومنه زكا الزرع: إذا كثر رَيْعُه، ومنه تزكية القاضي للشاهد؛ لأنه يرفعه بالتعديل، وذكر الجميل. وقد تقدم هذا المعنى في أوّل سورة ﴿البقرة﴾[١] مستوفًى. فمصطنع المعروف والمبادر إلى أعمال البِر، شَهَر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا وٱرتفاعَ الأرض، ليشتهر مكانُها للمُعْتَفِين[٢]، وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأَوْلاج والأطراف والأهضام[٣]، ليخفى مكانها عن الطالبين. فأولئك عَلَّوا أنفسهم وزَكُّوها، وهؤلاء أخفَوا أنفسهم ودَسُّوها. وكذا الفاجر أبداً خفِيّ المكان، زَمِرُ[٤] المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس بركوب المعاصي. وقيل: دساها: أغواها. قال:

وأَنتَ الذي دَسَّيْتَ عَمْراً فأصبحت ... حـلائلُـه منـه أرامِـلَ ضُيَّعـا[٥]

قال أهل اللغة: والأصل: دسَّسَها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياء؛ كما يقال: قَصَّيْت أظفاري؛ وأصله قَصَّصْت أظفاري. ومثله قولهم في تَقَضَّضَ: تقضى. وقال ٱبن الأعرابي: ﴿وقدْ خابَ من دَسَّاها﴾ أي دس نفس في جملة الصالحين وليس منهم.

[١١] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾.

[١٢] ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾.

[١٣] ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾.

[١٤] ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.

---

(١) راجع ١/ ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) المعتفي: كل طالب فضل أو رزق.
(٣) الأولاج: ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه. والأهضام: أسافل الأودية.
(٤) الزمر: القليل. (٥) الذي في «اللسان» (مادة دسا):

وأنت الذي دسيت عمراً فأصبحت ... نسـاؤهـم فيهـم أرامـل ضيـع

وقال: دسيت: أغويت وأفسدت. وعمرو: قبيلة.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحدّ في العصيان؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما. وعن ٱبن عباس ﴿بِطغواها﴾ أي بعذابها الذي وُعِدَتْ به. قال: وكان ٱسم العذاب الذي جاءها الطَّغْوى؛ لأنه طَغَى عليهم. وقال محمد بن كعب: ﴿بِطغواها﴾ بأجمعها. وقيل: هو مصدر، وخرج على هذا المخرج، لأنه أَشْكَلُ برؤوس الآي. وقيل: الأصل بطَغْياها، إلا أن ﴿فَعْلَى﴾ إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الاسم واواً، لِيُفصَل بين الاسم والوصف. وقراءة العامة بفتح الطاء. وقرأ الحسن والجَحْدرِي وحماد بن سلمة (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُّجْعَى والحُسْنى وشبههما في المصادر. وقيل: هما لغتان. ﴿إِذِ ٱنبعَثَ﴾ أي نهض. ﴿أشقاها﴾ لعَقْر الناقة. وٱسمه قُدَار بن سالِف. وقد مضى في ﴿الأعراف﴾[1] بيان هذا، وهل كان واحداً أو جماعة. وفي البخاريّ عن عبد الله بن زَمْعة أنه سمع النبيّ ﷺ يخطُب، وذكر الناقة والذي عَقَرها، فقال رسول الله ﷺ: «إِذِ ٱنبعَثَ أَشْقاهَا، ٱنبعث لها رجل عزيز عارِم[2]، منيع في رهطه، مثل أبي زَمَعة» وذكر الحديث. خرّجه مسلم أيضاً. وروى الضحاك عن عليّ: أن النبيّ ﷺ قال له: «أتدري من أشقى الأوّلين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «عاقر الناقة ـ قال ـ أتدري من أشقى الآخرين» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «قاتلك». ﴿فقال لَهُمْ رسولُ اللَّهِ﴾ يعني صالحاً. ﴿ناقَةَ اللَّهِ﴾ ﴿ناقةَ﴾ منصوب على التحذير؛ كقولك: الأسد الأسد، والصبيَّ الصبيَّ، والحِذارَ الحِذارَ. أي احذروا ناقة الله؛ أي عَقْرها. وقيل: ذروا ناقة الله، كما قال: ﴿هذِهِ ناقة اللَّهِ لكم آية فذروها تأكُلْ فِي أرضِ اللَّهِ ولا تمسوها بِسوءٍ فيأخذَكُمْ عذابٌ أليمٌ﴾[3]. ﴿وسُقْياها﴾ أي ذروها وشِربَها. وقد مضى في سورة ﴿الشعراء﴾[4] بيانه والحمد للَّهِ. وأيضاً في سورة ﴿اقتربت[5] الساعة﴾. فإنهم لما اقترحوا الناقة، وأخرجها لهم من الصخرة، جعل لهم شِربَ يوم من بئرهم، ولها شِربُ يوم مكان ذلك، فشقَّ ذلك عليهم.

---

(١) راجع ٧/ ٢٤١. (٢) العارم: الجبار المفسد الخبيث.
(٣) آية ٧٣ سورة الأعراف. (٤) راجع ١٣/ ١٣١.
(٥) راجع ١٧/ ١٤١.

﴿فكَذَّبوه﴾ أي كذبوا صالحاً عليه السلام في قوله لهم: «إنكُمْ تُعَذَّبونَ إنْ عَقَرْتُموها». ﴿فعقروها﴾ أي عقرها الأشقى. وأضيف إلى الكل، لأنهم رَضُوا بفعله. وقال قتادة: ذُكر لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم. وقال الفرّاء: عقرها اثنان: والعرب تقول: هذان أفضلُ الناس، وهذان خير الناس، وهذه المرأة أشقى القوم؛ فلهذا لم يقل: أَشْقَيَاها.

قوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذابُ بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعَقْر. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: دمدم عليهم قال: دَمَّرَ عَلَيْهِم ربُّهم بذَنبهم؛ أي بجُرمهم. وقال الفرّاء: دَمْدم أي أرجف. وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده. ويقال: دَمَّمْت على الشيء: أي أطبقت عليه، ودمم عليه القبرَ: أطبقه. وناقة مدمومة: أَلْبَسها الشحم. فإذا كرّرت الإطباق قلت: دَمْدَمْت. والدمدمة: إهلاك باستئصال؛ قاله المؤرِّج. وفي «الصحاح»: ودَمْدَمْت الشيء: إذا ألزقته بالأرض وطَحْطَحْتُه. ودمدم الله عليهم: أي أهلكهم. القُشَيرِي: وقيل دَمْدَمت على الميت الترابَ: أي سَوَّيتُ عليه. فقوله: ﴿فدمدم عليهِم﴾ أي أهلكهم، فجعلهم تحت التراب. ﴿فَسَوّاها﴾ أي سَوّى عليهم الأرض. وعلى الأول ﴿فسوّاها﴾ أي فسوّى الدَّمدمة والإهلاك عليهم. وذلك أن الصيحة أهلكتهم، فأتت على صغيرهم وكبيرهم. وقال ابن الأنباريّ: دمدمَ أي غضِب. والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. وقال بعض اللغويين: الدمدمة: الإدامة؛ تقول العرب: ناقة مَدْمدَمة أي سمينة. وقيل: ﴿فسوّاها﴾ أي فسوّى الأمة في إنزال العذاب بهم، صغيرهم وكبيرهم، وضِيعهم وشريفهم، ذكرهم وأنثاهم. وقرأ ابن الزُّبير ﴿فَدَهْدَمَ﴾ وهما، لغتان؛ كما يقال: امتُقِع لونُه وانْتُقِع.

[١٥] ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾.

أي فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تَبِعة الدَّمدمة من أحد؛ قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد. والهاء في ﴿عُقْباها﴾ ترجع إلى الفَعْلة؛ كقوله: «مَن اغتسل يوم

الجمعة فيها ونِعمتْ» أي بالفعلة والخصلة. قال السدّيّ والضحاك والكلبيّ: ترجع إلى العاقر؛ أي لم يخف الذي عقرها عُقْبى ما صنع. وقاله ابن عباس أيضاً. وفي الكلام تقديم وتأخير، مجازه: إذِ انبعث أشقاها ولا يخاف عُقْباها. وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه، ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم؛ لأنه قد أنذرهم، ونجاه الله تعالى حين أهلكهم. وقرأ نافع وابن عامر ﴿فلا﴾ بالفاء، وهو الأجود؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول؛ أي فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم. والباقون بالواو، وهي أشبه بالمعنى الثاني؛ أي ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع. ورَوَى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا: أخرج إلينا مالك مصحفاً لجدّه، وزعم أنه كتبه في أيام عُثمان بن عفان حين كتب المصاحف، وفيه: ﴿ولا يخاف﴾ بالواو. وكذا هي في مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم، اتباعاً لمصحفهم.

سورة والليل

مَكِّيَّة. وقيل: مَدَنِيَّة. وهي إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾.

[٢] ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾.

[٣] ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

[٤] ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والليلِ إذا يَغْشَى ﴾ أي يُغَطِّي. ولم يذكر معه مفعولاً للعلم به. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته. وروى سعيد عن قتادة قال: أولُ ما خلق الله النورُ والظلمة، ثم مَيَّز بينهما، فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلِماً، والنور نهاراً مضيئاً مبصِراً. ﴿ والنهارِ إذا تَجلَّى ﴾ أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل. ﴿ وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثى ﴾ قال الحسن: معناه والذي خلق

الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل. وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى؛ (فَما): مصدرية على ما تقدم. وأهل مكة يقولون للرعد: سُبْحان ما سَبَّحتَ لَه! (فما) على هذا بمعنى (مَنْ)، وهو قول أبي عبيدة وغيره. وقد تقدّم. وقيل: المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون ﴿مِنْ﴾ مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته، من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفا. وقال أبو عبيدة: ﴿وما خلق﴾ أي مَنْ خلق. وكذا قوله: ﴿والسماءِ وما بناها﴾، ﴿ونفس وما سوّاها﴾، ﴿ما﴾ في هذه المواضع بمعنى مَنْ. ورُوي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ ﴿والنهار إذا تجلى. والذكر والأنثى﴾ ويسقط ﴿وما خلق﴾. وفي «صحيح مسلم» عن علقمة قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا. قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية ﴿والليلِ إذا يغشى﴾؟ قال: سمعته يقرأ ﴿والليلِ إذا يَغْشَى. والذكر والأنثى﴾ قال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ ﴿وما خلق﴾ فلا أتابعهم[1]. قال أبو بكر الأنباريّ: وحدّثنا محمد بن يحيى المروزيّ قال حدّثنا محمد قال حدّثنا أبو أحمد الزبيريّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرازق ذو القوّة المتِين»؛ قال أبو بكر: كل من هذين الحديثين مردود؛ بخلاف الإجماع له، وأن حمزة وعاصما يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين، والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أخذ برواية الجماعة، وأبطل نقل الواحد؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال. ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي

---

(١) وفي كتاب الأحكام لابن العربي ما نصه: «هذا مما لا يلتفت إليه بشر، إنما المعول عليه ما في المصحف، فلا تجوز مخالفته لأحد، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه، مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيناه في موضعه؛ فإن القرآن لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلا، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخلق».

وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه؛ لكان الحكم العمل بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، وجميع أهل الملة.

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان: **أحدهما** - آدم وحوّاء؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبيّ. **الثاني** - يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم. وقيل: كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل؛ فساعٍ في فكاك نفسه، وساعٍ في عَطَبها؛ يدل عليه قوله عليه السلام: «الناس غاديان: فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبِقها»[1]. وشتى: واحده شتيت؛ مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص. وقيل: ﴿لشتى﴾ أي لمختلف الجزاء؛ فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار. وقيل: أي لمختلف الأخلاق؛ فمنكم راحم وقاس، وحليم وطائش، وجواد وبخيل؛ وشبه ذلك.

[٥] ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾. [٦] ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

[٧] ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾.

[٩] ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ قال ابن مسعود: يعني أبا بكر رضي الله عنه؛ وقاله عامة المفسرين. فروي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يُعْتِق على الإسلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه قحافة: أي بني! لو أنك

---

(١) هذه رواية الحديث كما في الثعلبي. والذي في نسخ الأصل: «الناس غاديان: فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

أعتقت رجالا جُلْداً يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد[١]. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فأمّا من أعطى﴾ أي بذل. ﴿واتّقى﴾ أي محارم الله التي نَهَى عنها. ﴿وصدَّق بالحسنى﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه. ﴿فسنيسره لليسرى﴾ وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وَمَلكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقا خَلَفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تَلَفاً». وروي من حديث أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم غَرَبَت شمسه إلا بُعِث بجنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثَّقَلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعطِ ممسِكا تلفاً» فأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن ﴿فأمّا من أعطى﴾... الآيات. وقال أهل التفسير: ﴿فأمّا من أعطى﴾ المُعْسِرين. وقال قتادة: أعطى حق الله تعالى الذي عليه. وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه. ﴿وصدق بِالحسنى﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضاً. وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[٢]... الآية. وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم. الحسن: بالخَلَف من عطائه؛ وهو اختيار الطبريّ. وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ فسنيسره لِلْيُسْرى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. وقال زيد بن أسلم: ﴿ لليسرى ﴾ للجنة، وفي الصحيحين والترمذي عن عليّ رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقِيع، فأتى النبيّ ﷺ، فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكُتُ به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: « ما مِن نفسٍ منفوسةٍ إلا [قد] كتِب مدخلها » فقال القوم: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: «بل

---

(١) كذا في كتاب «أسباب النزول» و«روح المعاني». وفي نسخ الأصل: «ما يريد». وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول: «لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؛ قال: منع ظهري أريد»

(٢) آية ٢٦ سورة يونس.

ٱعملوا فكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء ـ ثم قرأ ـ ﴿فأمّا من أعطى وٱتقى وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخِل وٱستغنى، وكذب بِالحسنى، فسنيسره للعسرى﴾» لفظ الترمذيّ. وقال فيه: حديث حسن صحيح. وسأل غلامان شابان رسول الله ﷺ فقالا: العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم في شيء يستأنف؟ فقال عليه السلام: «بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير» قالا: ففيم العمل؟ قال: «ٱعملوا، فكل ميسر لعمل الذي خلق له» قالا: فالآن نجِد ونعمل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وأما من بخِل وٱسْتَغْنَى﴾ أي ضنّ بما عنده، فلم يبذل خيرا. وقد تقدّم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة ﴿آل عمران﴾[1]. وفي الآخرة مآله النار، كما في هذه الآية. روى الضحاك عن ٱبن عباس ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ للعُسْرى﴾ قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله. وعنه عن ٱبن عباس قال: نزلت في أمية بن خلف وروى عكرمة عن ٱبن عباس: ﴿وأما من بخِل وٱستغنى﴾ يقول: بخِل بمالِه، واستغنى عن ربه. ﴿وكذَّب بِالحُسْنى﴾ أي بالخلف. وروى ٱبن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وكذب بِالحسنى﴾ قال: بالجنة. وبإسناد عنه آخر قال ﴿بالحسنى﴾ أي بلا إله إلا الله. ﴿فسنيسره﴾ أي نسهل طريقه. ﴿للعُسْرَى﴾ أي للشر. وعن ٱبن مسعود: للنار. وقيل: أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها. وقد تقدّم أن الملك ينادي صباحاً ومساء: «اللهم أعطِ منفِقا خلفاً، وأعطِ ممسِكا تلفا». رواه أبو الدرداء.

مسألة ـ قال العلماء: ثبت بهذه الآية وبقوله: ﴿ومِما رزقناهم ينفِقون﴾[2]، وقوله: ﴿ الذين ينفِقون أموالهم بِالليلِ والنهارِ سِرا وعلانِيةً ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات ـ أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أرذلها. وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخيل

(١) راجع ٢٩١/٤. (٢) آية ٣ سورة البقرة. (٣) آية ٢٧٤ سورة البقرة.

الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من ٱستفاد بما يعطي أجراً وحمداً فهو الجواد. وكل من ٱستحق بالمنع ذما أو عقابا فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجراً ولا حمداً، وإنما استوجب به ذماً فليس بجواد، وإنما هو مسرف مذموم، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجْر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقابا ولا ذما، وٱستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم.

الرابعة ـ قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: ﴿فسنيسره للعسرى﴾؟ وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: ﴿فبشرهم بِعذاب أليم﴾[1]، والبِشارة في الأصل على المفرح والسارّ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما. وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعاً. قال الفراء: وقوله تعالى: ﴿فسنيسره﴾: سنهيئه. والعرب تقول: قد يَسَّرَتِ الغنم: إذا ولدت أو تهيأت للولادة. قال:

همـا سيـدان يـزعمـان وإنمـا يَسُودانِنا أن يَسَّرتْ غَنماهما[2]

[١١] ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾.

[١٣] ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وما يُغْنِي عنه ماله إذا تردَّى﴾ أي مات. يقال: رَدِيَ الرجُل يَرْدَى رَدًى: إذا هلك. قال:

صرفت الهوى عنهنّ من خشية الردى

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: ﴿إذا تردى﴾: سقط في جهنم؛ ومنه المتردّية. ويقال: رَدِي في البئر وتردى: إذا سقط في بئر، أو تهوّر من جبل. يقال: ما أدري أين رَدِيَ؟ أي أين ذهب. و ﴿ما﴾: يحتمل أن تكون جحدا؛ أي ولا يغني عنه ماله شيئاً؛ ويحتمل أن تكون استفهاماً

(١) آية ٢١ سورة آل عمران. (٢) البيت لأبي أسيدة الدبيري. وقبله.

إن لنـا شيخيـن لا ينفعـانـنـا غنييـن لا يجـدي علينـا غنـاهمـا

معناه التوبيخ؛ أي أيّ شيء يغنى عنه إذا هلك ووقع في جهنم! ﴿إِنَّ علينا للهُدَى﴾ أي إن علينا أن نُبَيِّن طريقَ الهدى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج. أي على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة. وقال الفرّاء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله: ﴿وعلى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[1] يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال؛ كقوله: ﴿بِيدِكَ الخير﴾[2]، و ﴿بِيدِه ملكوت[3] كل شيء﴾. وكما قال: ﴿سرابيل تقِيكم الْحَرّ﴾[4] وهي تقي البرد؛ عن الفرّاء أيضاً. وقيل: أي إن علينا ثواب هداه الذي هديناه. ﴿وإنّ لنا للآخِرةَ والأولَى﴾ ﴿للآخِرَةَ﴾ الجنة. ﴿والأولى﴾ الدنيا. وكذا روى عطاء عن ابن عباس. أي الدنيا والآخرة لله تعالى. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعِند اللهِ ثواب الدنيا والآخرةِ﴾[5] فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

[١٤] ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

[١٥] ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ فأنذرتكم ﴾ أي حذرتكم وخوّفتكم. ﴿ نارا تَلَظَّى ﴾ أي تَلَهَّب وتتوقد. وأصله تتلظى. وهي قراءة عُبيد بن عُمير، ويحيى بن يعمر، وطلحة بن مصرف. ﴿ لا يصلاها ﴾ أي لا يجد صَلاَها وهو حرها. ﴿إلا الأشْقَى ﴾ أي الشقي. ﴿ الذي كذب ﴾ نبي الله محمداً ﷺ. ﴿ وتَولَّى ﴾ أي أعرض عن الإيمان. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: كل يدخل الجنة إلا من أباها. قال: يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ قال: الذي كَذَّب وتَوَلَّى. وقال مالك: صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ ﴿ والليل

(١) آية ٩ سورة النحل. (٢) آية ٢٦ سورة آل عمران.
(٣) آية ٨٣ سورة يس. (٤) آية ٨١ سورة النحل.
(٥) آية ١٣٤ سورة النساء.

إذا يغشى﴾ فلما بلغ ﴿فأنذرتُكم ناراً تَلَظَّى﴾ وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعدّاها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى. وقال الفرّاء: ﴿إلا الأشقى﴾ إلا من كان شقِيا في علم الله جل ثناؤه. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: ﴿لا يصلاها إلا الأشقَى﴾ أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمداً ﷺ. وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. وقال الفرّاء: لم يكن كذب بردّ ظاهر، ولكنه قصَّر عما أُمِرَ به من الطاعة؛ فجُعِل تكذيباً؛ كما تقول: لقِيَ فلان العدوّ فكذب: إذا نكل ورجع عن اتباعه. قال: وسمعت أبا ثروان يقول: إن بني نُمَيْر ليس لجِدّهم[1] مكذوبة. يقول: إذا لَقُوا صدقوا القتال، ولم يرجعوا. وكذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ليس لوقعتِها كاذبة﴾[2] يقول: هي حق. وسمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء[3] بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: ﴿لا يَصلاها إلا الأشقى. الذِي كذب وتولى﴾ وليس الأمر كما ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى. ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: ﴿إن الله لا يغفِر أن يشرك بِهِ ويغفِر ما دون ذلِك لِمَن يشاء﴾[4]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذَّب، لم يكن في قوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فائدة، وكان ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ كلاماً لا معنى له.

الزمخشريّ: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصَّلى، كأن النار لم تخلق

(١) كذا في الأصول وأساس البلاغة للزمخشري. والذي في «تفسير الفرّاء ولسان العرب» ـ مادة كذب ـ: «لحدهم» بالحاء المهملة. وحدّ الرجل: بأسه ونفاذه في نجدته.

(٢) آية ٢ سورة الواقعة.

(٣) هم المرجئة، وهم فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة. سموا مرجئة، لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي؛ أي أخره عنهم. وقيل: المرجئة فرقة من المسلمين يقولون: الإيمان قول بلا عمل؛ كأنهم قدّموا القول، وأرجئوا العمل، أي أخروه؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم.

(٤) آية ٤٨ سورة النساء.

إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالجنة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف. وأبو بكر رضي الله عنه.

[١٧] ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾. [١٨] ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وسيجنبها﴾ أي يكون بعيداً منها. ﴿الأتقى﴾ أي المتقي الخائف. قال ٱبن عباس: هو أبو بكر رضي الله عنه، يزحزح عن دخول النار. ثم وصف الأتقى فقال: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، بل يتصدق به مبتغيا به وجه الله تعالى. وقال بعض أهل المعاني: أراد بقوله ﴿الأتقى﴾ و ﴿الأشقى﴾ أي التقيّ والشقيّ؛ كقول طرفة:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

أي واحد ووحيد؛ وتوضع ﴿أَفْعَل﴾ موضع فعيل، نحو قولهم: الله أكبر بمعنى كبير، ﴿وهو أهون عليه﴾[١] بمعنى هين.

[١٩] ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾.

[٢٠] ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾.

[٢١] ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.

قوله تعالى: ﴿وما لأَحدٍ عِندَهُ مِنْ نِعمةٍ تُجْزَى﴾ أي ليس يتصدق ليجازِيَ على نعمة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي المتعالي ﴿ولسوف يرضى﴾ أي بالجزاء. فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال: عَذَّب المشركون بلالا، وبلال يقول أَحَد أَحَد؛ فمرّ به النبيّ ﷺ فقال: «أحد ـ يعني الله تعالى ـ ينجيك» ثم قال لأبي بكر: «يا أبا بكر إنّ بلالا يعذب في الله» فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله ﷺ، فٱنصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب، ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال له: أتبيعني بلالا؟ قال: نعم؛ فٱشتراه فأعتقه. فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده؛ فنزلت ﴿وما لأَحدٍ عِندَه﴾ أي عند أبي بكر ﴿من نعمة﴾، أي من يدٍ ومِنَّة، ﴿تُجْزَى﴾ بل

(١) آية ٢٧ سورة الروم.

﴿ابتغاءَ﴾ بما فعل ﴿وجْه ربِّهِ الأَعْلَى﴾. وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبيّ بن خلف بِلالا، ببردة وعشر أواق، فأعتقه لله، فنزلت: ﴿إنَّ سَعْيَكُم لشَتَّى﴾. وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبِيعُنِيه؟ فقال: نعم، أبيعه بِنِسطاس، وكان نِسْطاس عبداً لأبي بكر، صاحب عشرة آلاف دينار وغِلمان وجوارٍ ومواشٍ، وكان مشركاً، فحمله أبو بكر على الإسلام، على أن يكون له مالُه، فأبى، فباعه أبو بكر به. فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده؛ فنزلت: ﴿وما لأحدٍ عِنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى. إلا ابتغاء﴾ أي لكن ابتغاء؛ فهو استثناء منقطع؛ فلذلك نصبت. كقولك: ما في الدار أحد إلا حمارا. ويجوز الرفع. وقرأ يحيى بن وثاب ﴿إلا ٱبتغاءُ وجهِ ربه﴾ بالرفع، على لغة من يقول: يجوز الرفع في المستثنى. وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أضحتْ خَلاءً قِفارا لا أنيسَ بها ... إلا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ[١]

وقول القائل:

وبلـــدةٍ ليـــسَ بهـــا أنيـــسُ ... إلا اليعـــافيـــرُ وإلا العِيـــسُ[٢]

وفي التنزيل: ﴿ ما فعلوه إلا قليلٌ مِنهم ﴾[٣] وقد تقدم. ﴿ وجهِ ربِّهِ الأعلى ﴾ أي مَرْضاته وما يقرّب منه. و﴿ الأعلى ﴾ من نعت الرب الذي ٱستحق صفات العلو. ويجوز أن يكون ﴿ٱبتغاء وجهِ ربه﴾ مفعولاً له على المعنى؛ لأن معنى الكلام: لا يؤتِي ماله إلا ٱبتغاء وجهِ ربه، لا لمكافأة نعمته. ﴿ولَسوفَ يَرْضَى﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يُرضى؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق. وروى أبو حَيّان التيميّ عن أبيه عن عليّ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِم الله أبا بكر! زوجنِي ٱبنته، وحملنى إلى دار الهِجرة، وأعتق بلالا من ماله». ولما اشتراه أبو بكر قال له بلال: هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله؟ قال: بل لعمل الله

---

(١) الجآذر (جمه جؤذر) وهو ولد البقرة الوحشية. والظلمان (بالكسر والضم): جمع الظليم، وهو الذكر من النعام.

(٢) اليعافير: جميع يعفور: وهو ولد الظبية، وولد البقرة الوحشية أيضاً. والعيس: إبل بيض تخالط بياضها شقرة، جمع أعيس وعيساء.

(٣) آية ٦٦ سورة النساء. راجع ٥/ ٢٧٠.

قال: فذرني وعمل الله، فأعتقه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعني بلالا رضي الله عنه). وقال عطاء ـ وروي عن ٱبن عباس ـ: إن السورة نزلت في أبي الدَّحداح؛ في النخلة التي ٱشتراها بحائط له؛ فيما ذكر الثعلبيّ عن عطاء. وقال القشيريّ عن ٱبن عباس: بأربعين نخلة؛ ولم يسم الرجل. قال عطاء: كان لِرجلٍ من الأنصار نخلة، يسقط من بلحِها في دار جارٍ له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «تبيعها بنخلة في الجنة»؟ فأبى؛ فخرج فلقيه أبو الدَّحداح فقال: هل لك أن تبيعنِيها بـ «حُسْنَى»: حائطٍ له. فقال: هي لك. فأتى أبو الدَّحداح إلى النبيّ ﷺ، وقال: يا رسول الله، اشتراها مني بنخلة في الجنة. قال: «نعم، والذي نفسي بيده» فقال: هي لك يا رسول الله؛ فدعا النبيّ ﷺ جار الأنصاريّ، فقال: «خذها» فنزلت ﴿والليلِ إذا يغشى﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة. ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ يعني أبا الدحداح. ﴿وصدَّق بِالحسنى﴾ أي بالثَّواب. ﴿فسنيسره لِليسرى﴾: يعني الجنة. ﴿وأما من بخِل واستغنى﴾ يعني الأنصاريّ. ﴿وكذَّب بِالحسنى﴾ أي بالثواب. ﴿فسنيسره لِلعسرى﴾، يعني جهنم. ﴿وما يغنِي عنه ماله إذا تردَّى﴾ أي مات. إلى قوله: ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ يعني بذلك الخزرجِيّ؛ وكان منافقا، فمات على نفاقه. ﴿وسَيُجَنَّبُهَا الأتقى﴾ يعنى أبا الدحداح. ﴿الذِي يؤتِي ماله يتزكى﴾ في ثمن تلك النخلة. ﴿ما لِأحدٍ عِنده مِن نِعمةٍ تُجْزَى﴾ يكافئه عليها؛ يعني أبا الدحداح. ﴿ولسوف يرضى﴾ إذا أدخله الله الجنة. والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضي الله عنه. وروي ذلك عن ٱبن مسعود وٱبن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم. وقد ذكرنا خبراً آخر لأبي الدحداح في سورة ﴿البقرة﴾، عند قوله: ﴿من ذا الذِي يُقْرِض اللَّهَ قَرْضا حسنا﴾[1]. والله تعالى أعلم.

---

(١) راجع ٣/ ٢٣٧.

سورة الضحى

مكية باتفاق. وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

[٢] ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

[٣] ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿والضُّحَى. والليلِ إذا سَجَى﴾ قد تقدّم القول في ﴿الضحى﴾[١] والمراد به النهار؛ لقوله: ﴿والليلِ إذا سَجَى﴾ فقابله بالليل. وفي سورة ﴿الأعراف﴾ ﴿أفأَمِنَ أهْلُ القُرى أن يأتِيَهم بأسُنا بَيَاتاً وهم نائِمون. أَو أَمِن أَهْلُ القرى أن يأتِيهم بَأْسُنَا ضُحَى وهمْ يَلْعَبُون﴾[٢] أي نهاراً. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى، وبليلة المِعراج. وقيل: هي الساعة التي خرّ فيها السَّحَرة سجداً. بيانه قوله تعالى: ﴿وأن يُحْشَر الناس ضحى﴾[٣]. وقال أهلِ المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه ورب الضحى. و ﴿سَجَا﴾ معناه: سكن؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة. يقال: ليلة ساجية أي ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سَجْواً[٤]: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن. قال الأعشى:

فما ذنبنا[٥] أن جاش بحر ابن عمكم ... وبحرك ساجٍ ما يوارِي الدعا مِصا

وقال الراجز:

يا حَبَّذَا القَمْرَاءُ والليلُ الساجْ ... وطُـرُقٌ مِثـلُ مِـلاءِ النّسـاجْ

---

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء. (٢) آية ٩٧، ٩٨. (٣) آية ٥٩ سورة طه.

(٤) في «اللسان»: «يسجو سجواً وسجواً». (٥) في ديوان الأعشين:

أتـوعـدنـي أن جـاش ...

الدعامص: جمع الدعموص: وهو دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء.

وقال جرير:

ولقد رمينَك يوم رُحْن بأعينٍ ينظرن من خِلَل الستور سواجي

وقال الضحاك: ﴿سجا﴾ غطَّى كل شيء. قال الأصمعيّ: سَجْو الليل: تغطيته النهار؛ مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب. وقال الحسن: غشى بظلامه؛ وقاله ٱبن عباس. وعنه: إذا ذهب. وعنه أيضاً: إذا أظلم. وقال سعيد بن جبير: أقبل؛ وروي عن قتادة أيضاً. وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد: ﴿سجا﴾ استوى. والقول الأوّل أشهر في اللغة: ﴿سجا﴾ سكن؛ أي سكن الناس فيه. كما يقال: نهار صائم، وليل قائم. وقيل: سكونه استقرار ظلامه واستواؤه. ويقال: ﴿والضحى. والليلِ إذا سَجَا﴾: يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليلِ إذا أظلم. ويقال: ﴿الضحى﴾: يعني نور الجنة إذا تنوّر. ﴿والليل إذا سجا﴾: يعني ظلمة الليل إذا أظلم. ويقال: ﴿والضحى﴾: يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار. ﴿والليلِ إذا سجا﴾: يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء. ﴿ما ودّعَكَ ربُّك﴾: هذا جواب القسم. وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ ﷺ، فقال المشركون: قلاه الله وودّعه؛ فنزلت الآية. وقال ابن جريج: احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً. وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً. وقيل: خمسة وعشرين يوماً. وقال مقاتل: أربعين يوماً. فقال المشركون: إن محمداً ودّعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتابع عليه، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء. وفي البخاريّ عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً؛ فجاءت امرأة[1] فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربَك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فأنزل الله عز وجل ﴿والضُّحى. والليل إذا سجى. ما ودّعك ربك وما قلى﴾. وفي الترمذيّ عن جندب البجلي قال: كنت مع النبيّ ﷺ في غار فدمِيت إصبعه، فقال النبيّ ﷺ: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ،

(١) هي العوراء بنت حرب، أخت أبي سفيان، وهي حمالة الحطب، زوج أبي لهب.

وفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ»! قال: وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد وُدِّعَ محمد؛ فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى﴾. هذا حديث حسن صحيح. لم يذكر الترمذي: «فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً» أسقطه الترمذيّ. وذكره البخاري، وهو أصح ما قيل في ذلك. والله أعلم. وقد ذكره الثعلبي أيضاً عن جندب بن سفيان البجلي، قال: رُمِي النبيّ ﷺ في إصبعه بحجر، فدمِيت، فقال: «هلْ أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سبيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ» فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم الليل. فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم أره قرِبك منذ ليلتين أو ثلاث؛ فنزلت ﴿والضُّحَى﴾. وروي عن أبي عِمران الجَوْني، قال: أبطأ جبريل على النبيّ ﷺ حتى شق عليه؛ فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو؛ فنكت بين كتِفيه، وأنزل عليه: ﴿ما ودّعك ربُّك وما قَلَى﴾. وقالت خولة ـ وكانت تخدُم النبيّ ﷺ ـ: إن جَرْواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث نبيّ الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي. فقال: «يا خولة، ما حدث في بيتي؟ ما لجبريل لا يأتيني»! قالت خولة فقلت: لو هيأت البيت وكنسته؛ فأهويت بالمِكنسة تحت السرير، فإذا جَرْوٌ ميت، فأخذته فألقيته خلف الجدار؛ فجاء نبيّ الله ترعد لَحْياه ـ وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرِّعدة ـ فقال: «يا خولة دثِريني» فأنزل الله هذه السورة. ولما نزل جبريل سأله النبيّ ﷺ عن التأخر فقال: «أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صُورة». وقيل: لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال: «سأخبركم غداً» ولم يقل إن شاء الله. فاحتبس عنه الوحي، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله ﴿ولا تقولنّ لِشيءٍ إني فاعِل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾[1] فأخبره بما سئل عنه. وفي هذه القصة نزلت ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾. وقيل: إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، ما لك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجِبكم ـ وفي رواية براجِمكم[2] ـ ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم». فنزل

(١) آية ٢٣ سورة الكهف.

(٢) الرواجب (واحدها راجبة): وهي ما بين عقد الأصابع. والبراجم (واحدها برجمة بالضم): هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ.

جبريل بهذه السورة؛ فقال النبيّ ﷺ: «ما جئت حتى اشتقت إليه» فقال جبريل: «وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً، ولكني عبد مأمور» ثم أنزِل عليه ﴿وما نتنزل إلا بأمرِ ربك﴾(١). ﴿ودّعك﴾ بالتشديد: قراءة العامة، من التوديع، وذلك كتوديع المُفارق. وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرأاهُ ﴿وَدَعك﴾ بالتخفيف، ومعناه: تركك. قال:

وثـم وَدَعْنـا آلَ عمـرو وعـامـر فرائسَ أطراف المثقفة(٢) السمْرِ

واستعماله قليل. يقال: هو يدع كذا، أي يتركه. قال المبرد محمد بن يزيد: لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ، لضعف الواو إذا قدمت، واستغنوا عنها بترك.

قوله تعالى: ﴿وما قَلَى﴾ أي ما أبغضك ربك منذ أحبك. وترك الكاف، لأنه رأس آية. والقِلَى: البغض؛ فإن فتحت القاف مددت؛ تقول: قلاه يقلِيه قِلًى وَقَلاء. كما تقول: قريت الضيف أقرِيه قِرًى وقَرَاء. ويقلاه: لغة طيء. وأنشد ثعلب:

أيـــامِ(٣) أمِّ الغَمْـــر لا نَقْـــلاهـــا

أي لا نُبغضها. ونَقْلِي أي نُبغض. وقال(٤):

أسِيئي بنا أو أحْسِنِي لا ملومةٌ لـديـنـا ولا مَقْلِيَّـةٌ إنْ تَقَلَّـتِ

وقال امرؤ القيس:

ولســتُ بمقلِــيّ الخِــلال ولا قــالِ(٥)

وتأويل الآية: ما ودّعك ربك وما قلاك. فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل: ﴿والذاكِرين الله كثيراً والذاكِراتِ﴾(٦) أي والذاكراتِ الله.

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم. (٢) المثقفة والمثقف: الرمح.
(٣) كذا في «اللسان». وفي «الأصول»: «يا رب». وبعده كما في «اللسان»:
ولـــو تشـــاء قبلـــت عينـــاهـــا
(٤) هوكثير عزة. (٥) صدر البيت:
صـرفـت الهـوى عنهـن مـن خشيـة الـردى
(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب.

[٤] ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾.

روى سلمة عن ابن إسحاق قال: ﴿وَللآخِرة خير لكَ مِنَ الأُولى﴾ أي ما عندي في مرجعك إليّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا. وقال ابن عباس: أُرِي النبيّ ﷺ ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسُرّ بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿وللآخِرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطِيك ربك فترضى﴾. قال ابن إسحاق: الفَلْجُ في الدنيا، والثواب في الآخرة. وقيل: الحوض والشفاعة. وعن ابن عباس: ألفُ قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك. رفعه الأوزاعيّ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أرِي النبي ﷺ ما هو مفتوح على أمّته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى ـ إلى قوله تعالى ـ ولَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، فأعطاه الله جلّ ثناؤه ألف قصر في الجنة، ترابها المسك؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. وعنه قال: رضِي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار. وقال السدي. وقيل: هي الشفاعة في جميع المؤمنين. وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفعنِي الله في أُمّتِي حتى يقول الله سبحانه لي: رضيت يا محمد؟ فأقول يا رب رضِيت». وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيّ ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿فمن تَبِعَنِي فإنه مِني ومَنْ عصانِي فإنكَ غفورٌ رحِيمٌ﴾[١] وقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عِبادك﴾[٢]، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك» فأتى جبريل النبيّ ﷺ، فسأله فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: «اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك

(١) آية ٣٦ سورة إبراهيم.

(٢) آية ١١٨ سورة المائدة.

ولا نَسوءك»(١). وقال عليّ رضي الله عنه لأهل العراق: إنكم تقولون إن أرجَى آية في كتاب الله تعالى: ﴿قل يا عِبادِيَ الذِين أسرَفوا على أنفسِهِم لا تقنطوا مِن رحمةِ اللَّهِ﴾(٢) قالوا: إنا نقول ذلك. قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَلَسَوف يعطيكَ ربك فترضَى﴾. وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ: «إذاً واللَّهِ لا أرضَى وواحد من أمتي في النار».

[٦] ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾.

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمدٍ ﷺ فقال: ﴿ألم يجدْكَ يَتِيماً﴾ لا أب لك، قد مات أبوك. ﴿فآوى﴾ أي جعل لك مأوى تأوِي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك. وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أُوتِم النبي ﷺ من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق. وعن مجاهد: هو من قول العرب: درّة يتيمة؛ إذا لم يكن لها مِثل. فمجاز الآية: ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك ويَحُوطونك.

[٧] ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾.

أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوّة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة؛ كقوله جل ثناؤه: ﴿لا يضِلُّ ربي ولا ينسى﴾(٣) أي لا يغفل. وقال في حق نبِيه: ﴿وإن كنت مِن قبلِهِ لمن الغافِلِين﴾(٤). وقال قوم: ﴿ضالاّ﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما. وهو معنى

---

(١) رواية الحديث كما ورد في «صحيح مسلم»: كتاب الإيمان: «أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى؛ فقال الله عز وجل: «يا جبريل إذهب إلى محمد وربك أعلم، فسله ما يبكيك» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم؛ فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

(٢) آية ٥٣ سورة الزمر. (٣) آية ٥٢ سورة طه. (٤) آية ٣ سورة يوسف.

قوله تعالى: ﴿ما كنت تدرِي ما الكتاب ولا الإيمان﴾، على ما بينا في سورة ﴿الشورى﴾[١]. وقال قوم: ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي في قوم ضلال، فهداهم الله بك. هذا قول الكلبي والفرّاء. وعن السدي نحوه؛ أي ووجد قومك في ضلال، فهداك إلى إرشادهم. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ عن الهجرة، فهداك إليها. وقيل: ﴿ضالاً﴾ أي ناسياً شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فأذكرك؛ كما قال تعالى: ﴿أن تَضِلّ إحداهما﴾[٢]. وقيل: ووجدك طالباً للقِبلة فهداك إليها؛ بيانه: ﴿قد نَرى تَقَلُّبَ وجهِك في السماءِ...﴾[٣] الآية. ويكون الضلال بمعنى الطلب؛ لأن الضال طالب. وقيل: ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك، فهداك إليه؛ فيكون الضلال بمعنى التحير؛ لأن الضال متحير. وقيل: ووجدك ضائعاً في قومك؛ فهداك إليه؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع. وقيل: ووجدك محِباً للهداية، فهداك إليها؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة. ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تاللَّهِ إنك لفِي ضلالِك القدِيم﴾[٤] أي في محبتك. قال الشاعر:

هذا الضلالُ أشاب مني المفرِقا ... والعارِضَيْنِ ولم أكن متحققا[٥]
عجباً لعزةَ في اختيار قطيعتي ... بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل: ﴿ضالاً﴾ في شِعاب مكة، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب. قال ابن عباس: ضل النبيّ ﷺ وهو صغير في شِعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه، فردّه إلى جده عبد المطلب؛ فمنّ الله عليه بذلك، حين ردّه إلى جده على يدي عدوّه. وقال سعيد بن جبير: خرج النبيّ ﷺ مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظَلْماء، فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، وردّه إلى القافلة؛ فمنّ الله عليه بذلك. وقال كعب: إن حليمة لما قضت حق الرضاع، جاءت برسول الله ﷺ لتردّه على عبد المطلب،

(١) آية ٥٢ راجع ١٦/ ٥٥.
(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة.
(٣) آية ١٤٤ سورة البقرة.
(٤) آية ٩٥ سورة يوسف.
(٥) المفرق (كمقعد ومجلس): وسط الرأس. والعارض: صفحة الخد.

فسمعت عند باب مكة: هنيئاً لكِ يا بطحاء مكة، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال. قالت: فوضعته لأُصلِح ثيابي، فسمعت هدّة شديدة، فٱلتفت فلم أره، فقلت: مَعْشَر الناس، أين الصبيّ؟ فقالوا: لم نر شيئاً؛ فصحت: وامحمداه! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه، فقال: اذهبي إلى الصنم الأعظم؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل. ثم طاف الشيخ بالصنم، وقبل رأسه وقال: يا رب، لم تزل مِنتك على قريش، وهذه السعدِية تزعم أن ٱبنها قد ضل، فردّه إن شئت. فانكب «هُبَلُ» على وجهه، وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا أيها الشيخ، فهلاكنا على يدي محمد. فألقى الشيخ عصاه، وٱرتعد وقال: إن لابنِك رباً لا يضيعه، فٱطلبيه على مَهَل. فٱنحشرت قريش إلى عبد المطلب، وطلبوه في جميع مكة، فلم يجدوه. فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً، وتضرع إلى الله أن يردّه، وقال:

يـا ربِّ رُدَّ ولـدي محمـدًا ... ٱردده ربـي وٱتخـذ عنـدي يـدا
يـا رب إنْ محمـدٌ لـم يُـوجـدا ... فشمـل قـومـي كلهـم تبـدّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء: معاشرَ الناس لا تضِجوا، فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه، وإن محمداً بوادي تِهامة، عند شجرة السَّمُر. فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل، فإذا النبيّ ﷺ قائم تحت شجرة، يلعب بالأغصان وبالورق. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ ليلة المِعراج، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق، فهداك إلى ساق العرش. وقال أبو بكر الورّاق وغيره: ﴿ووجدك ضالاً﴾: تحب أبا طالب، فهداك إلى محبة ربك. وقال بسام بن عبد الله: ﴿ووجدك ضالاً﴾ بنفسك لا تدري من أنت، فعرفك بنفسِك وحالك. وقال الجنيدي: ووجدك متحيراً في بيان الكتاب، فعلمك البيان؛ بيانه: ﴿لِتبين لِلناسِ ما نُزِّل إليهِم﴾[1]... الآية. ﴿لِتبين لهم الذين ٱختلفوا فِيهِ﴾[2]. وقال بعض المتكلّمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض، لا شجر معها، سموها ضالة، فيهتدى بها إلى الطريق؛ فقال الله تعالى

(١) آية ٤٤ سورة النحل.
(٢) آية ٦٤ سورة النحل.

لنبيه محمد ﷺ: ﴿ووجدك ضالاً﴾ أي لا أحد على دينك، وأنت وحيد ليس معك أحد؛ فَهدَيتُ بك الخلقَ إليّ.

قلت: هذه الأقوال كلها حِسان، ثم منها ما هو معنويّ، ومنها ما هو حِسيّ. والقول الأخير أعجب إليّ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية. وقال قوم: إنه كان على جملة ما كان القوم عليه، لا يُظهر لهم خلافاً على ظاهر الحال؛ فأما الشرك فلا يُظَنُّ به؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة. وقال الكلبيّ والسدّي: هذا على ظاهره؛ أي وجدك كافراً والقوم كفار فهداك[1]. وقد مضى هذا القول والردّ عليه في سورة ﴿الشورى﴾[2]. وقيل: وجدك مغموراً بأهل الشرك، فميزك عنهم. يقال: ضل الماء في اللبن؛ ومنه ﴿أئِذا ضَلَلْنا فِي الأرضِ﴾[3] أي لحقنا بالتراب عند الدفن، حتى كأنا لا نتميز من جملته. وفي قراءة الحسن ﴿ووجدك ضالٌ فهدى﴾ أي وجدك الضال فأهتدى بك؛ وهذه قراءة على التفسير. وقيل: ﴿ووجدك ضالاً﴾ لا يهتدي إليك قومك، ولا يعرفون قدرك؛ فهدى المسلمين إليك، حتى آمنوا بك.

[٨] ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

أي فقيراً لا مال لك. ﴿فأغنى﴾ أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها؛ يقال: عال الرجل يعِيل عَيلة: إذا افتقر. وقال أُحَيحة بن الجُلاح:

فما يَدْرِي الفقيرُ متى غِناهُ ... وما يدْرِي الغنِيّ متى يَعِيل

أي يفتقر. وقال مقاتل: فرضَّاك بما أعطاك من الرزق. وقال الكلبِيّ: قنعك بالرزق. وقال أبن عطاء: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك. وقال الأخفش: وجدك ذا عيال؛ دليله ﴿فأغنى﴾. ومنه قول جرير:

اللَّهُ أنزلَ في الكتاب فريضةً ... لابن السبيل ولِلْفقير العائل

---

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، ولا لأحد من الأنبياء؛ لأن العصمة ثابتة لهم قبل النبوّة وبعدها، من الكبائر والصغائر على الصحيح.

(٢) راجع ١٦/ ٥٥ فما بعدها. (٣) آية ١٠ سورة السجدة.

وقيل: وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين، فأغناك بها. وقيل: أغناك بما فتح لك من الفتوح، وأفاءه عليك من أموال الكفار. القشيرِي: وفي هذا نظر؛ لأن السورة مكية، وإنما فرض الجهاد بالمدينة.

وقراءة العامة ﴿عائلاً﴾. وقرأ ابن السميقع ﴿عَيِّلا﴾ بالتشديد؛ مثل طيب وهين.

[٩] ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾.

[١١] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ﴾ أي لا تَسَلَّطْ[١] عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، وآذكر يتمك؛ قاله الأخفش. وقيل: هما لغتان بمعنى. وعن مجاهد ﴿فلا تقهر﴾ فلا تَحْتَقِرْ. وقرأ النخَعِيّ والأشهب العُقَيْلِيّ ﴿تكْهر﴾ بالكاف، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود. فعلى هذا يحتمل أن يكون نهياً عن قهره، بظلمه وأخذ ماله. وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى؛ فغلَّظ في أمره، بتغليظ العقوبة على ظالمه. والعرب تعاقب بين الكاف والقاف. النحاس: وهذا غلط، إنما يقال كَهَره: إذا اشتدّ عليه وغَلَّظ. وفي «صحيح مسلم» من حديث معاوية بن الحكم السلمِي، حين تكلم في الصلاة بردّ السلام، قال: فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فوالله ما كَهَرَني، ولا ضربني، ولا شتمني... الحديث. وقيل: القهر الغلبة. والكَهْر: الزجر.

الثانية ـ ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبِره والإحسان إليه؛ حتى قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم. ورِوي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبيّ ﷺ قسوة قلبه؛ فقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين». وفي «الصحيح» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين».

(١) في بعض نسخ الأصل: «لا تسطو».

وأشار بالسبابة والوُسطى. ومن حديث ٱبن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن اليتيم إذا بكى ٱهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسْكَتَه وأرضاه؟ أن أرضِيه[١] يوم القيامة». فكان ٱبن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه، وأعطاه شيئاً. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضم يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له حجاباً من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة». وقال أكثم بن صَيفِيّ: الأذلاّء أربعة: النمام، والكذاب، والمديون، واليتيم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وأما السائلَ فلا تنهرْ﴾ أي لا تزجره؛ فهو نهي عن إغلاظ القول. ولكن رُدَّه ببذل يسير، أو ردّ جميل، وٱذكر فقرك؛ قاله قتادة وغيره . وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعن أحدُكم السائلَ، وأن يعطِيه إذا سأل ، ولو رأى في يده قُلْبين[٢] من ذهب ». وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السُّؤَّال: يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعِيّ: السائل بريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء. وروي أن النبي ﷺ قال: «رُدُّوا السائل ببذل يسير، أو ردّ جميل، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله ». وقيل: المراد بالسائل هنا، الذي يسأل عن الدِّين؛ أي فلا تنهره بالغِلظة والجَفْوة ، وأجبه برفق ولين؛ قاله سفيـان . قال ٱبن العربيّ : وأما السائل عن الدين فجوابـه فرض على العالِم، على الكفايـة ؛ كإعطاء سائل البِرّ سواء. وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث، ويبسط رداءه لهم، ويقول: مرحباً بأحبة رسول الله ﷺ. وفي حديث أبي هارون العَبْديّ ، عن أبي سعيد الخُدْري[٣] ، قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول : مَرْحَباً بوصية رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لكم تَبَع

(١) كذا في «الأصول» ط، ب، ح، ص. (٢) القلب (بضم وسكون): السوار.

(٣) القائل هو أبو هارون العبدي.

وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً». وفي رواية «يأتيكم رجال مِن قِبل المشرق»... فذكره. و ﴿اليتيم﴾ و ﴿السائل﴾ منصوبان بالفعل الذي بعده؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم، ولا تنهر السائل. وروي أن النبيّ ﷺ قال: «سألت ربي مسألة ودِدت أني لم أسألها: قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، وسخرت مع داود الجبال يسبحن، وأعطيت فلاناً كذا؛ فقال عز وجل: ألم أجدك يتيماً فآويتك؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتِك ما لم أُوتِ أحداً قبلك: خواتيمَ سورة البقرة، ألم أتخذك خليلاً، كما اتخذت إبراهيم خليلاً؟ قلت بلى يا رب».

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وأما بِنِعمةِ ربك فحدث﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر. وروى ابن أبي نجِيح عن مجاهد ﴿وأما بنعمة ربك﴾ قال بالقرآن. وعنه قال: بالنبوّة؛ أي بلغ ما أرسلت به. والخطاب للنبيّ ﷺ، والحكم عام له ولغيره. وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال: إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً، فحدّث به الثقة من إخوانك. وعن عمرو بن ميمون قال: إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به، يقول له: رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا. وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فِراس، إن مثلك لا يقول هذا! قال يقول الله تعالى: ﴿وأمّا بِنِعمةِ ربك فحدث﴾ وتقولون أنتم: لا تَحَدَّث بنعمة الله! ونحوه عن أيوب السختِيانيّ وأبي رجاء العُطارِدِيّ رضي الله عنهم. وقال بكر بن عبد الله المَزَنِيّ قال النبيّ ﷺ: «من أُعطِي خيراً فلم يُرَ عليه، سمي بغيض الله، معادياً لنعم الله». وروى الشعبيّ عن النعمان بن بشير قال: قال النبيّ ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس، لم يشكر الله، والتحدّث بالنعم شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب». وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجُشَمِيّ قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً، فرآني رَثَّ الثياب فقال: «ألك مال؟» قلت:

نعم، يا رسول الله، من كل المال. قال: «إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثره عليك». وروى أبو سعيد الخدريّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

فصل ـ يكبّر القارىء في رواية البزيّ عن ابن كثير ـ وقد رواه مجاهد عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ ـ إذا بلغ آخر ﴿والضحى﴾ كَبَّر بين[1] كل سورة تكبيرة، إلى أن يختم القرآن، ولا يصل آخر السورة بتكبيره؛ بل يفصل بينهما بسكتة. وكأنّ المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبيّ ﷺ أياماً، فقال ناس من المشركين: قد ودعه صاحبه وقلاه؛ فنزلت هذه السورة فقال: «الله أكبر». قال مجاهد: قرأت على ابن عباس، فأمرني به، وأخبرني به عن أبيّ عن النبيّ ﷺ. ولا يكبّر في قراءة الباقين؛ لأنها ذرِيعة إلى الزيادة في القرآن.

قلت: القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه؛ لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن. فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن، فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب. أما أنه ثبت سنة بنقل الآحاد، فاستحبه ابن كثير، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه. ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب «المستدرك» له على البخارِيّ ومسلم: حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد، المقرىء الإمام بمكة، في المسجد الحرام، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين، فلما بلغت ﴿والضحى﴾ قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت ﴿والضحى﴾ قال: كبر حتى تختم. وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنّ أُبَيَّ بن كعب أمره بذلك، وأخبره أُبيّ بن كعب أن رسول الله ﷺ أمره بذلك. هذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

---

(١) كذا في «الأصول»، ولعل اللفظ (بعد) في مكان (بين).

سورة ألم نشرح

مكية في قول الجميع. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾.

شرح الصدر: فتحه؛ أي ألم نفتح صدرك للإسلام. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ألم نُلين لك قلبك. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله، أينشرح الصدر؟ قال: «نعم وينفسح». قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت، قبل نزول الموت». وقد مضى هذا المعنى في ﴿الزمَر﴾[١] عند قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره لِلإسلامِ فهو على نورٍ مِن ربه﴾. وروى عن الحسن قال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ قال: مُلِيء حكماً وعلماً. وفي «الصحيح»[٢] عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة ـ رجلٍ من قومه ـ أن النبي ﷺ قال: «فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة[٣] فأُتيت بطَسْت من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا» قال قتادة قلت: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، قال: «فاستخرِج قلبي، فغُسِل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشِي إيماناً وحِكمة». وفي الحديث قِصة. وروي عن النبيّ ﷺ قال: «جاءني ملكان في صورة طائر، معهما ماء وثلج، فشرح أحدهما صدري، وفتح

---

(١) راجع ١٥/٢٤٧.

(٢) وهذه رواية الترمذي في كتاب «التفسير».

(٣) في «صحيح مسلم»: «أحد الثلاثة بين الرجلين» روي أنه ﷺ كان نائماً معه حينئذٍ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر بن أبي طالب. راجع شرح هذا الحديث في «صحيح مسلم» (باب الإسراء). وفي شرح القسطلاني في كتاب «بدء الخلق» (باب ذكر الملائكة).

الآخر بمنقاره فيه فغسله». وفي حديث آخر قال: «جاءني مَلَك فشق عن قلبي، فاستخرج منذ عذرة[١]، وقال: قلبك وكيع، وعيناك بصيرتان، وأذناك سميعتان، أنت محمد رسول الله، لسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك قُثَم، وأنت قيم». قال أهل اللغة: قوله «وكيع» أي يحفظ ما يوضع فيه. يقال: سِقاء وكيع؛ أي قوي يحفظ ما يوضع فيه. واستوكعت مِعدته، أي قويت. وقوله «قُثَم» أي جامع. يقال: رجلٌ قَثوم للخير؛ أي جامع له. ومعنى ﴿ألم نشرح﴾ قد شرحنا؛ الدليل على ذلك قوله في النسَق عليه: ﴿ووضعنا عنك وِزرك﴾، فهذا عطف على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال: ونضع عنك وِزرك. فدل هذا على أن معنى ﴿ألم نشرح﴾: قد شرحنا. و ﴿لم﴾ جَحْد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق؛ كقوله تعالى: ﴿أليس الله بأحكمِ الحاكمين﴾[٢] ومعناه: الله أحكم الحاكمين. وكذا ﴿أليس الله بِكاف عبده﴾[٣]. ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستمْ خيرَ من ركب المطايا وأنـدى العـالميـن بطـونَ راحِ

المعنى: أنتم كذا.

[٢] ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك﴾، أي حططنا عنك ذنبك. وقرأ أنس ﴿وحللنا، وحَطَطْنَا﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿وحللنا عنك وِقْرك﴾. هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لِيغفِر لك الله ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخر﴾[٤]. قيل: الجميع كان قبل النبوّة. والوِزْر: الذنب؛ أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية؛ لأنه كان ﷺ في كثير من مذاهب قومه، وإن لم يكن عبدَ صنماً ولا وَثنا. قال قتادة والحسن والضحاك: كان للنبـيّ ﷺ ذنوب أثقلته؛ فغفرها الله له. ﴿الذي أَنْقَض ظَهْرَك﴾ أي أثقله حتى سمع

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل. وفي بعضها الآخر: «غذرة» بالغين المعجمة والدال المهملة. ولم نقف على هذا اللفظ لغير القرطبي. ولعله محرف عن (علقة).

(٢) آية ٨ سورة التين. (٣) آية ٣٦ سورة الزمر. (٤) آية ٢ سورة الفتح.

نقيضه؛ أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنْقض الحِمل ظهر الناقة: إذا سمِعت له صريراً من شدة الحمل. وكذلك سمعت نقيضَ الرّحل؛ أي صريره. قال جميل:

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبالُه ... وهَمتْ بَوانِي زَوْرِه أن تَحَطَّمَا

«بَوانِي زورِه»: أي أصول صدره. فالوِزر: الحِمل الثقيل. قال المحاسِبيّ: يعني ثِقل الوِزر لو لم يعف الله عنه. ﴿الذي أنقضَ ظهرَك﴾ أي أثقله وأوهنه. قال: وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها مغفورة، لشدّة اهتمامهم بها، وندمهم منها، وتحسرهم عليها. وقال السُّدّي: ﴿ووضعنا عنك وِزرك﴾ أي وحططنا عنك ثِقلك. وهي في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وحططنا عنك وقرك﴾[1]. وقيل: أي حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية. قال الحسين بن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: ذنوب أمتك، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها. وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة: خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها، حتى لا تثقل عليك. وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل. وقيل: عصمناك عن ٱحتمال الوِزر، وحفِظناك قبل النبوّة في الأربعين من الأدناس؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس.

[٤] ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

قال مجاهد: يعني بالتأذين. وفيه يقول حسان بن ثابت:

أَغَرُّ عليه للنبوّة خاتَمٌ ... من الله مشهود يلوح ويُشْهدُ
وضمّ الإله ٱسم النبيّ إلى ٱسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أَشْهدُ

ورُوِي عن الضحاك عن ٱبن عباس، قال: يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى: وأيام التشريق،

---

(١) في شواذ ابن خالويه: «وحططنا عنك وزرك» عن أنس بن مالك. «وحللنا وحططنا» جميعاً عنه، وعن ابن مسعود.

ويوم عرفة، وعند الجِمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها. ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافراً. وقيل: أي أعلينا ذكرك، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك، وأمرناهم بالبشارة بك، ولا دِين إلا ودِينك يظهر عليه. وقيل: رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء، وفي الأرض عند المؤمنين، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود، وكرائم الدرجات.

[٥] ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾. [٦] ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

أي إن مع الضَّيقة والشدّة يسراً، أي سعة وغِنى. ثم كرر فقال: ﴿إنَّ مَع العسرِ يُسراً﴾، فقال قوم: هذا التكرير تأكيد للكلام؛ كما يقال: اِرمِ اِرمِ، اِعجَلْ اعجَلْ؛ قال الله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾[١]. ونظيره في تكرار الجواب: بلَى بلَى، لا، لا. وذلك للإطناب والمبالغة؛ قاله الفرّاء. ومنه قول الشاعر:

هَممـتُ بنفسِـيَ بعضَ الهمـوم فـأولَـى لنفسـيَ أولَـى لهـا[٢]

وقال قوم: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرّفاً ثم كرّروه، فهو هو. وإذا نكّروه ثم كرّروه فهو غيره. وهما اثنان، ليكون أقوى للأمل، وأبعث على الصبر؛ قاله ثعلب. وقال ابن عباس: يقول الله تعالى خلقت عُسْراً واحداً، وخلقت يُسْرين، ولن يغلِب عسر يسرين. وجاء في الحديث عن النبيّ ﷺ في هذه السورة: أنه قال: «لن يغلِب عسر يسرين». وقال ابن مسعود[٣]: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في حَجَر، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه؛ ولن يغلب عسر يسرين. وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم، وما يُتخوّف منهم؛ فكتب إليه عمر رضي الله عنهما: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِل شِدّة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابِروا ورابِطوا

---

(١) آية ٣ سورة الهاكم. (٢) البيت للخنساء. ويروى:

همـمــت بنفســي كــل الهمــوم

(٣) أي في روايته عن رسول الله ﷺ.

واتقوا الله لعلكم تفلِحون﴾[١]. وقال قوم منهم الجُرْجانِيُّ: هذا قول مدخول؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل: إن مع الفارس سيفاً، إن مع الفارس سيفاً، أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان. والصحيح أن يقال: إن الله بعث نبيه محمداً ﷺ مُقِلاًّ مُخِفًّا، فعيره المشركون بفقره، حتى قالوا له: نجمع لك مالاً؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره؛ فعزَّاه الله، وعدد نِعمه عليه، ووعده الغِنَى بقوله: ﴿فإنّ مع العسرِ يسرا﴾ أي لا يحزنك ما عيروك به من الفقر؛ فإن مع ذلك العسرِ يسرا عاجلاً؛ أي في الدنيا. فأنجز له ما وعده؛ فلم يمت حتى فَتَح عليه الحجاز واليمن، ووسَّع ذات يده، حتى كان يعطي الرجل المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنية، ويُعِدّ لأهله قوت سنة. فهذا الفضل كله من أمر الدنيا؛ وإن كان خاصاً بالنبيّ ﷺ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى. ثم ابتدأ فضلاً آخراً من الآخرة وفيه تأسِية وتعزِية له ﷺ، فقال مبتدئاً: ﴿إنّ مع العسرِ يسرا﴾ فهو شيء آخر. والدليل على ابتدائه، تعرّيه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النَّسَق التي تدل على العطف. فهذا وعد عام لجميع المؤمنين، لا يخرج أحد منه؛ أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة. وربما اْجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة. والذي في الخبر: «لن يغلب عسر يسرين» يعني العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا؛ فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: ﴿إن مع العسر﴾ وهو إخراج أهل مكة النبي ﷺ من مكة ﴿يسراً﴾، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عِز وشرف.

[٧] ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ ﴾.

[٨] ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فإذا فَرغتَ﴾ قال اْبن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك ﴿فانْصَبْ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك. وقال اْبن مسعود: إذا فرغت من الفرائض

---

(١) آية ٢٠٠ سورة آل عمران.

فانصَبْ في قيام الليل. وقال الكلبيّ: إذا فرغت من تبليغ الرسالة ﴿فانصَب﴾ أي آستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات. وقال الحسن وقتادة أيضاً: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة ربك. وعن مجاهد: ﴿فإذا فرغت﴾ من دنياك، ﴿فأنصب﴾ في صلاتك. ونحوه عن الحسن. وقال الجنيد: إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق. قال آبن العربي: «ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية ﴿فانْصِب﴾ بكسر الصاد، والهمْزُ[١] من أوله، وقالوا: معناه: انصِب الإمام الذي تستخلفه. وهذا باطل في القراءة، باطل في المعنى؛ لأن النبيّ ﷺ لم يستخلف أحداً. وقرأها بعض الجهال ﴿فانْصَبَّ﴾ بتشديد الباء، معناه: إذا فرغت من الجهاد، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك. وهذا باطل أيضاً قراءة، لمخالفة الإجماع، لكن معناه صحيح؛ لقوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدَكم نومَه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته، فليعجل الرجوع إلى أهله». وأشدّ الناس عذاباً وأسوأهم مباء ومآباً، من أخذ معنى صحيحاً، فركب عليه مِن قِبَل نفسه قراءة أو حديثاً، فيكون كاذباً على الله، كاذباً على رسوله؛ ومن أظلم ممن آفترى على الله كذباً».

قال المهدويّ: وروي عن أبي جعفر المنصور: أنه قرأ ﴿ألم نشرحَ لك صدرك﴾ بفتح الهاء؛ وهو بعيد، وقد يؤوّل على تقدير النون الخفيفة، ثم أبدلت النون ألفاً في الوقف، ثم حمِل الوصل على الوقف، ثم حذف الألف. وأنشد عليه:

إضْـربَ عنـك الهمـومَ طـارِقَهـا ضربك بالسوط قَوْنَس الفَرسِ[٢]

أراد: اضربْن. ورُوي عن أبي السَّمال ﴿فإذا فرِغت﴾ بكسر الراء، وهي لغة فيه. وقرىء ﴿فرغِّب﴾ أي فرغب الناس إلى ما عنده.

الثانية ـ قال آبن العربيّ: «روي عن شُريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عِيد، فقال ما بهذا أمر الشارع. وفيه نظر، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرق والحراب في المسجد يوم

---

(١) أي همز الوصل لا القطع، لأن ماضيه ثلاثي: (نصب ينصب).

(٢) قونس الفرس: ما بين أذنيه. وقيل مقدم رأسه. والبيت لطرفة، ويقال إنه مصنوع عليه.

العيد، والنبيّ ﷺ ينظر. ودخل أبو بكر في بيت رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيانِ؛ فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنه يوم عيد». وليس يلزم الدُّؤوب على العمل، بل هو مكروه للخلق».

تفسير سورة والتين

مكية في قول الأكثر. وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية، وهي ثماني آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ①﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿والتينِ والزيتونِ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخَعِيّ وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي: هو تينكم الذي تأكلون، وزيتونكم الذي تعصِرون منه الزيت؛ قال الله تعالى: ﴿وشجرةً تخرج مِن طورِ سَيْناء تَنْبُتُ بالدُّهن وصِبْغٍ لِلآكِلِين﴾(١). وقال أبو ذرّ: أُهدِي للنبيّ ﷺ سَلُّ تِين؛ فقال: «كلوا» وأكل منه. ثم قال: «لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم(٢)، فكلوها فإنها تقطع البواسِير، وتنفع من النِّقرِس». وعن معاذ: أنه استاك بقضيب زيتون، وقال سمعت النبيّ ﷺ يقول: «نَعم السواك الزيتون! من الشجرة المباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحَفَر(٣)، وهي سِواكي وسواك الأنبياءِ مِن قبلي».

وروي عن ابن عباس أيضاً: التين: مسجِد نوح عليه السلام الذي بُنِي على الجوديّ، والزيتون: مسجد بيت المقدس. وقال الضحاك: التين: المسجد الحرام، والزيتون المسجد

---

(١) آية ٢٠ سورة المؤمنون. (٢) العجم (بالتحريك): النوى.
(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها): صفرة تعلو الأسنان.

الأقصى. أبن زيد: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس. قتادة: التين: الجبل الذي عليه دمشق: والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس. وقال محمد بن كعب: التين: مسجد أصحاب الكهف، والزيتون: مسجد إيلياء. وقال كعبُ الأحبارِ وقتادة أيضاً وعكرمة وأبن زيد: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس. وهذا اختيار الطبري. وقال الفراء: سمعت رجلاً من أهل الشام يقول: التين: جبال ما بين حُلْوان إلى هَمَذان، والزيتون: جبال الشام. وقيل: هما جبلان بالشام، يقال لهما طور زيتا وطورتِينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبِتانِهما. وكذا روى أبو مكِين عن عكرمة، قال: التين والزيتون: جبلان بالشام. وقال [النابغة]:

... أَتَيْـــنَ التيْـــنَ عَـــنْ عُـــرُضٍ[١]

وهذا أسم موضع. ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف؛ أي ومنابت التين والزيتون. ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه؛ قاله النحاس.

الثانية ـ أصح هذه الأقوال الأوّل؛ لأنه الحقيقة، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل. وإنما أقسم الله بالتين، لأنه كان سِتر آدم في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿يخصِفان عليهِما مِن ورقِ الجنةِ﴾[٢] وكان ورق التين. وقيل: أقسم به ليبين وجه المِنة العظمى فيه؛ فإنه جميل المنظر، طيب المخبَر، نَشِر[٣] الرائحة، سهل الجَنْي، على قدر المضغة. وقد أحسن القائل فيه:

انظر إلى التين في الغصون ضُحًى ممــزق الجِلــد مــائــل العُنُــقِ
كــأنـــه ربّ نِعمـــةٍ سُلِبـــت فعـاد بعـد الجديـد فـي الخَلَـق
أصغــر مــا فــي النهــود أكبـره لَكِـنْ يُنَـادَى عليـه فـي الطـرقِ

(١) البيت بتمامه كما في كتاب «الملاحن» لابن دريد وشعراء النصرانية.
صهب الظلال أتين التين عن عرض يــزجيــن غيمــاً قليــلا مــاؤه شبمــا
والصهب والصهبة: الحمرة. والعرض: الاعتراض، أو الجانب. ويزجين: يسقن. والشبم، البارد. والبيت في وصف سحائب لا ماء فيها. وقد نسبه المؤلف لزهير.
(٢) آية ٢٢ سورة الأعراف. (٣) كذا في الأصول، ولم نجده في معاجم اللغة.

وقال آخر:

التين يعدِل عندي كل فاكهة إذا أنثنى مائلاً في غصنه الزاهي
مُخَمَّش الوجه قد سالت حلاوته كـأنـه راكـع مِـن خشيـة اللّـهِ

وأقسم بالزيتون لأنه مَثَّل به إبراهيم في قوله تعالى: ﴿يوقد مِن شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ﴾[١]. وهو أكثر أُدُم أهل الشام والمغرب؛ يصطبِغون[٢] به، ويستعملونه في طبيخهم، ويستصبحون به، ويداوَى به أدواء الجوف والقروح والجراحات، وفيه منافع كثيرة. وقال عليه السلام: «كلوا الزيت وأدّهِنوا به فإنه من شجرة مباركة». وقد مضى في سورة ﴿المؤمنون﴾ القول فيه[٣].

الثالثة ـ قال ابن العربيّ ولامتنان الباريء سبحانه، وتعظيم المِنة في التين، وأنه مُقْتَات مدّخر [فلذلك][٤] قلنا بوجوب الزكاة فيه. وإنما فرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه، تقِية جور الولاة؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية، فيأخذونها مغرماً، حَسْب ما أنذر به الصادق ﷺ. فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مال آخَرَ يتشططون فيه، ولكن ينبغي للمرء أن يَخْرِج عن نِعمة ربه، بأداء حقه. وقد قال الشافعي لهذه العِلة وغيرها: لا زكاة في الزيتون. والصحيح وجوب الزكاة فيهما[٥].

[٢] ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ وطور ﴾ قال: جبل ﴿سِينِين﴾ قال: مبارك (بالسريانية). وعن عكرمة عن ابن عباس قال: ﴿طور﴾ جبل، و ﴿سينين﴾ حسن. وقال قتادة: سينين هو المبارك الحسن. وعن عكرمة قال: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام. وقال مقاتل والكلبيّ: ﴿سِينِين﴾ كل جبل فيه شجر مثمِر، فهو سِينين وسِيناء؛ بلغة النَّبَط . وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن لخطاب العشاء بمكة ، فقرأ ﴿ والتين والزيتون

(١) آية ٣٥ سورة النور راجع ١٢/٢٦٣. (٢) أي يأتدمون به.
(٣) راجع ١٢/١١٦. (٤) زيادة عن ابن العربي.
(٥) في نسخ الأصل: «فيها».

وطور سِيناء. وهذا البلد الأمين﴾ قال: وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيماً للبيت. وقرأ في الركعة الثانية: ﴿ألم تَرَ كيفَ فَعَلَ ربُّك﴾ و ﴿لإيلافِ قُرَيْش﴾ جمع بينهما. ذكره ابن الأنباريّ. النحاس: وفي قراءة عبد الله ﴿سِيناء﴾ (بكسر السين)، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عُمر (بفتح السين). وقال الأخفش: ﴿طُور﴾ جبل. و ﴿سِينِينَ﴾ شجر، واحدته سِينِينِيَّة. وقال أبو عليّ: ﴿سِينِين﴾ فِعلِيل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زِحلِيل: للمكان الزلِق، وكِرِدِيدة: للقطعة من التمر، وخِنذِيد: للطويل. ولم ينصرف ﴿سينين﴾ كما لم ينصرف سيناء؛ لأنه جعِل اسماً لبقعة أو أرض، ولو جعِل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكراً بمذكر. وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشأم والأرض المقدّسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال: ﴿إلى المسجِدِ الأقصى الذِي باركنا حوله﴾.

[٣] ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾.

يعني مكة. سماه أميناً لأنه آمن؛ كما قال: ﴿أنَّا جَعَلْنا حَرَ ماً آمِناً﴾[١] فالأمين: بمعنى الآمن؛ قاله الفرّاء وغيره. قال الشاعر:

أَلَمْ تَعلَمِي يا أَسْمُ ويْحَكِ أَنَّني ... حَلَفْتُ يَميناً لا أَخُون أَمِينِي

يعني: آمني. وبهذا احتج من قال: إنه أراد بالتين دمشق، وبالزيتون بيت المقدِس. فأقسم الله بجبل دِمَشْق، لأنه مأوى عيسى عليه السلام، وبجبل بيت المقدس، لأنه مَقَام الأنبياء عليهم السلام، وبمكة لأنها أثَر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم.

[٤] ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾.

[٥] ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خلقنا الإنسانَ﴾ هذا جواب القسم، وأراد بالإنسان: الكافر. قيل: هو الوليد بن المُغيرة. وقيل: كَلَدَة بن أسيد. فعلى هذا نزلت في مُنكري

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت.

البعث. وقيل: المراد بالإنسان آدم ذريته. ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه؛ كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون؛ لأنه خلق كل شيء مُنْكَبا على وجهه، وخلقه هو مستوياً، وله لسان ذَلِق، ويد وأصابع يقبض بها. وقال أبو بكر بن طاهر: مزيناً بالعقل، مؤدِّياً للأمر، مَهْديًا بالتمييز، مديد القامة؛ يتناول مأكوله بيده. ابن العربيّ: «ليس للَّهِ تعالى خلق أحسنُ من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالِماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً». وهذه صفات الرب سبحانه، وعنها عبَّر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله: «إن الله خلق آدم على صُورته» يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها. وفي رواية «على صورة الرحمن» ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة، فلم يبق إلا أن تكون معاني». وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزديّ قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بن أبي علي القاضي المحسِّن عن أبيه قال: كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً شديداً فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر؛ فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقتني!. وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم. فقال جميع من حضر: قد طلقت؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً. فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقال له الرجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿والتينِ والزيتونِ. وطورِ سِينين. وهذا البلد الأمِينِ. لقد خلقنا الإنسان فِي أحسنِ تقوِيمٍ﴾. يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه. فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبلْ على زوجتك. وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل: أن أطيعي زوجك ولا تعصيه، فما طلقك.

فهذا يدلك على أنّ الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، جمال هيئة، وبديع تركيب: الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه. ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه[1].

(١) في بعض نسخ الأصل وابن العربي: «أجمع فيه».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ثُمّ رَدَدْناهُ أسْفَلَ سافِلِينَ﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، حتى يصير كالصبيّ في الحال الأوّل؛ قاله الضحاك والكلبيّ وغيرهما. وروى ٱبن أبي نَجيح عن مجاهد: ﴿ثم رَدَدْناهُ أسْفَلَ سافِلِينَ﴾ إلى النار، يعني الكافر، وقاله أبو العالية. وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي رُكِّب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[١] وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رَدَّه أسفل سافلين؛ بأن جعله مملوءاً قَذَرا، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغَلَبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره. وقرأ عبد الله ﴿أسفلَ السَّافِلينَ﴾. وقال: ﴿أسفل سافِلِين﴾ على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال: أسفل سافلٍ جاز؛ لأن لفظ الإنسان واحد. وتقول: هذا أفضل قائم. ولا تقول أفضل قائمين؛ لأنك تضمر لواحد، فإن كان الواحد غير مُضْمَر له، رجع ٱسمه بالتوحيد والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿والَّذِي جاءَ بِالصدقِ وصَدَّق بِهِ أولئكَ هُمُ المُتَّقون﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وإنَّا إذا أذَقْنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً فَرِحَ بِهَا وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[٣]. وقد قيل: إن معنى ﴿رَدَدْناه أَسْفَلَ سافلينَ﴾ أي رددناه إلى الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان لَفِي خسرٍ. إلا الذِين آمنوا وعمِلوا الصالِحات﴾ أي إلا هؤلاء، فلا يردون إلى ذلك. والاستثناء على قول من قال ﴿أسفلَ سافلينَ﴾: النار، متصل. ومن قال: إنه الهَرَم فهو منقطع.

[٦] ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ﴾ فإنَّه تكتب لهم حسناتهم، وتُمْحَى عنهم سيئاتهم؛ قاله ٱبن عباس. قال: وهم الذين أدركهم الكِبَر، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم.

(١) آية ٢٤ سورة النازعات.
(٢) آية ٣٣ سورة الزمر.
(٣) آية ٤٨ سورة الشورى.

وروى الضحاك عنه قال: إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة، ثم ضَعُف عما كان يعمل في شبابه؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه. وفي حديث قال النبيّ ﷺ: «إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللّهُ له مثلَ ما كان يَعمَلُ مُقِيماً صحيحاً». وقيل: ﴿إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالِحات﴾ فإنه لا يَخْرَف ولا يَهْرَم[١]، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً به. وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يرَدَّ إلى أرذل العمر. وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله». وروي: إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكَيه[٢] أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة، ويكتب له ذلك.

قوله تعالى: ﴿فلهمْ أجرٌ غيرُ مَمْنُونٍ﴾ قال الضحاك: أجر بغير عمل. وقيل مقطوع.

[٧] ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

قيل: الخطاب للكافر؛ توبيخاً وإلزاماً للحجة. أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردّك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تُكَذِّب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد ﷺ به؟ وقيل: الخطاب للنبيّ ﷺ؛ أي اسْتَيقِنْ مع ما جاءك من الله عز وجل، أنه أحكم الحاكمين. رُوِي معناه عن قتادة. وقال قتادة أيضاً والفرّاء: المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين. واختاره الطبريّ. كأنه قال: فمن يقدر على ذلك؛ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدِّين والجزاء. قال الشاعر:

دِنَّـا تميمـاً كمـا كـانـتْ أوائلُنا ... دانَتْ أوَائلَهمْ في[٣] سالف الزمنِ

(١) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي: فهم لا يخرفون ولا تذهب عقولهم».
(٢) في بعض نسخ الأصل: «ملائكة» وفي بعضها: «ملكين».
(٣) في تفسير الشوكاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي (٥: ٤٥٣): من سالف.

[٨] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

أي أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق. وقيل: ﴿بأحكم الحاكمين﴾ قضاء بالحق، وعدلاً بين الخلق. وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم. وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجاباً، كما قال:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا(١)

وقيل: ﴿فما يُكَذِبُك بعدُ بِالدينِ. أليسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمِين﴾: منسوخة بآية السيف. وقل: هي ثابتة؛ لأنه لا تنافي بينهما. وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين؛ فيختار ذلك. والله أعلم. ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال: من قرأ سورة ﴿والتين والزيتون﴾ فقرأ ﴿أليسَ اللَّهُ بأحكَم الحاكِمينَ﴾ فليقل: بلى. وأنا علي ذلك من الشاهدين. والله أعلم.

سورة العلق

وهي مكية بإجماع، وهي أوّل ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشة رضي الله عنهما. وهي تسع عشرة آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين. نزل بها جبريل على النبيّ ﷺ وهو قائم على حِراء، فعلمه خمسَ آيات من هذه السورة. وقيل: إن أوّل ما نزل ﴿يا أَيُّهَا المُدَّثِّر﴾، قاله جابر بن عبد الله؛ وقد تقدم(٢). وقيل: فاتحة الكتاب أوّل ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْدانيّ. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما نزل من القرآن

(١) من قصيدة لجرير يمدح عبد الملك بن مروان. وتمامه:
وأنـدى العـالميـن بطـون راح

(٢) راجع ١٩/ ٥٨ من الطبعة الأولى و ١٩/ ٥٩ من الطبعة الثانية.

﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾[(١)] والصحيح الأوّل. قالت عائشة: أوّل ما بُدِيء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة[(٢)]؛ فجاءه الملك فقال: ﴿اقرأ بِاسم ربك الذِي خَلَق، خَلَقَ الإنسان مِن عَلَق، اقرأ وربُّك الأكرمُ﴾. خرجه البخارِيّ.

وفي الصحيحين عنها قالت: أوّل ما بِديء به رسول الله ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، فكان يخلو بغار حِراءٍ، يتحنث[(٣)] فيه الليالي ذواتِ العدد، [قبلَ أَنْ يَرْجع إلى أَهلِه[(٤)]] ويتزوّد لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛ حتى فجِئه الحقُّ وهو في غار حِراء، فجاءه الملك، فقال: «اقرأ»: فقال: «ما أنا بقارىء - قال - فأخذني فغطني[(٥)]، حتى بلغ مني الجهدُ ثم أرسلني»، فقال: «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارىء». فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني» فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خَلَق. خلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق. اقرأ وربك الأكرمُ. الذِي علم بِالقلَم. علم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ الحديث بكماله. وقال أبو رجاء العُطارِدِيّ: وكان أبو موسى الأشعرِيّ يطوف علينا في هذا المسجد: مسجدِ البصرة، فيُقْعِدنا حِلَقا، فيقرِئنا القرآن؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿اقرأْ باسم ربك الذي خَلَق﴾. وكانت أوّلَ سورة أنزلها الله على محمد ﷺ. وروتْ عائشة رضي الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿ن والقلم﴾ ثم بعدها ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم بعدها ﴿والضحى﴾ ذكره الماوردِيّ. وعن الزُّهرِيّ: أول ما نزل سورة: ﴿اقرأ باسم ربك - إلى قوله - ما لم يعلم﴾، فحزِن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: «إنك نبيُّ الله» فرجع إلى خديجة وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليّ ماء بارداً»، فنزل ﴿يا أيها المدّثر﴾.

---

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام.

(٢) كذا في «الأصول» ومسلم. وفي البخاري: «الصالحة».

(٣) يتحنث: أي يتعبد. يقال: فلان يتحنث، أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج.

(٤) زيادة عن الصحيحين.

(٥) الغط: العصر الشديد والكبس.

ومعنى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة. فمحل الباء من ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم ربك. يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله. وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اسمَ ربك، والباء زائدة؛ كقوله تعالى ﴿تَنْبُتُ بِالدّهنِ﴾، وكما قال:

سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّورِ[1]

أراد: لا يقرأن السور. وقيل: معنى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اذكر اسمه. أمره أن يبتدىء القراءة باسم الله.

[٢] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ﴾ يعني ابن آدم. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقة: قطعة من دمٍ رَطْب، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه، فإذا جفت لم تكن عَلَقة. قال الشاعر:

تركناه يَخِر على يديه ... يمج عليهما عَلَق الوَتِينِ

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مَهينة، حتى صار بشراً سَوِيًّا، وعاقلاً مميزاً.

[٣] ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿اقرأْ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي الكريم. وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعَجّل بعقوبتهم. والأوّل أشبه

(١) هذا عجز بيت للراعي، وصدره:
هنّ الحرائر لا ربات أخمرة

بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه، دلَّ بها على كرمه. وقيل: ﴿اقرأ وربك﴾ أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارىء. و ﴿الأكرم﴾ بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

[٤] ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿الذِي علَّم بالقلمِ﴾ يعني الخط والكتابة؛ أي علم الإنسان الخط بالقلم. ورَوى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دِين، ولم يصلُح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه عَلَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلِين ومقالاتهم، ولا كتبُ اللَّهِ المُنْزَلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي ما ٱستقامت أمور الدين والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنه يُقْلَم؛ أي يُقطع، ومنه تقليم الظفر. وقال بعض الشعراء المُحْدَثِين يصف القلم:

فكـأنـه والحِبْـرُ يخضِـبُ رأسَـهُ   شيـخٌ لـوصـل خَـرِيـدةٍ يتَصَنَّـعُ
لِـمَ لا[١] ألاحظـه بعيـن جَـلالـة   وبـه إلـى الله الصحـائـفُ تـرفـعُ

وعن عبد الله بن عمر قال: يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتب، فإن الله عَلَّم بالقلم». وروى مجاهد عن أبي عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعَرْش، وجنة عَدْن، وآدم عليه السلام. وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها ـ أنه آدم عليه السلام؛ لأنه أوّل من كتب، قاله كعب الأحْبار. الثاني ـ أنه إدريس، وهو أول من كتب. قاله الضحاك. الثالث: أنه أدخل كل مَن كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خَلْقه، وبين نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه.

---

(١) في «الأصول»: (ألا) في موضع (لم لا)، ولعله تحريف.

الثانية ـ صح عن النبيّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ: «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: «أوّلُ ما خلق الله: القلمَ، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه». وفي «الصحيح» من حديث ابن مسعود: [أنه][1] سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول، يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول: يا رب أَجَلَه، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقَه، ليقضي ربك ما شاء، ويكتب المَلك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص، وقال تعالى: ﴿إنّ عليكُمْ لحَافظينَ. كِراماً كاتبين[2]﴾».

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: **القلم الأوّل** ـ الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب. **والقلم الثاني** ـ أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. **والقلم الثالث** ـ أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدميّ.

الثالثة ـ قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفة به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبيناً في سورة ﴿العنكبوت﴾[3]. وروى حَمَّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تُسْكِنُوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلموهن الكتابة». قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبيّ ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغُرَف تطلعاً إلى الرجل؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر. وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل؛ فتَحدثَ الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غُرَفاً ذريعة إلى الفتنة.

---

(١) زيادة لتكملة العبارة. (٢) آية ١٠ سورة الانفطار. (٣) راجع ١٣/ ٣٥١.

وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال». وذلك أنها خُلقت من الرجل، فنهْمتُها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجُعلت سكناً له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه. وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابة كتبت إلى من تَهوَى. والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده. وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان. فأحب رسول الله ﷺ أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة؛ تحصيناً لهنّ، وطهارة لقلوبهنّ.

[٥] ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

قيل: ﴿الإنسان﴾ هنا آدم عليه السلام. علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾(١). فلم يبق شيء إلا وعلَّم سبحانه آدمَ أسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظهر فضله، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه، وأمتثلت الملائكة الأمر لِمَا رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر. ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة ﴿البقرة﴾(٢) مستوفًى والحمد لله. وقيل: ﴿الإنسان﴾ هنا الرسول محمدﷺ؛ دليله قوله تعالى: ﴿وعَلَّمك ما لم تَكُنْ تعلم﴾(٣). وعلى هذا فالمراد بـ ﴿سعلِّمك﴾ المستقبل(٤)؛ فإن هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عام لقوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً﴾(٥).

[٦] ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

[٧] ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنه نزل

---

(١) آية ٣١ سورة البقرة. (٢) راجع ١/٢٧٩ طبعة ثانية.
(٣) آية ١١٣ سورة النساء. (٤) في نسخة: المشكل. (٥) آية ٧٨ سورة النحل.

في أبي جهل. وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل؛ نهى النبيّ ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب. وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل. ويجوز أن يكون خمس آيات من أوّلها أوّل ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبيّ ﷺ بضم ذلك إلى أوّل السورة؛ لأن تأليف السوَر جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وٱتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾[1] آخِرِ ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. و ﴿كَلاَّ﴾ بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيء. والإنسان هنا أبو جهل. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان. ﴿أَنْ رآه﴾ أي لأن رأى نفسه ٱستغنى؛ أي صار ذا مال وثروة. وقال ٱبن عباس في رواية أبي صالح عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من ٱستغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيِّرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه؛ فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة». فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون[2] ذلك؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم. وقيل: ﴿أَنْ رَآه ٱسْتغنَى﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله ﴿أن رآه﴾ كما يقال: إنكم لَتَطْغُون إن رأيتم غِناكم. وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد ٱسماً وخبراً، نحو الظن والحِسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد. والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى تراك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً. وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ٱبن كثير ﴿أن رأهُ ٱسْتَغْنَى﴾ بقصر الهمزة. الباقون ﴿رآه﴾ بمدّها، وهو الاختيار.

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة.

(٢) في نسخة من الأصل: «يقبلون».

[٨] ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

أي مرجع مَنْ هذا وصْفُه، فنجازيه. والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجعاً، ورُجْعَى؛ على وزن فُعْلى.

[٩] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَرأيتَ الذي يَنْهَى﴾ وهو أبو جهل ﴿عَبداً﴾ وهو محمد ﷺ. فإن أبا جهَل قال: إنْ رأيت محمداً يصلِّي لأَطأَنّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرة. فأنزل الله هذه الآيات تعجباً[١] منه. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أَمِنَ هذا الناهِي عن الصلاة من العقوبة.

[١١] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

[١٢] ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكاً؟!

[١٣] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

[١٤] ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

يعني أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل، وأَعْرض عن الإيمان. وقال الفرّاء: المعنى ﴿أرأيتَ الذي ينهى. عبداً إذا صلى﴾ وهو على الهدى، وآمر بالتقوى، والناهي مكذِّب متولّ عن الذكر؛ أي فما أعجب هذا! ثم يقول: وَيْله! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي يراه ويعلم فعله؛ فهو تقرير وتوبيخ. وقيل: كل واحد من ﴿أرأيت﴾ بدل من الأوّل. و ﴿أَلَمْ يعلم بأنّ اللَّهَ يَرَى﴾ الخبر.

[١٥] ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾.

[١٦] ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) أي تعجيباً منه، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب «عن حاشية الجمل».

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي أبو جهل عن أذاك يا محمد. ﴿لَنَسْفَعاً﴾ أي لنأخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذلنه. وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿فيؤخذ بِالنواصِي والأقدامِ﴾[1]. فالآية ـ وإن كانت في أبي جهل ـ فهي عِظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة. وأهل اللغة يقولون: سَفَعْتَ بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً. ويقال: سَفَعَ بناصية فرسه. قال:

قَـوْمٌ إذا كَثُـر الصيـاح رأيتهـمْ مِنْ بينِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِـعِ[2]

وقيل: هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أثـافِـيَّ سُفعـاً فـي مُعَـرَّسِ مِرْجَـلٍ ونَؤْيٌ كجِذم الحوض أثْلَمَ خاشِـع[3]

والناصية: شعر مقدّم الرأس. وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان. وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته. وقال المبرّد: السَّفْع: الجذب بشدّة؛ أي لَنَجُرَّن بناصيته إلى النار. وقيل: السَّفْع الضرب؛ أي لنلطُمَنّ وجهه. وكله متقارب المعنى. أي يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجرّ إلى جهنم. ثم قال على البدل: ﴿ناصِيةٍ كاذِبةٍ خاطِئةٍ﴾

---

(١) آية ٤١ سورة الرحمن.

(٢) البيت لحميد بن ثور الهلالي الصحابي. ويروى: «ما بين ملجم...».

(٣) هكذا ورد البيت في جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل، وهو ملفق من قصيدتين. فالشطر الأوّل من معلقة زهير. والبيت كما في ديوانه ومعلقته:

أثـافـي سفعـاً فـي معرس مـرجـل ونـؤيـا كجـذم الحـوض لـم يتثلـم

والشطر الثاني من قصيدة للنابغة: والبيت كما في ديوانه:

رمـاد ككحـل العيـن لأيـا أبينـه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

والأثلم: المتثلم. والخاشع: اللاصق بالأرض. والأثافي؛ الحجارة التي تجعل عليها القدر؛ الواحدة أثفية. والسفع: السود. والمعرّس: الموضع الذي فيه المرجل. والمرجل: كل قدر يطبخ فيها، من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس. والنؤي: حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج. وجذم الحوض: حرفه وأصله ولم يتثلم: يعني النؤي قد ذهب أعلاه، ولم يتثلم ما بقي منه، أي يتكسر.

أي ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئةٍ في فعلها. والخاطىء معاقب مأخوذ. والمخطىء غير مأخوذ[١]. ووصف الناصيةِ بالكاذبة الخاطئة، كوصفِ الوجوه بالنظر في قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظِرة﴾[٢]. وقيل: أي صاحبها كاذب خاطىء؛ كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليله.

[١٧] ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيدعُ نادِيَهُ﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم. ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِية﴾ أي الملائكة الغِلاظ الشداد ـ عن ابن عباس وغيره ـ واحدهم زِبْنِيّ؛ قاله الكسائي. وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زِبْنِية. وقيل: زَبَانِيّ. وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد. وقال قتادة: هم الشُّرَط في كلام العرب. وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع؛ ومنه المُزابنة[٣] في البيع. وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقندِيّ ـ رحمه الله ـ قال: ورُوِي في الخبر أن النبيّ ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لنسفعا بالناصية﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ، سَنَدْع الزَّبانِيةَ﴾. فلما سمع ذِكر الزبانية رجع فزِعا؛ فقيل له: خَشِيتَ منه! قال لا! ولكن رأيت عنده فارساً يُهدّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إليّ الفارس، فخشِيت منه أن يأكلني. وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خَلْقاً، وأشدّهم بطشاً. والعرب تطلِق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه. قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مَطَاعينَ في الوَغَى ... زَبـانيـةٌ غُلْـب عِطـامٌ حلُـومُهـا[٤]

---

(١) الخاطىء: من تعمد لما لا ينبغي؛ أي القاصد للذنب. والمخطىء: من أراد الصواب فصار إلى غيره.
(٢) آية ٢٣ سورة القيامة.
(٣) هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر، ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة.
(٤) غلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها. والحلوم: جمع الحلم وهو العقل.

وعن عكرمة عن ابن عباس: ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيةَ﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه. فقال النبيّ ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. ورَوى عِكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل على النبيّ ﷺ وهو يصلّي عند المَقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهدّدني يا محمد! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿فلْيدْعُ نادِيه. سندع الزبانية﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته. أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح. والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدِي فيه القوم؛ أي يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

لهـم مَجلِـسٌ صُهْـبُ السِّبـالِ أذِلـةٌ[1]

وقال زهير:

وفيهـمْ مَقـامـاتٌ حِسـان وُجُـوهُهـم[2]

وقال آخر:

واَسْتَـبَّ بعـدَكَ يـا كُلَيـبُ المجلِـسُ[3]

وقد ناديت الرجل أنادِيه إذا جالسته. قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِي أمـامَ الحـي عَقْـدُهمـا سَـواءُ

(١) تمامه:

سـواسيـة أحـرارهـا وعبيـدهـا

والبيت لذي الرّمة لا لجرير. و «صهب»: حمر. و «السبال»: الشعر الذي عن يمين الشفة العليا وشمالها. (٢) تمام البيت:

وأنـديـة ينتـابهـا القـول والفعـل

المقامات: المجالس؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم في المجلس، فيحض على الخير، ويصلح بين الناس. وأندية: جمع الندى، وهو المجلس أيضاً، وفيه الشاهد.

(٣) هذا عجز بيت المهلهل يرثي أخاه كليباً. وصدره:

نبئـت أن النـار بعـدك أوقـدت

[١٩] ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

﴿كَلّا﴾ أي ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل. ﴿لا تُطعْهُ﴾ أي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة. ﴿واسجد﴾ أي صل لِلَّه ﴿واْقترِب﴾ أي تقرّب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدت فاْقترب من الله بالدعاء. روى عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله».

قال علماؤنا: وإنما[كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غاية العِزة، وله العزة التي لا مقدار لها؛ فكلما بَعُدْت من صفته، قربت مِن جنته، ودنوت من جواره في داره. وفي الحديث الصحيح: أن النبيّ ﷺ قال: «أمّا الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فاْجتهدوا في الدعاء، فإنه قِمَن[1] أن يُسْتجاب لكُم». ولقد أحسن من قال:

وإذا تـذللـتِ الـرقـاب تـواضُعـاً منـا إليـك فعِـزُّهـا فـي ذُلّهـا

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصلياً، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قوله تعالى: ﴿واسجد﴾ هذا من السجود. يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة. قال اْبن العربيّ: «والظاهر أنه سجود الصلاة» لقوله تعالى: ﴿أرأيتَ الذِي ينهى عبداً إذا صلى - إلى قوله - كلا لا تُطِعه واْسجد واْقترِب﴾، لولا ما ثبت في «الصحيح» من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في ﴿إذا السماء اْنشقت﴾، وفي ﴿اْقرأ باسم ربك الذِي خلق﴾ سجدتين، فكان هذا نصاً على أن المراد سجود التلاوة. وقد رَوى اْبن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرْ بن حُبَيْش، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: عزائم السجود أربع: ﴿الَـم﴾ و ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ و ﴿النجم﴾ و ﴿اقرأ

(١) يقال: قمن وقمن بفتح الميم وكسرها، والذي بالكسر يثنى ويجمع كقمين؛ أي خليق وجدير.

باسم ربك﴾. وقال ٱبن العربيّ: «وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة ﴿الحج﴾، وإن كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه ٱركعوا في موضع الركوع، وٱسجدوا في موضع السجود». وقد قال ٱبن نافع ومطَرِّف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من ﴿ٱقرأ باسم ربك﴾ وٱبن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ٱبن عمر قال: لما أنزل الله تعالى ﴿ٱقرأ باسم ربك الذِي خلق﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتبها يا معاذ» فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون ـ وهي الدواة ـ فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿كلا لا تطِعه وٱسجد وٱقترِب﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ٱرفع به ذِكراً، اللهم ٱحْطِطْ به وِزراً، اللهم ٱغفر به ذنباً. قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد.

ختمت السورة. والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى. وله الحمد والمِنة.

سورة القدر

وهي مَدَنية في قول أكثر المفسرين؛ ذكره الثعلبيّ. وحكى الماوردِيّ عكسه.

قلت: وهي مدنية في قول الضحاك، وأحد قولي ٱبن عباس. وذكر الواقِدِيّ أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة. وهي خمس آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾.

قوله تعالى: ﴿إنا أنزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذِكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كله كالسورة الواحدة. وقد قال: ﴿شهر رمضان الذِي أُنْزِل فِيهِ القرآنُ﴾[١] وقال: ﴿حم. والكِتَابِ المُبِينِ. إنّا أنْزَلْنَاهُ في ليلةٍ مباركةٍ﴾[٢]، يريد: في ليلة القدر. وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة. (٢) أوّل سورة الدخان.

الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السَّفَرة[١]، ثم كان جبريل ينزله على النبيّ ﷺ نُجوماً[٢] نجوما. وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ٱبن عباس، وقد تقدّم في سورة ﴿البقرة﴾[٣]. وحكى الماوَرْدِيّ عن ٱبن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبيّ ﷺ عشرين سنة. قال ٱبن العَرَبيّ: «وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة».

قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحكم. ﴿وما أَدْرَاك ما ليلةُ القدْرِ﴾ قال: ليلة الحكم. والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر[٤] فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره. ويسلمه إلى مدبِّرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل؛ عليهم السلام. وعن ٱبن عباس قال؛ يُكْتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حَتَّى الحاجّ. قال عكرمة: يُكتب حاجّ بيتِ الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يُغادَر منهم أحد، ولا يُزاد فيهم. وقاله سعيد بن جبير. وقد مضى في أوّل سورة ﴿الدخان﴾[٥] هذا المعنى. وعن ٱبن عباس أيضاً: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويُسْلمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: إنما سميت بذلك لِعِظَمِها وقَدْرها وشرفها؛ من قولهم: لفلان قَدْر؛ أي شرف ومنزلة. قاله الزُّهرِيّ وغيره. وقيل: سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قَدْراً عظيماً، وثواباً جزيلاً. وقال أبو بكر الوراق:

(١) السفرة: هم الملائكة؛ جمع سافر. والسافر في الأصل: الكاتب، سمي به لأنه يبين الشيء ويوضحه. (٢) يعني جزءاً جزءاً، الآية والآيتين. (٣) راجع ٢/٢٩٧ طبعة ثانية.
(٤) يريد أنه يظهر ما قضاه في الأزل من الأمور، لا أنه يقدر ابتداء. (٥) راجع ١٦/١٢٥.

سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها. وقيل: سميت بذلك لأنه أُنزل فيها كتابا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر. وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخَطَر. وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين. وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿ومَنْ قُدِر عليهِ رِزْقُهُ﴾[1] أي ضُيِّق.

[٢] ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ ﴾.

[٣] ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ ﴾.

قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وما أَدْراكَ﴾ فقد أدراه. وما كان من قوله: ﴿وما يُدْرِيك﴾ فلم يُدْرِه. وقاله سفيان، وقد تقدم[2]. ﴿لَيْلَةَ القَدْرِ خير مِن أَلف شَهْرٍ﴾ بيَّن فضلها وعظمها. وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل. وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر. والله أعلم. وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر. وقيل: عنَى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهم لو يُعَمَّر أَلْفَ سَنَةٍ﴾[3] يعني جميع الدهر. وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها. وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما. وقال ابن مسعود: إن النبيّ ﷺ

(١) آية ٧ سورة الطلاق.
(٢) راجع ١٨/٢٥٧ و ١٩/٢٤٧ و ٣ من هذا الجزء.
(٣) آية ٩٦ سورة البقرة.

ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبِس السلاح في سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت: ﴿إِنّا أَنْزَلْناه﴾ الآية. ﴿خَيْرٌ مِن أَلْفِ شَهرٍ﴾، التي لبِس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله. ونحوه عن ابن عباس. وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلماً، وإن أمّه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان سكن قريباً منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بِلَحيَيْ بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش، انفجر له من اللَّحيين[1] ماء عذب، فيشرب منه وكان قد أُعطِي قوّة في البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره: وكان اسمه شَمْسُون. وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملِكا في بني إسرائيل، فعل خَصْلة واحدة، فأوحى الله إلى نبيّ زمانهم: قل لفلان يتمنى. فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي؛ فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهداً في سبيل الله، فيقوم شهراً ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر، والملك مع ذلك قائم الليلِ، صائم النهار؛ فقتِل الألْفُ[2] ولد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتِل. فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةَ القدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله. وقال عليّ وعروة: ذكر النبيّ ﷺ أربعة من بني إسرائيل، فقال: «عَبَدوا الله ثمانينَ سنة، لم يَعصُوه طرفة عين»؛ فذكر أيوب وزكرِيا، وحِزْقيل بن العجوز ويُوشَع بن نون؛ فعجِب أصحاب النبيّ ﷺ من ذلك. فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك؛ ثم قرأ: ﴿إنا أَنْزلناهُ في ليلةِ القَدْرِ﴾. فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ. وقال مالك في الموطّأ من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت

---

(١) اللحي (بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء): عظم الحنك، وهو الذي عليه الأسنان. وعبارة الطبري في تاريخه (طبع أوروبا قسم أوّل ص ٧٩٤): «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحي بعير، لا يلقاهم بغيره؛ فإذا قاتلوه وقاتلهم. وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذي في اللحي ماء عذب... الخ». بإفراد «اللحي» في الموضعين.

(٢) كذا في الأصل، والمعروف في العربية أن البصريين قالوا: ما كان من العدد مضافاً أدخل الألف واللام في آخره فقط، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأوّل والثاني، وعلى ذلك فيقال هنا: ألف الولد أو الألف الولد.

من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أرِي أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر. وفي الترمذيّ عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ أرِي بني أمية على منبره، فساءه ذلك؛ فنزلت: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، يعني نهراً في الجنة. ونزلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناه فِي ليلةِ القَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ. ليلةُ القَدْرِ خير مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بعدك بنو أمية، قال القاسم بن الفضل الحُدّاني: فعدَدْناها، فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يوماً، ولا تنقص يوماً. قال: حديث غريب.

[٤] ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ المَلائكةُ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى؛ ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمّنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾. ﴿والرُّوحُ فيها بإذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي جبريل عليه السلام. وحكى القُشَيريّ: أن الرُّوح صِنف من الملائكة، جُعِلوا حفظَة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً؛ ذكره الماوَرْدِيّ وحكى القشيريّ: قيل هم صِنف مِن خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدٍ وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: ﴿الرُّوح﴾ خلق عظيم يقوم صفا، والملائكة كلهم صفا. وقيل: ﴿الرُّوح﴾ الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاء من عِبادِهِ﴾[1]، أي بالرحمة. ﴿فِيها﴾ أي في ليلة القدر. ﴿بِإِذنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمره. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾: أُمِرَ بكل أمرٍ قدّره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿يحفظُونه مِنْ أمْرِ اللهِ﴾[2] أي بأمر الله. وقراءة العامة ﴿تَنَزَّلُ﴾ بفتح التاء؛ إلاّ أن البزي

(١) آية ٢ سورة النحل.

(٢) آية ١١ سورة الرعد.

شدّد التاء. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وابن السَّميقَع، بضم التاء على الفعل المجهول. وقرأ عليّ وابن عباس وعِكرمة والكلبي ﴿مِنْ كُلِّ ٱمْرِىءٍ﴾. وروي عن ابن عباس أن معناه: من كل مَلَك؛ وتأوّلها الكلبيّ على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كل آمرىء مسلم. ﴿فمِن﴾ بمعنى على. وعن أنس قال: قال النبيّ ﷺ: «إذا كانَ ليلةَ القَدرِ نزلَ جبريلُ في كَبْكبة[1] من الملائكة، يُصَلُّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى».

[٥] ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

قيل: إن تمام الكلام ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ثم قال ﴿سلام﴾. روي ذلك عن نافع وغيره؛ أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها. ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ أي إلى طلوع الفجر. قال الضحاك: لا يقدّر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة. وقيل: أي هي سلام؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة. وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى. وروي مرفوعاً. وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن. وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها. وقال قتادة: ﴿سَلاَمٌ هي﴾: خير هي. ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾ أي إلى مطلع الفجر. وقرأ الكسائي وابن مُحَيصِن ﴿مَطْلِعِ﴾ بكسر اللام، الباقونَ بالفتح. والفتح والكسر: لغتان في المصدر. والفتح الأصل في فَعَلَ يَفْعُل؛ نحو المقتل والمخرج. والكسر على أنه مما شذ عن قياسه؛ نحو المشرِق والمغرِب والمنبت والمسكِن والمنسِك والمحشِر والمسقِط والمجزِر. حكى في ذلك كله الفتح والكسر؛ على أن يُراد به المصدر لا الاسم.

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى ـ في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك. والذي عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال: قلت لأبيّ بن كعب: إن أخاك عبد الله

(١) الكبكبة (بالفتح): الجماعة المتضامة من الناس وغيرهم.

ٱبن مسعود يقول: من يَقِم الحَول يصِب ليلة القدر. فقال: يغفِر الله لأبي عبد الرحمن! لقد عَلِم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس؛ ثم حلف لا يستثني[١]: أنها ليلة سبع وعشرين. قال قلت: بأيّ شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يؤمئذ لا شعاع لها. قال الترمذيّ: حديث حسن صحيح. وخرجه مسلم. وقيل: هي في شهر رمضان دون سائر العام؛ قاله أبو هريرة وغيره. وقيل: هي في ليالي السنة كلها. فمن علق طلاق ٱمرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضِي سنة من يوم حلف. لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت؛ فلا ينبغى وقوع الطلاق إلا بمضي حول، وكذلك العِتق؛ وما كان مِثله من يمين أو غيره. وقال ٱبن مسعود: من يَقُمِ الحول يصِبها؛ فبلغ ذلك ٱبن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن! أما إنه عَلِم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس. وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة. وقيل عنه: إنها رُفِعَتْ ـ يعني ليلة القدر ـ وأنها إنما كانت مرة واحدة؛ والصحيح أنها باقية. وروي عن ٱبن مسعود أيضاً: أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر. والجمهور على أنها في كل عام من رمضان . ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلي. وقال الحسن وٱبن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير : هي ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدْر . كأنهم نزعوا بقوله تعالى : ﴿ ومَا أَنْزَلْنا على عَبْدِنَا يومَ الفُرْقانِ يوم الْتَقَى الجمعانِ ﴾[٢] ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة، وقيل هي ليلة التاسع عشر . والصحيح المشهور : أنها في العشر الأواخر من رمضان ؛ وهو قول مالك والشافعيّ والأوزاعيّ وأبي ثور وأحمد . ثم قال قوم : هي ليلة الحادي والعشرين . ومال إليه الشافعيّ رضي الله عنه ، لحديث الماء والطين

(١) أي جزم في حلفه بلا استثناء فيه، بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله.

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال.

ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ، خرجه مالك[١] وغيره. وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا قال: يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى. فقال النبيّ ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليَقم ليلة ثلاث وعشرين». قال معمر: فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا. وفي «صحيح مسلم» أن النبيّ ﷺ قال: «إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين». قال عبد الله بن أنيس: فرأيته في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين، كما أخبر رسول الله ﷺ. وقيل: ليلة خمس وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدرِي: أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى». رواه مسلم، قال مالك: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين. وقيل: ليلة سبع وعشرين. وقد مضى دليله، وهو قول عليّ رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبيّ بن كعب. وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من كان متحريا ليلة القدر، فليتحرّها ليلة سبع وعشرين». وقال أبيّ بن كعب: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين». وقال أبو بكر الورّاق: إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر ـ شهر رمضان ـ على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي. وأيضاً فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين. وقيل: هي ليلة تسع وعشرين؛ لما روِي أن النبيّ ﷺ قال: «ليلة القدر التاسعة

---

(١) لفظ الحديث كما رواه مالك في الموطأ: «كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الوسط من رمضان، فاعتكف عاما، حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج فيها من صبحها من اعتكافه، قال: «من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها: وقد رأيتني أسجد من صبحها في ماء وطين: فالتمسوها في العشرالأواخر والتمسوها في كل وتر» قال أبو سعيد: فأمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش، فوكف المسجد (قطر) قال أبو سعيد: فأبصرت عيناني رسول الله ﷺ انصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين، من صبح ليلة إحدى وعشرين».

والعشرون ـ أو السابعة والعشرون ـ وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى». وقد قيل: إنها في الأشفاع[١]. قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة؛ ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي. وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان، طمعا في إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، وأسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية ـ في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبيّ ﷺ في ليلة القدر: «إن من أماراتها: أنها ليلة سَمْحَة بَلْجَة، لا حارّة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع». وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذبا سلِسا.

الثالثة ـ في فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّل المَلائِكَةُ والرُّوحُ فِيها﴾. وفي «الصحيحين»: «مَنْ قام ليلةَ القَدْر إيماناً واحتساباً غَفَر اللَّهُ له ما تَقَدَّم من ذَنْبه» رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس: قال النبيّ ﷺ: «إذا كان ليلةَ القدْرِ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الَّذينَ هم سُكان سِدرة المُنْتَهى، منهمْ جبريلُ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري، ولواءعلى بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طُور سَيْناء، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ تُسَلِّم عليه، إلا مُدْمِنَ الخمر، وآكِلَ الخِنزيرِ، والمتَضَمِّخ بالزعفران»: وفي الحديث: «إن الشيطان لا يخرجُ في هذه الليلة حتّى يُضيءَ فجرها، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحدا بخَبْل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر». وقال الشعبيّ: وليلُها كيومها، ويومها كليلها. وقال الفرّاء؛ لا يقدّر اللهُ في ليلة القَدْر إلا السعادة والنعم، ويقدِّر في غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدّم عن الضحاك. ومثله لا يقال

---

(١) جمع شفع، وهو العدد الذي يقبل القسمة على أثنين.

من جهة الرأي، فهو مرفوع. والله أعلم. وقال سعيد بن المسيب في الموطأ: [مَنْ شهِد العشاءَ من ليلة القدْر، فقد أخذ بحظّه منها](١)، ومثله لا يُدْرك بالرأي. وقد رَوَى عُبيد الله بن عامر بن ربيعة: أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة(٢) فقد أخذ بحظه من ليلة القدر» ذكره الثعلبي في تفسيره. وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسولَ الله إن وافقتُ ليلةَ القدْرِ فما أقول؟ قال: «قُولي اللهم إنك عَفُوٌّ تُحِبّ العفوَ فاعفُ عنِّي».

تفسير سورة «لم يكن»

وهي مكية في قول يحيى بن سلاّم. ومدنية؛ في قول ابن عباس والجمهور. وهي تسع(٣) آيات.

وقد جاء في فضلها حديث لا يصحّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمِيّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب، فاكتب عنه فإنه قد كتب؛ فذهب إليه، فقال: حدّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لو يعلم الناس ما في [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطّلوا الأهل والمال، فتعلموها» فقال رجل من خزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله؟ قال: «لا يقرؤها منافق أبدا، ولا عبد في قلبه شك في الله. واللّهِ إن الملائكة المقربين يقرؤونها مُنذُ(٤) خَلَقَ الله السموات والأرضَ ما يَفْتُرُون من قراءتها. وما من عبدٍ يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه في دينه ودنياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضرميّ: فجئت إلى أبي عبد الرحمن بن نُمير، فألقيت هذا الحديث عليه، فقال: هذا

---

(١) ما بين المربعين زيادة من الموطأ.

(٢) الذي في نسخة تفسير الثعلبي التي بين أيدينا: «من صلى المغرب والعشاء والآخرة من ليلة القدر فقد أخذ. . .» الحديث. ولم يذكر: «في جماعة».

(٣) في مصاحفنا: «ثمان آيات». وفي تفسير الآلوسي: وآيها تسع في البصرى، وثمان في غيره».

(٤) في بعض نسخ الأصل: «قبل خلق السموات. . .»

قد كفانا مئونته، فلا تعد إليه. قال ابن العربيّ: «روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيّب: عن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ: «لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا، لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها»[١]. حديث باطل؛ وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبيّ ﷺ قال لأبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا﴾» قال: وسماني لك!؟ قال «نعم» فبكى.

قلت: خرّجه البخاري ومسلم. وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم. قال بعضهم: إنما قرأ النبيّ ﷺ على أُبيّ، ليعلم الناس التواضع؛ لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة. وقيل: لأن أُبيا كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله ﷺ؛ فأراد بقراءته عليه، أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره. وفيه فضيلة عظيمة لأبيّ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه. قال أبو بكر الأنباري: وحدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، قال حدّثنا علي بن الجعد، قال حدّثنا عكرمة عن عاصم عن زِرّ بن حبيش قال: في قراءة أبيّ بن كعب: إبن آدم لو أُعطِي واديا من مال لالتمس ثانيا ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. قال عكرمة: قرأ عليٌّ عاصم ﴿لم يَكُنْ﴾ ثلاثين آية، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطل عند أهل العلم؛ لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكور في ﴿لم يكن﴾ مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماع: أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة.

(١) في الرواية الأولى للحديث ص ١٣٨: (فتعلموها).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾.

[٢] ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا قراءة العامة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود ﴿لم يَكُنِ المُشْرِكونَ وأهْلُ الكِتابِ مُنْفَكِّينَ﴾ وهذه قراءة على التفسير. قال ابن العربيّ: (وهي جائزة في مَعرض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة؛ فقد قرأ النبيّ ﷺ في «رواية الصحيح» «فَطَلِّقُوهنّ لِقَبْل عِدّتِهنَّ» وهو تفسير؛ فإنّ التلاوة: هو ما كان في خطِّ المصحف).

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى. ﴿والمُشْرِكينَ﴾ في موضع جر عطفا على ﴿أهل الكتاب﴾. قال ابن عباس: ﴿أهلُ الكتابِ﴾: اليهود الذين كانوا بيثرِب، وهم قُرَيظَة والنَّضِير وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش. ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ أي منتهين عن كفرهم، مائلين عنه. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾ أي أتتهم البينة؛ أي محمد ﷺ. وقيل: الانتهاء بلوغ الغاية؛ أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة. فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء. وقيل: ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ زائلين؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول. والعرب تقول: ما انفككتُ أفعل كذا: أي ما زلت. وما انفك فلان قائماً: أي ما زال قائماً. وأصل الفك: الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم[١]. قال طَرَفة:

فآلَيْتُ لا ينفَكُّ كَشْحِي بطانةً لِعَضْبِ رقيق الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ[٢]

---

(١) كذا في بعض نسخ الأصل. وفي بعضها: «فك السالم وهي..... قال طرفة». بياض بعد «وهي». وفي تفسير الثعلبي: «وفك السالم وهي حروف الفطن قال طرفة». ولم نهتد لوجه الصواب فيه.

(٢) الكشح: الجنب والعضب: السيف القاطع. ومهند: أي مشحذ؛ والتهنيد: التشحيذ. ويقال: سيف مهند: إذا عمل ببلاد الهند.

وقال ذو الرمة:

حَرَاجِيجُ ما تَنفكُّ إلاَّ مُناخةً على الخَفِ أوْ نَرْمِي بهَا بَلداً قفرا[١]

يريد: ما تنفك مناخة؛ فزاد ﴿إلاَّ﴾. وقيل: ﴿مُنْفَكِّين﴾: بارحين؛ أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيهُمُ البينةُ. وقال ابن كيسان: أي لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث؛ فلما بُعث حسدوه وجحدوه. وهو كقوله: ﴿فلما جاءهمْ ما عرفُوا كَفروا بِهِ﴾[٢]. ولهذا قال: ﴿ومَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتوا الكتاب﴾... الآية. وعلى هذا فقوله: ﴿والمُشْرِكينَ﴾ أي ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ، حتى بُعِث؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه. وقال بعض اللغويين: ﴿مُنْفَكِّينَ﴾: هالكين؛ من قولهم: أَنْفَكَ صَلاَ[٣] المرأةِ عند الولادة؛ وهو أن ينفصل، فلا يلتئم فتهلك. المعنى: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب. وقال قوم في المشركين: إنهم من أهل الكتاب؛ فمن اليهود من قال: عُزَيْرٌ ابن الله. ومن النصارى من قال: عيسى هو الله. ومنهم من قال: هو ابنه. ومنهم من قال: ثالث ثلاثة. وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: ﴿والمُشْرِكينَ﴾. وقيل: المشركون وصف أهل الكتاب أيضاً، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثة، وعامة اليهود مُشَبِّهة؛ والكُل شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء؛ وأنت تريد أقواماً بأعيانهم، تصفهم بالأمرين. فالمعنى: من أهل الكتاب المشركين. وقيل: إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ ﷺ؛ أي لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ

---

(١) الحراجيج (جمع حرجوج): وهي الناقة الطويلة الضامرة. والخسف: أن تبيت على غير علف. يقول: ما تنفصل من بلد إلى بلد إلا مناخة على الخسف.

(٢) آية ٨٩ سورة البقرة.

(٣) الصلا: وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذي أربع. وقيل: هو ما انحدر من الوركين. وقيل: هو ما عن يمين الذنب وشماله.

الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين. قال القشيريّ: وفيه بعد؛ لأن الظاهر من قوله: ﴿حتَّى تأتِيَهُمُ البينة. رسول مِن اللَّهِ﴾ أن هذا الرسول هو محمد ﷺ. فيبعد أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد ـ وإن كانوا من قبل مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيّن لهم الآيات؛ فحينئذٍ يؤمن قوم. وقرأ الأعمش وإبراهيم ﴿والمشركُونَ﴾ رفعاً، عطفاً على ﴿الذين﴾. والقراءة الأولى أبين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب. وفي حرف أبيّ: ﴿فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين﴾. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين﴾. وقد تقدم. ﴿حتّى تأتِيَهُمُ البينة﴾ قيل حتى أتتهم. والبَيِّنة: محمد ﷺ. ﴿رَسولٌ مِن اللَّهِ﴾ أي بعيث من الله جل ثناؤه. قال الزَّجّاج: ﴿رسول﴾ رفع على البدل من ﴿البينة﴾. وقال الفراء: أي هي رسول من الله، أو هو رسول من الله؛ لأن البينة قد تذكر فيقال: بينتي فلان. وفي حرف أُبيّ وابن مسعود ﴿رَسُولاً﴾ بالنصب على القطع. ﴿يتلو﴾ أي يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوة. ﴿صُحُفاً﴾ جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب. ﴿مُطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب، والشُّبُهات، والكفر؛ والمعنى واحد. أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أمّياً، لا يكتب ولا يقرأ. و ﴿مُطَهَّرَةً﴾: من نعت الصحف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فِي صحفٍ مكرمةٍ. مرفوعةٍ مطهرةٍ﴾[١]، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن. وقيل: ﴿مطهرة﴾ أي ينبغي ألا يَمَسَّها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة ﴿الواقعة﴾ حسب ما تقدّم بيانه[٢]. وقيل: الصحف المطهرة: هي التي عند الله في أمّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء

(١) آية ١٣ سورة عبس.

(٢) راجع ١٧/ ٢٢٥ فما بعد.

من الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوحٍ محفوظٍ﴾(١). قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء. ﴿فِيها كُتُبٌ قَيِّمة﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة؛ من قول العرب: قام يقوم: إذا آستوى وصح. وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب؛ فكيف قال في صحف فيها كُتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا: بمعنى الأحكام؛ قال الله عز وجل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبن﴾(٢) بمعنى حكم. وقال ﷺ: «والله لأقضِين بينكما بكتاب الله» ثم قضى بالرجم، وليس ذِكر الرجم مسطوراً في الكتاب؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى. وقال الشاعر:

وما الولاءُ بالبلاءِ(٣) فمِلْتُمُ ... وما ذاكَ قال اللَّهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن؛ فجعله كتباً لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

[٤] ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وما تَفَرَّق الذِين أُوتُوا الكِتابَ﴾ أي من اليهود والنصارى. خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهمْ مظنون بهم عِلم؛ فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. ﴿إلا مِن بعدِ ما جاءتهم البينة﴾ أي أتتهم البينة الواضحة. والمعنِيّ به محمد ﷺ؛ أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته؛ فلما بعِث جحدوا نبوّته وتفرّقوا، فمنهم من كفر: بغياً وحسداً، ومنهم من آمن؛ كقوله تعالى: ﴿وما تفرقوا إلا مِن بعدِ ما جاءهم العِلم بغياً بينهم﴾(٤). وقيل: ﴿البينة﴾: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل. قال العلماء: مِن أوّل السورة إلى قوله ﴿قَيِّمَةٌ﴾: حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين. وقوله: ﴿وما تفرق﴾: حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحُجج.

(١) آخر سورة البروج. (٢) آية ٢١ سورة المجادلة.
(٣) كذا في الأصل، ولم نقف على هذا البيت فيما لدينا من المراجع. ولعل صوابه:
ومـــا الـــولاة بـــالبـــلاء فملتـــم . . .
(٤) آية ١٤ سورة الشورى.

[٥] ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وما أُمِرُوا﴾ أي وما أمِر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي ليوحدوه. واللام في ﴿لِيعبدوا﴾ بمعنى ﴿أن﴾؛ كقوله: ﴿يُرِيد اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لكمْ﴾(١) أي أن يبين. و ﴿يرِيدون لِيطفِئوا نور اللَّهِ﴾(٢). و ﴿أُمِرْنا لِنُسْلِم لِرب العالمِين﴾(٣). وفي حرف عبد الله: ﴿وما أُمِروا إلاَّ أَنْ يَعبدوا الله﴾. ﴿مُخْلِصِين له الدين﴾ أي العبادة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً له الدِّينَ﴾(٤). وفي هذا دليل على وجُوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص مِن عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها، إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حُنفاء: على دِين إبراهيم عليه السلام. وقيل: الحَنِيف: من اختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير. قال أهل اللغة: وأصله أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام؛ أي مال إليه.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ويُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي بحدودها في أوقاتها. ﴿ويُؤْتُوا الزَّكاةَ﴾ أي يُعطوها عند محلها. ﴿وذلِك دِينُ القَيِّمةِ﴾ أي ذلك الدين الذي أُمِروا به دِين القَيِّمة؛ أي الدين المستقيم. وقال الزجاج: أي ذلك دِين المِلَّة المستقيمة. و ﴿القَيِّمة﴾: نعت لموصوف محذوف. أو يقال: دِين الأمة القَيِّمة بالحق؛ أي القائمة بالحقّ. وفي حرف عبد الله ﴿وذلك الدين القَيِّم﴾. قال الخليل: ﴿القَيِّمة﴾ جمع القيم، والقيم والقائم: واحد. وقال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته، لاختلاف اللفظين. وعنه أيضاً: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة. وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة. وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: ﴿القَيِّمة﴾ هاهنا: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها.

---

(١) آية ٢٦ سورة النساء. (٢) آية ٨ سورة الصف.
(٣) آية ٧١ سورة الأنعام. (٤) آية ١١ سورة الزمر.

[٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

[٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ والْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿المشركين﴾: معطوف على ﴿الَّذين﴾، أو يكون مجروراً معطوفاً على ﴿أهل﴾. ﴿فِي نارِ جَهَنَّم خالِدِينَ فِيها أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيةِ﴾ قرأ نافع وابن ذَكوان بالهمز على الأصل في الموضعين؛ من قولهم: بَرَأَ الله الخلق، وهو البارىء الخالق، وقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[١]. الباقون بغير همز، وشدّ الياء عِوضاً منه. قال الفَرّاء: إن أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصله غير الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللَّهُ يبُروه بَرْواً؛ أي خلقه. قال القُشَيْرِيّ: ومن قال البَرِية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّة: مِن بَرَيْت القلَم، أي قَدَّرته؛ فتدخل فيه الملائكة. ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من هَمَز. وقوله ﴿شَرُّ البَرِيَّة﴾ أي شر الخليقة. فقيل يحتمل أن يكون على التعميم. وقال قوم: أي هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وأنّي فَضَّلْتُكُمْ على العالَمِين﴾[٢] أي على عالَمِي زمانكم. ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هُو شر منهم؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح. وكذا ﴿خَيْرُ البَرِيَّة﴾: إمّا على التعميم، أو خير بَرِيةِ عصرهم. وقد أستدل بقراءة الهمز من فضّل بني آدم على الملائكة، وقد مضى في سورة ﴿البقرة﴾ القول فيه[٣]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمنُ أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده.

---

(١) آية ٢٢ سورة الحديد.

(٢) آية ٤٧ سورة البقرة.

(٣) راجع ١/ ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

[٨] ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهم﴾ أي ثوابهم. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي خالقهم ومالكهم. ﴿جَنَّاتُ﴾ أي بساتين. ﴿عَدْنٍ﴾ أي إقامة. والمفسرون يقولون: ﴿جَناتُ عَدْنٍ﴾ بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن [عَدْنا وعُدُونا]: أقام. ومعدِن الشيء: مَرْكزه ومستقرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُسْتضافوا إلى حُكْمِهِ ... يُضَافُوا إلى رَاجِح قَدْ عَدَنْ

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عنهمْ﴾ أي رضي أعمالهم؛ كذا قال ابن عباس. ﴿ورَضُوا عنه﴾ أي رَضُوا هم بثواب الله عز وجل. ﴿ذَلِك﴾ أي الجنة. ﴿لِمنْ خَشِي رَبَّه﴾ أي خاف ربّه، فتناهى عن المعاصي.

سورة الزَّلْزَلَة

مدنية، في قول ابن عباس وقتادة. ومكية؛ في قول ابن مسعود وعطاء وجابر. وهي تسع[١] آيات

قال العلماء: وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم: رَوَى الترمذيّ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾، عدلت له بنصف القرآن. ومن قرأ ﴿قل يَا أيُّها الكافِرونَ﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلْ هو الله أحد﴾ عدلت له بثُلُث القُرْآن». قال: حديث غريب، وفي الباب عن ابن عباس. ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله». وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾ بكى أبو بكر؛ فقال النبيّ ﷺ: «لَوْلاَ أَنَّكُمْ تُخْطِئُون وتُذْنبون ويغفِر اللَّهُ لكُمْ، لَخلَق أمة يُخْطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفورُ الرَّحيم».

(١) في حاشية الشهاب: «آيها تسع أو ثمان».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾.

أي حرّكت من أصلها. كذا رَوى عِكْرِمة عن ٱبن عباس، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلها ـ وقاله مجاهد ـ؛ لقوله تعالى: ﴿يومَ ترجُف الراجِفة. تتبعها الرادِفة﴾[١] ثم تزلزل ثانية، فتُخرِج موتاها وهي الأثقال. وذُكِر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض؛ كقولك: لأُعطينَّك عطيتك؛ أي عطيتي لك. وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها. وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال. وقرأ الجحدرِيّ وعيسى بن عمر بفتحها، وهو مصدر أيضاً، كالوَسواس والقَلقال والجَرْجار[٢]. وقيل: الكسر المصدر. والفتح الاسم.

[٢] ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾.

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثِقل لها. وإذا كان فوقها، فهو ثِقل عليها. وقال ٱبن عباس ومجاهد: ﴿أثقالها﴾: موتاها، تُخرجهم في النفخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثَّقَلان. وقالت الخنساء:

أبعـد ٱبـنِ عمـرٍو مِـنَ آل الشـرِ يـدِ حَلَّـتْ بـه الأرضُ أثقـالَهـا

تقول: لما دفن عمرو صار حِلية لأهل القبور، من شرفه وسؤدده. وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العرب تقول: إذا كان الرجل سفاكاً للدماء: كان ثِقلاً على ظهر الأرض؛ فلما مات حَطّت الأرض عن ظهرها ثِقْلها. وقيل: ﴿أَثْقَالَها﴾ كنوزها؛ ومنه الحديث: «تقيء الأرض أفلاذَ كبِدِها أمثال الأسطوان[٣] من الذهب والفضة...».

---

(١) آية ٦ سورة النازعات.
(٢) القلقال: من قلقل الشيء إذا حركه. والجرجار: من جرجر البعير إذا ردّد صوته في حنجرته.
(٣) الأسطوان: جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود؛ وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته.

[٣] ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وقال الإنسانُ﴾ أي ٱبن آدم الكافر. فروى الضحاك عن ٱبن عباس قال: هو الأسود بن عبد الأسد. وقيل: أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى: من مؤمن وكافر. وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراط الساعة؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً مِن أشراط الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عمومها؛ فلذلك سأل بعضهم بعضاً عنها. وعلى قول من قال: إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يَسأل عنها، والكافر جاحد لها، فلذلك يَسأل عنها. ومعنى ﴿مَالَهَا﴾ أي مالها زُلْزلت. وقيل: ما لها أَخْرَجَتْ أثقالها، وهي كلمة تعجيب؛ أي لأيّ شيء زلزلت. ويجوز أن يحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرّك الأرض فتخرج المَوْتَى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: مالهَا.

[٤] ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾.

[٥] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾.

[٦] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أخبارَها﴾ ﴿يومئِذٍ﴾ منصوب بقوله ﴿إذا زلزِلت﴾. وقيل: بقوله ﴿تُحَدِّثُ أَخْبارها﴾؛ أي تخبر الأرضُ بما عُمِل عليها من خير أو شر يومئذٍ. ثم قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: مِن قول الإنسان؛ أي يقول الإنسان مالها تحدّث أخبارها؛ متعجباً. وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يومئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارها﴾ قال: «أتدرُون ما أخبارُها ـ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عمِل على ظهرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا.

قال: «فَهَذِه أَخْبارُها». قال: هذا حديث حسن صحيح. قال الماورديّ، قوله ﴿يَومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها﴾: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها ـ ﴿تُحَدِّثُ أَخبارَها﴾ بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه مرفوعاً. وهو قول من زعم أنها زَلْزلة القيامة.

الثاني ـ تُحَدِّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام. وهو قول من زعم أنها زَلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إذا كان أجلُ العبد بأرض أوثَبَتْه الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله، فتقول الأرض يوم القيامة: رَبِّ هذا ما استودعتني». أخرجه ابن ماجه في سُنَنه. وقد تقدم[1].

الثالث ـ أنها تُحَدّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالَها؟ قاله ابن مسعود. فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى. فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن. وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها ـ أن الله تعالى يَقْلِبها حيواناً ناطقاً؛ فتتكلم بذلك.

الثاني ـ أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام.

الثالث ـ أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام. قال الطبريّ: تُبين أخبارها بالرجَّة والزلزلة وإخراج الموتى. ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي إنها تحدّث أخبارها بوحي الله ﴿لها﴾، أي إليها. والعربُ تضع لام الصفة موضع ﴿إلى﴾. قال العجّاج يصف الأرض:

وَحَى لَها القَرَار فاستَقَرّتِ وشَدَّها بالرّاسيات الثُّبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة: ﴿أَحَى لها﴾ أي إليها. وقيل: ﴿أَوْحَى لها﴾ أي أمرها؛ قاله مجاهد. وقال السدّي: ﴿أَوْحَى لها﴾ أي قال لها. وقيل: سخرها. وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر. ورُوي ذلك عن الثوريّ وغيره. ﴿يومئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أشْتاتاً﴾ أي فِرقاً؛ جمع شَتٍّ. قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى؛ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفرَّقون﴾[2] ﴿يَومَئِذٍ يَصَّدَّعون﴾[3]. وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب. ﴿أشتاتاً﴾

---

(١) راجع ١٤/٨٣. (٢) آية ١٤ سورة الروم. (٣) آية ٤٣ سورة الروم.

يعني فِرقاً فِرقاً. ﴿لِيُرَوا أعمالهم﴾ يعني ثواب أعمالهم. وهذا كما رُوي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ما من أحدٍ يوم القيامة إلاّ وَيَلُومُ نفسه، فإن كان محسِناً فيقول: لم لا ٱزددت إحساناً؟ وإن كان غير ذلك يقول: لم لا نَزَعتَ عن المعاصي»؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب. وكان ٱبن عباس يقول: ﴿أشْتاتاً﴾ متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة وأهل كل دين على حدة. وقيل: هذا الصدور، إنما هو عند النشور؛ يَصْدُرون أشتاتاً من القبور، فيصار بهم إلى موقف الحساب، لِيُروا أعمالَهم في كتبهم، أو لِيرُوا جزاء أعمالهم؛ فكأنهم وردوا القبور فدفِنوا فيها، ثم صدروا عنها. والوارد: الجائي. والصادر: المنصرف. ﴿أشتاتاً﴾ أي يبعثون من أقطار الأرض. وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: تحدّث أخبارها، بأن ربك أوحى لها، ليروا أعمالهم. واعترض قوله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُر الناسُ أَشْتَاتاً﴾ متفرقين عن موقف الحساب. وقراءة العامة ﴿لِيُرَوا﴾ بضم الياء؛ أي لِيريَهم الله أعمالهم. وقرأ الحسن والزهريّ وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها؛ ورُوي ذلك عن النبيّ ﷺ.

[٧] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ كان ٱبن عباس يقول: مَن يعمَل من الكفار مثقال ذرّة خيراً يَرَهُ في الدنيا، ولا يُثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عُوقب عليه في الآخرة، مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يَرَهُ في الدنيا، ولا يعاقَبْ عليه في الآخرة إذا مات، ويُتجاوز عنه، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يُقْبلْ منه، ويضاعفْ له في الآخرة. وفي بعض الحديث: «الذرّة لا زِنة لها» وهذا مَثَلٌ ضَرَبه الله تعالى: أنه لا يُغْفِل من عمل ٱبن آدمَ صغيرةً ولا كبيرة. وهو مِثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[١]. وقد تقدم الكلام هناك في الذرّ، وأنه لا وزن له. وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علِق بها من التراب فهو الذَّرّ، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذَرَّة. وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّة منْ خَيْر من كافر، يرى[٢] ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير. ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مُؤْمن، يرى[٢] عُقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ. دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبيّ ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقال: يا رسول الله، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خير وشرّ؟ قال: «ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ، ويُدَّخَر لكم مثاقيلُ ذَرّ الخير، حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة». قال أبو إدريس: إن مِصْداقه في كتاب الله: ﴿ومَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكم، ويَعْفُو عن كثِيرٍ﴾[٣]. وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ﴾[٤] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطِيه التمرة والكِسرة والجوزة[٥]. وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكَذبة والغِيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه؛ فإنه يوشِك أن يكثُر، ويُحَذِّرُهمْ اليسيرَ من الذنب، فإنه يوشِك أن يكثر؛ وقاله سعيد بن جبير. والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

الثانية ـ قراءة العامة ﴿يَرَهْ﴾ بفتح الياء فيهما. وقرأ الجَحْدَرِيّ والسُّلَمِيّ وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم: ﴿يُرَهْ﴾ بضم الياء؛ أي يُريه اللَّهُ إياه. والأَوْلَى الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تجِدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلت مِن خيرٍ مُحْضراً﴾[٦] الآية. وسكن الهاء في قوله ﴿يَرَه﴾

---

(١) آية ٤٠ سورة النساء. راجع ٥/ ١٩٥.
(٢) كذا في «الأصل» وبعض كتب التفسير بإثبات الياء والراجح حذفها.
(٣) آية ٣٠ سورة الشورى.
(٤) آية ٨ سورة الإنسان.
(٥) الجوزة: واحدة الجوز الذي يؤكل؛ فارسي معرب.
(٦) آية ٣٠ سورة آل عمران.

في الموضعين هشام. وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حَيْوة والمغيرة. واختلس يعقوب والزهري والجحدرِي وشيبة. وأشبع الباقون. وقيل: ﴿يَرَه﴾ أي يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرَى. وأنشدوا:

إنّ مـنْ يَعْتـدِي ويَكْسِـبُ إثْمـا ... وَزْنَ مِثْقـالِ ذَرّة سَيَـرَاهُ

ويُجَـازَى بفعلـه الشـرَّ شـرا ... وبفعـل الجميـلِ أيضـاً جَـزَاهُ

هكـذا قـولـه تبـارك رَبِّـي ... فـي إذا زُلـزلـت وَجـل ثَنـاه

الثالثة ـ قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن؛ وصَدق. وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية؛ القائلون بالعموم ومن لَمْ يقل به. وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحْصَتَا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحُف: ﴿فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيراً يره. ومن يعمل مِثقال ذرةٍ شراً يره﴾. قال الشيخ أبو مَدْين في قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيراً يره﴾ قال: في الحال قبل المآل. وكان النبيّ ﷺ يسمي هذه الآيـة الآيـة الجامعة الفاذة؛ كما في «الصحيح» لما سئل عن الحُمُـر وسكت عن البغال، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كَرّ فيهما ولا فـرّ؛ فلما ذكر النبيّ ﷺ مـا فـي الخيل مـن الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحُمُر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بَغْل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ ﷺ «الدُّلْدُل»، التي أهداها له المقوقِس، فأفتاه في الحَمِير بعموم الآيـة، وإن في الحمار مثاقيل ذرّ كثيرة؛ قاله ابن العربـيّ. وفي الموطـأ: أن مِسْكيناً استطعم عائشـة أم المؤمنيـن وبين يديها عِنَب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها. فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقالت: أتعجب! كم ترى في هذه الحَبة من مثقال ذرّة. وروى عن سعد بن أبي وَقَّاص: أنـه تصدق بتمرتيـن، فقبض السائل يـده، فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذرّ، وفي التمرتين مثاقيل ذرّ كثيرة. وروى المُطَّلب بن حَنْطَب: أن أعرابياً سمع النبيّ ﷺ يقرؤُها فقال: يا رسول الله، أمثقالُ ذرّة! قال «نعم» فقال الأعرابيّ: واسَوْأَتـاه! مِراراً: ثم قام وهو يقولهـا؛ فقال النبيّ ﷺ:

«لقد دَخَلَ قلبَ الأَعْرابيّ الإيمانُ». وقال الحسن: قَدِم صعصعة عَمّ الفرزدق[١] على النبيّ ﷺ، فلما سمع ﴿فَمَنْ يعملْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيات؛ قال: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها، حَسْبي، فقد أنتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردِيّ: ورُوِي أن صَعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة: حسبي حسبي؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا رأيته. ورَوى مَعمر عن زيد بن أسلم: أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: «عَلِّمني مما علمك الله. فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه ﴿إذا زُلزلت ـ حتى إذا بلغ ـ فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ قال: حسبي. فأخبر النبيّ ﷺ فقال: «دَعُوهُ فإنَّه قد فَقُه». ويحكى أن أعرابياً أخَّر ﴿خَيْراً يَرَهُ﴾ فقيل: قدمت وأخرت. فقال:

خذا بطن هَرشَى أو قَفاها فإنهُ ... كِلا جانبِي هَرْشَى لهنّ طرِيقُ[٢]

سـورة والعـاديات

وهي مكية؛ في قول ٱبن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنِية في قول ٱبن عباس وأنس ومالك وقتادة. وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾.

[٢] ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿والعادِياتِ ضبحا﴾ أي الأفراس تعدو. كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح. قال قتادة: تضبح إذا عدت؛ أي تحمِحم. وقال

(١) قال أبو أحمد العسكري: «وقد وهم بعضهم في صعصعة بن معاوية عم الأحنف بن قيس، فقال: صعصعة عم الفرزدق وهو غلط». والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق، وليس له عم يسمى صعصعة. راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة في ترجمة صعصعة. (٢) هرشى: ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة، يرى منها البحر، ولها طريقان، فكل من سلك واحداً منهما أفضى به إلى موضع واحد. في معجم البلدان لياقوت: خذا أنف هرشى... وفي «اللسان»: خذا جنب هرشى....

الفراء: الضَّبْح: صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن. ٱبن عباس: ليس شيء من الدواب يضْبَح غير الفرس والكلب والثعلب. وقيل: كانت تُكْعَم[١] لئلا تصهَل، فيعلم العدوّ بهم؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوّة. قال ٱبن العربي: أقسم الله بمحمدٍ ﷺ فقال: ﴿يس. والقرآنِ الحكيم﴾، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمهُون﴾[٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغُبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿والعادِيات ضَبْحا﴾ . . . الآيات الخمس. وقال أهل اللغة[٣]

وَطَعنــةٍ ذاتِ رَشــاشٍ واهِيَــهْ طَعَنْتُهـا عنـدَ صُـدُورِ العَـادِيـهْ

يعني الخيل. وقال آخر:

والعادياتُ أسابِيُّ الدماءِ بها كأنّ أعناقَها أنصاب ترجِيبِ[٤]

يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيـــل تعلـــم حيـــن تَضْـ ـبَحُ في حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وقال آخر:

لَسْـتُ بـالتُّبَّـعِ اليمـانِـيِّ إنْ لَـمْ تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِرَاقِ

وقال أهل اللغة: وأصل الضَّبْح والضُّباح للثعالب؛ فٱستعير للخيل. وهو من قول العرب: ضَبَحَتْه النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه. وقال الشاعر:

فَلَمَّـــا أَنْ تَلَهْـــوجْنَـــا شِـــواءً بـه اللَّهَبـانُ مَقهـوراً ضَبِيحـاً[٥]

وٱنضبح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلاً. وقال:

عَلِقْتُهـــا قَبْـــلَ ٱنْضِبـــاحِ لَـــوْنِـــي

---

(١) الكعام: شيء يجعل على فم البعير. (٢) آية ٧٢ سورة الحجر. (٣) قوله: «قال أهل اللغة. . .» إلى آخر البيت. هكذا ورد في جميع نسخ الأصل، وظاهر أن فيه سقطاً؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله: «قال أهل اللغة: أصله للثعلب، فاستعير للخيل. . .» الخ. على أن المؤلف أورده فيما يأتي. (٤) البيت لسلامة بن جندل. والأسابي: الطرق من الدم. وأسابي الدماء: طرائقها. والترجيب: أن تدعم الشجرة إذا كثر حملها، لئلا تتكسر أغصانها. قال ابن منظور: «فإنه شبه أعناق الخيل بالمرجب. وقيل: شبه أعناقها بالحجارة التي تذبح عليها النسائك». (٥) البيت لمضرس الأسدي. والملهوج من الشواء: الذي لم يتم نضجه. واللهبان؛ اتقاد النار واشتعالها.

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَزَع وتعب أو طمع. ونصب ﴿ضَبْحا﴾ على المصدر؛ أي والعاديات تضبحُ ضَبْحاً. والضبح[1] أيضاً الرّماد. وقال البصريون: ﴿ضَبْحاً﴾ نصب على الحال. وقيل: مصدر في موضع الحال. قال أبو عبيدة: ضَبَحَتِ الخيل ضَبْحاً مثل ضَبَعَتْ؛ وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضَّبْح والضَّبْع: بمعنى العدو والسير. وكذا قال المبرد: الضبح مدّ أضباعها في السير. وروي أن رسول الله ﷺ بعث سَرِيّة إلى أناس من بني كِنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان ٱستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قُتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخباراً للنبيّ ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم. وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ٱبنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد. والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون. وفي «الخبر»: «من لم يعرف حُرْمة فرس الغازي، ففيه شُعبة من النفاق». وقول ثان: أنها الإبل؛ قال مسلم: نازعتُ فيها عكرمة فقال عكرمة: قال ٱبن عباس هي الخيل. وقلت: قال عليّ هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك. وقال الشعبيّ: تمارى[2] عليّ وٱبن عباس في ﴿العاديات﴾، فقال عليّ: هي الإبل تعدو في الحج. وقال ٱبن عباس: هي الخيل؛ ألا تراه يقول ﴿فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تَضْبَحُ الإبل! فقال عليّ: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد؛ ثم قال له عليّ: أتفتِي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزُّبير؛ فكيف تكون العادياتِ ضبحاً! إنما العادياتُ الإبل من عَرَفَة إلى المزدلِفة، ومن المزدلِفة إلى عرفة. قال ابن عباس: فرجعت إلى قول عليّ، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدّي. ومنه قول صفِية بنت عبد المطلب:

فـلا والعـاديـاتِ غَـداة جَمْـع ... بـأيـديهـا إذا سَطَـع الغُبـار

---

(١) في «القاموس»: «والضبح بالكسر الرماد».

(٢) التماري والمماراة: المجادلة.

يعني الإبل. وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر:

رأى صاحبي في العادياتِ نَجِيبةً وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِسِ[(١)]

ومن قال هي الإبل فقوله ﴿ضبحاً﴾ بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال: ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد: الضبع مدّ أضباعها في السير. والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل. والضبع في الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس. وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يَضْبَحُ إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروى عن ابن عباس. وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضَبَح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضاً. قال تَوْبة:

ولـو أنَّ ليلَـى الأخيلِيـةَ سَلَّمَـتْ عَلَـيَّ ودونِـي تُـرْبـة[(٢)] وصفـائِـح
لَسَلَّمْـتُ تسليـمَ البشـاشـةِ أو زَقَـا إليها صَدًى من جانب القبر ضابحُ[(٣)]

زقا الصدى يزقو زُقاء[(٤)]: أي صاح. وكل زاقٍ صائح. والزَّقْية: الصيحة. ﴿فالمورِياتِ قَدْحا﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين تُورِي النار بحوافرها، وهي سنابكها؛ وروي عن ابن عباس. وعنه أيضاً: أورت بحوافرها غُبارا. وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار؛ وإنما هذا في الإبل. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿والعادياتِ ضَبْحاً. فالمُورِياتِ قَدْحاً﴾ قال قال ابن عباس: هو في القتال وهو في الحج. ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار. وأصل القَدْحِ الاستخراج؛

---

(١) في «اللسان» مادة (عدا): «وحكى الأزهري عن ابن السكيت (وإبل عادية: ترعى الخلّة ولا ترعى الحمض...) وقال: وكذلك العاديات» وساق البيت. وفي «اللسان» أيضاً مادة (رضع): «وناقة واضع وواضعة ونوق واضعات: ترعى الحمض حول الماء. وأنشد ابن بري قول الشاعر...» الخ. ولفظ «القوامس» هكذا ورد في اللسان وشرح القاموس. وبعض نسخ الأصل. وفي نسخة: «القرامس» بالراء. ولعل الصواب: «العرامس» جمع عرمس (بكسر العين): وهي الناقة الصلبة الشديدة.

(٢) في نسخة: «جندل» وهي رواية في البيت. (٣) في رواية صائح. ولا شاهد فيه.

(٤) في «اللسان»: «زقا يزقو ويزقى زقواً وزقاء وزقوا وزقيا وزقياً وزقيا.

ومنه قَدَحْت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد. واقتدحْت بالزند. واقْتَدَحْتُ المرق: غَرفته. ورَكِّى قَدُوح: تغترف باليد. والقَديح: ما يبقى في أسفل القِدر، فيغرف بجَهد. والمِقْدحة: ما تُقْدَح به النار. والقدّاحة والقدّاح: الحجر الذي يُورِي النار. يقال: وَرَى الزند (بالفتح) يَرِي وَرْياً: إذا خرجت ناره. وفيه لغة أخرى: وَرِي الزند (بالكسر) يَرِي فيهما. وقد مضى هذا في سورة ﴿الواقعة﴾[1]. و ﴿قَدْحاً﴾ انتصب بما انتصب به ﴿ضَبْحاً﴾. وقيل: هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إيراءهَا: أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم. ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حَمِيَ الوَطِيسُ. ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّما أوقَدُوا ناراً للحَرْبِ أطْفأها اللَّهُ﴾[2]. وروي معناه عن ابن عباس أيضاً، وقاله قتادة: وعن ابن عباس أيضاً، وقاله قتادة. وعن ابن عباس أيضاً: أن المراد بالمُوريات قَدْحاً: مَكْرُ الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم. والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: واللَّهِ لأمْكُرنَّ بك، ثم لأُورِيَنَّ لك. وعن ابن عباس أيضاً: هم الذين يغزُون فيُورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم. وعنه أيضاً: أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً. وكل من قرب من العدوّ يُوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدوّ كثيراً. فهذا إقسام بذلك. قال محمد بن كعب: هي النار تجمع. وقيل: هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة. وقال عكرمة: هي ألسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به، ويَظْهر بها، من إقامة الحُجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل. وروى ابن جُريج عن بعضهم قال: فالمُنجِحَات أمْراً وعملاً، كنجاح الزند إذا أورى.

قلت: هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم: فلان يُورِي زِناد الضلالة. والأوّل: الحقيقة، وأن الخيل من شِدّة عدوِها تقدح النار بحوافرها. قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار نار أبي حُباحِب، وكان أبو حُباحِب شيخاً من مُضَر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يُوقد ناراً لخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقِد نُويرةً تقِد مرّة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع ٢٢١/١٧.   (٢) آية ٦٤ سورة المائدة.

أطفأها، كراهية أن ينتفع بها أحد. فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا يُنتفع بها. وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت ناراً، فكذلك يسمونها. قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيُوفَهم ... بهنّ فَلولٌ مِن قِراع الكتائبِ
تَقُدّ السَّلُوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه ... وتُوقِد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ[١]

[٣] ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ ﴾.

الخيل تغِير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثرِ المفسرين. وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلاً، ويأتون العدوّ صبحاً؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس. ومنه قوله تعالى: ﴿فساء صَباح المُنْذَرِينَ﴾. وقيل: لعِزهم أغاروا نهاراً، و ﴿صُبْحا﴾ على هذا، أي علانية، تشبيهاً بظهور الصبح. وقال ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مِنى إلى جَمْع. والسنة ألا تَدْفع حتى تصبح؛ وقاله القُرَظِيّ. والإغارة: سرعة السير؛ ومنه قولهم: أشرِقْ ثَبِير[٣] كيما نُغِير.

[٤] ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ ﴾.

أي غباراً؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدّة العدو في المكان الذي أغارت به. قال عبد الله بن رواحة:

عـدِمْـتُ بُنَيّتِـي إن لـم تَـرَوْهـا ... تُثِيـر النَّقْـعَ مـن كَنَفَـيْ كَـداءِ[٤]

والكناية في ﴿به﴾ ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا عُلِم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر له ذكر بالتصريح؛ كما قال ﴿حَتَّى توارت بِالحِجابِ﴾[٥]. وقيل: ﴿فأثرن بِهِ﴾،

(١) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق، قرية باليمن. والصفاح: جمع صفاحة، وهي الحجر العريض.
(٢) آية ١٧٧ سورة الصافات.
(٣) ثبير: جبل بقرب مكة، وهو على يمين الذاهب إلى عرفة. أي ادخل في الشروق، وهو ضوء الشمس.
(٤) كداء (بفتح الكاف ومدّ الدال): جبل بمكة. والهاء في تروها: راجعة إلى الخيل المفهومة من السياق. ورواية صدر البيت في الشوكاني ٥/٤٦٩: (عدمنا خيلنا...).
(٥) آية ٣٢ سورة ص

أي بالعَدْو ﴿نَقْعاً﴾. وقد تقدّم ذكر العَدْو. وقيل: النقع: ما بين مزدلِفة إلى مِنى؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ. وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع. وفي «الصحاح» النقع: الغبار، والجمع: نِقاع. والنقع: محبِس الماء، وكذلك ما ٱجتمع في البئر منه. وفي الحديث: أنه نهى أن يمنع نقع البئر. والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع نِقاع وأنقع؛ مثل بحر وبِحار وأبحر.

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغِيرة أن يسفِكن من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبي سليمان، ما لَمْ يكن نَقْع ولا لَقْلَقة. قال أبو عبيد: يعني بالنقع رفع الصوت؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم؛ ومنه قول لبيد:

فمتــى ينقَــعْ صُــراخٌ صــادِق يُحْلِبــوهــا ذاتَ جَــرْس وزَجَــل

ويروى ﴿يَحْلِبوها﴾ أيضاً. يقول: متى سمعوا صراخاً أحلبوا الحرب، أي جمعوا لها. وقوله ﴿يَنْقَع صُراخ﴾: يعني رفع الصوت. وقال الكسائي: قوله «نقع ولا لقلقة» النقع: صنعة الطعام؛ يعني في المَأْتم. يقال منه: نقعْت أنقَع نَقْعا. قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النَّقيعة؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم. وقال بعضهم: يريد عَمر بالنقع: وضع التراب على الرأس: يذهب إلى أن النقع هو الغبار. ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهنّ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام. فقال: يَسْفِكْنَ من دموعهنّ وهُنّ جلوس. قال بعضهم: النقع: شق الجيوب؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأمّا اللقلقة: فشِدّة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافاً. وقرأ أبو حَيْوة ﴿فأَثَّرْنَ﴾ بالتشديد؛ أي أرت آثار ذلك. ومن خفف فهو من أثار: إذا حرّك؛ ومنه ﴿وأثارُوا الأَرضَ﴾[1].

(١) آية ٩ سورة الروم.

[٥] ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾.

﴿جَمْعاً﴾ مفعول بـ ﴿وَسَطْن﴾؛ أي فوسطْن بركبانهن العدوّ؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم. وقال ٱبن مسعود: ﴿فَوَسَطْن بِهِ جمعا﴾: يعني مُزْدلِفة؛ وسميت جمعاً لاجتماع الناس. ويقال: وسَطْتُ القوم أَسِطُهم وسْطاً وسِطَةً؛ أي صِرت وَسْطَهم. وقرأ علي رضي الله عنه ﴿فَوَسَّطْن﴾ بالتشديد، وهي قراءة قتادة وٱبنِ مسعود وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسَّطْت القومَ (بالتشديد والتخفيف) وتَوَسَّطتُهُمْ: بمعنى واحد. وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسمين. والتخفيف: صِرْن في وسط الجمع؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع.

[٦] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾.

هذا جواب القسم؛ أي طبع الإنسان على كفران النعمة. قال ٱبن عباس: ﴿لَكَنُودٌ﴾ لكفور جَحُود لنعم الله. وكذلك قال الحسن. وقال: يذكر المصائب وينسى النعم. أخذه الشاعر فنظمه:

يـا أَيُّهَـا الظـالـمُ فـي فِعْلِـهِ والظُّلْم مردود على مَنْ ظَلَمْ
إلـى متـى أَنْـتَ وَحَتَّـى متـى تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم!

وروى أبو أُمامة الباهِليّ قال قال رسول الله ﷺ: «الكَنُود، هو الذي يأكل وَحْدَه، ويمنع رِفْده[١]، ويضرب عَبْدَه». وروى ٱبن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بشرارِكُمْ؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: «من نَزَلَ وحدَه، ومنع رِفْدَه، وجَلَد عبدَه». خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول. وقد روي عن ٱبن عباس أيضاً أنه قال: الكَنود بلسان كِندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور. وبلسان كِنانة: البخيل السَّيّء المَلَكة؛ وقاله مقاتل. وقال الشاعر:

كَنود لِنَعماء الرجالِ ومَنْ يكن كَنـوداً لنعمـاء الـرجـال يُبَعَّـدِ

---

(١) الرفد (بكسر الراء): العطاء والصلة.

أي كفور. ثم قيل: هو الذي يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحد للحق. وقيل: إنما سميت كِنْدَة كِندة، لأنها جحدتْ أباها. وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ الشاعر:

دعِ البخلاءَ إن شمخُوا وصَدُّوا وذِكْـرَى بُخْـلِ غـانيـةٍ كَنـودِ

وقيل: الكَنود: من كَند إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر. ويقال: كَنَد الحبلَ: إذا قطعه. قال الأعشى:

أمِيطِي[1] تُمِيطي بصُلْبِ الفؤادِ وَصُـولِ حِبـالٍ وكَنَّـادِهـا

فهذا يدل على القطع. ويقال: كَنَدَ يكْنِد كُنوداً: أي كفر النعمة وجحدها، فهو كنود. وامرأة كنود أيضاً، وكُنُدٌ مِثله. قال الأعشى:

أحدِث لها تحدِث لوصلك إنها كُنُد لوصلِ الزائر المعتادِ[2]

أي كفور للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه. وأنشد لكثير[3]:

أحدِثْ لها تُحْدِثْ لوصلك إنها كُنُـدٌ لِـوَصـل الـزائـر المعتـاد

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نِعم الله في معاصي الله. وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه. وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعِم. وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع. وقيل: هو الحقود الحسود. وقيل: هو الجهول لقدره. وفي الحكمة: من جهلِ قدره: هتك سِتره.

---

(١) ماط الأذى ميطاً. وأماطه: نحاه ودفنه. يقول إن تنحيت عني، باني صلب الفؤاد، وصول لمن وصل، كفور لمن كفر. ورواية صدر البيت في «اللسان». فميطي أي تنحي وأذهبي.

(٢) المعتاد: الذي يعود مرة بعد أخرى.

(٣) تقدّم أن هذا البيت للأعشى، وهو في ديوان، ولم نجده في ديوان كثير الذي بين أيدينا.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود. وقد فسر النبيّ ﷺ معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

[٧] ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾.

أي وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ٱبن آدم لشهيد. كذا روى منصور عن مجاهد؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ٱبن عباس. وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: ﴿وإنه﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ ورُوِي عن مجاهد أيضاً.

[٨] ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّه﴾ أي الإنسان من غير خلاف. ﴿لِحُبِّ الخَيرِ﴾ أي المال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾[١]. وقال عدِيّ:

ماذَا تُرَجِّي النفوسُ من طلبِ الـ ـخَيْر وحُبُّ الحياةِ كارِبُها[٢]

﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي لقوِيّ في حبه للمال. وقيل: ﴿لشديد﴾ لبخيل. ويقال للبخيل: شديد ومتشدّد. قال طَرَفة:

أَرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

يقال: اعتامه وٱعتماه؛ أي ٱختاره. والفاحِشُ: البخيل أيضاً. ومنه قوله تعالى: ﴿ويأمُرُكُمْ بِالفَحشاءِ﴾[٣] أي البخل. قال ٱبن زيد: سمى الله المال خيراً؛ وعسى أن يكون شراً وحراماً[٤]؛ ولكن الناس يَعُدّونه خيراً، فسمَّاه الله خيراً لذلك. وسمى الجهاد سُوءاً، فقال: ﴿فٱنْقَلَبُوا بِنِعْمةٍ مِنَ اللَّهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[٥] على ما يسميه الناس. قال الفرّاء: نظم الآية أن يقال: وإنه لَشديد الحبّ للخير؛ فلما تقدّم الحب قال: شديد، وحذف من آخره

---

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة.

(٢) كاربها: غامها؛ من كربه الأمر: اشتدّ عليه.

(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة.

(٤) في بعض نسخ الأصل: «شراً وخيراً».

(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران.

ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقوله تعالى: ﴿فِي يومٍ عاصِفٍ﴾[١]، والعُصُوف: للريح لا الأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم، طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصِف الريح.

[٩] ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾.

[١٠] ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾.

[١١] ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أفلاَ يَعْلَمُ﴾ أي ابن آدم ﴿إذا بُعْثِرَ﴾ أي أثير وقُلِب وبُحِث، فأُخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بَعْثَرْتُ المتاع: جعلت أسفلهُ أعلاه. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يُبْعَثون. الفرّاء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: ﴿بُحْثِر﴾ بالحاء مكان العين؛ وحكاه الماورديّ عن ابن مسعود، وهما بمعنى. ﴿وحُصِّل ما في الصدورِ﴾ أي مُيز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أُبرِز. وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم ﴿وحَصَل﴾ بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي ظهر. ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم. وقوله: ﴿إذا بُعثِر﴾ العامل في ﴿إذا﴾: ﴿بُعْثِر﴾، ولا يعمل فيه ﴿يَعْلَمُ﴾؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأن ما بعد ﴿إنّ﴾ لا يعمل فيما قبلها. والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ﴿خَبِيرٌ﴾، وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء. وإنما دخلت في الخبر لدخول ﴿أَنّ﴾ على المبتدأ. ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو، فجرى على لسانه: ﴿أَنَّ ربهم﴾ بفتح الألف، ثم استدركها فقال: ﴿خَبير﴾ بغير لام. ولولا اللام لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السَّمَّال ﴿أَنَّ رَبَّهمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم.

تفسير سورة القارعة

وهي مكية بإجماع. وهي عشر آيات(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾.

[٢] ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي القيامة والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين. وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها. وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قَرَعَتْهُمُ القارعة، وفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع. قال ابن أحمر:

وقــارعــةٍ مِــنَ الأيــام لَــوْلاَ ... سبيلهم لزاحت(٢) عنك حِينا

وقال آخر:

مَتَى تَقْرَعْ بمَرْوتِكُم(٣) نَسُؤْكُمْ ... ولـم تُـوقَـدْ لَنَا في القِـدْرِ نَارُ

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صنعوا قارِعة﴾(٤) وهي الشديدة من شدائد الدهر.

قوله تعالى: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ استفهام؛ أي أيّ شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿وما أدراك ما القارِعة﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما قال: «الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة» على ما تقدّم(٥).

---

(١) في كتاب «روح المعاني»: وآيها إحدى عشرة آية في الكوفي، وعشر في الحجازي، وثمان في البصري والشامي.

(٢) في بعض النسخ: «لراحت» بالراء.

(٣) المروة: حجر يقدح منه النار.

(٤) آية ٣١ سورة الرعد. (٥) راجع ١٨/٢٥٧.

[٤] ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾.

﴿يوم﴾ منصوب على الظرف، تقديره: تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج. الواحدة فراشة، وقاله أبو عبيدة. وقال الفراء: إنه الهَمَج الطائر، من بَعوض وغيره؛ ومنه الجراد. ويقال: هو أطيش من فراشة. وقال:

طُوَيِّشٌ مِنْ نفرٍ أَطْياشِ   أطيشُ من طائرة الفَراشِ

وقال آخر:

وقدْ كانَ أقوامٌ رددتَ قُلُوبَهُمْ   إليهم[(١)] وكانوا كالفَراشِ من الجَهْلِ

وفي «صحيح مسلم» عن جابر، قال قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلُكُمْ كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخُذٌ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتمْ تُفْلِتونَ مِنْ يَديٍ». وفي الباب عن أبي هريرة. والمبثوث المتفرق. وقال في موضع آخر: ﴿كأنَّهُمْ جراد منتشِر﴾[(٢)]. فأوّل حالهم كالفَراش لا وجه له، يَتَحيَّرُ في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجهاً تقصده. والمبثوث: المتفرق المنتشر. وإنما ذكر على اللفظ: كقوله تعالى: ﴿أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[(٣)] ولو قال المبثوثة [فهو][(٤)] كقوله تعالى: ﴿أعجاز نخلٍ خاوِيَةٍ﴾[(٥)]. وقال ابن عباس والفراء: ﴿كالفراشِ المبثوثِ﴾ كغَوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً. كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا.

[٥] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

أي الصوف الذي يُنفش باليد، أي تصير هباء وتزول؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿هَبَاءً مُنْبَثاً﴾[(٦)]. وأهل اللغة يقولون: العِهن الصوف المصبوغ. وقد مضى في سورة ﴿سألَ سائلٌ﴾[(٧)].

---

(١) في بعض النسخ: «عليهم». (٢) آية ٧ سورة القمر. (٣) آية ٢٠ سورة القمر.
(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضيها السياق. (٥) آية ٧ سورة الحاقة.
(٦) آية ٦ سورة الواقعة. (٧) راجع ١٨/ ٢٨٤.

[٦] ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾.

[٧] ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

[٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾.

[٩] ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾. [١١] ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

قد تقدم القول في المِيزان في ﴿الأعراف والكهف والأنبياء﴾[١]. وأن له كِفَّةً ولساناً توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات. ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزِن أعمال بني آدم، فعبَّر عنه بلفظ الجمع. وقيل: موازين، كما قال:

فلِكــلِّ حــادِثــةٍ لَهَــا مِيــزانُ[٢]

وقد ذكرناه فيما تقدم[٣]. وذكرناه أيضاً في كتاب «التذكِرة» وقيل: إن الموازين الحُجَج والدلائل، قاله عبد العزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قَدْ كُنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ عِنـدِي لكُـلِّ مخاصِـمٍ مِيـزانُـهُ

ومعنى ﴿عِيشةٍ راضِيةٍ﴾ أي عيش مَرْضيّ، يرضاه صاحبه. وقيل: ﴿عشيةٍ راضِيةٍ﴾ أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها. فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد. فالعيشة كلمة تجمع النِّعَم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفُرُش المرفوعة، وٱرتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولِي الله ٱتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضاً من الارتفاع، فإذا ٱشتهى ولِيُّ الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولِيّ الله قاعداً وقائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿قُطُوفُها دَانِيةٌ﴾[٤]. وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، عُلُوًّا وسُفْلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرونها تَفْجِيراً﴾[٥]. فيروى في الخبر «إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه». فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي

---

(١) راجع ٧/١٦٥ وما بعدها. و ١١/٦٦ و ٢٩٣. (٢) صدر البيت:

ملــك تقــوم الحــادثــات لعــدلــه

(٣) راجع ١١/٢٩٣. (٤) آية ٢٣ سورة الحاقة. (٥) آية ٦ سورة الإنسان.

فاعلة للرضا، وهي أنذلت وأنقادت بذلاً وسماحة. ومعنى ﴿فأمه هاوِية﴾ يعني جَهَنَّم. وسماها أُمًّا، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، قاله ٱبن زيد. ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت:

فـالأرضُ مَعْقِلنا وكـانـتْ أُمَّنـا ... فيهـا مَقـابِـرُنـا وفيهـا نُـولَـدُ

وسميت النار هاوية، لأنه يهوِي فيها مع بعدِ قعرها. ويروى أن الهاوية ٱسم الباب الأسفل من النار. وقال قتادة: معنى ﴿فأمه هاوِية﴾ فمصيره إلى النار. عكرمة: لأنه يهوى فيها على أم رأسه. الأخفش: ﴿أمه﴾: مستقرّه، والمعنى متقارب. وقال الشاعر:

يـا عمـرُو لـو نـالتـك أرمـاحُنـا ... كنـتَ كمـن تهـوِي بـه الهـاوِيَـهْ

والهاوية: المَهْوَاة. وتقول: هَوَتْ أمّه، فهي هاوية، أي ثاكلة، قال كعب بن سعد الغَنَوِيّ:

هَوَتْ أُمُّه[1] ما يبعثُ الصبحُ غادياً ... ومـاذا يـؤدِّي الليـلُ حيـن يَئُـوبُ

والمَهْوَى والمَهْوَاة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك. وتهاوَى القوم في المَهْواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيهْ﴾ الأصل «ما هي» فدخلت الهاء للسكت. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن مُحيصِن ﴿مَا هِيَ نارٌ﴾ بغير هاء في الوصل، ووقفوا بها. وقد مضى في سورة ﴿الحاقة﴾[2] بيانه. ﴿نار حامِية﴾ أي شديدة الحرارة. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة: أن النبيّ ﷺ قال: «نارُكم هذه التي يُوقِد ٱبنُ آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله. قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرّها». وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه، لأنه وضع فيه الحق، وحُقَّ لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خف ميزان من خف ميزانه، لأَنَّه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً. وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أن الموتى يَسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله، فيقول ذلك مات قبلي، أما مرَّ بكم؟ فيقولون لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذُهِب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأمّ، وبئست المُرَبية». وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة»، والحمد لله.

---

(١) البيت في «اللسان»: (أمم). (٢) راجع ١٨/٢٦٩.

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية، في قول جميع المفسرين. وروى البخارِي أنها مدنية. وهي ثماني آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ①﴾.

[٢] ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿ألهاكم﴾ شغلكم. قال:

فَـأَلْهَيْتُهـا عـن ذِي تَمـائـم مُغْيـل[١]

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله، حتى مِتم ودفنتم في المقابر. وقيل: ﴿أَلْهَاكُمْ﴾: أنساكم. ﴿التكاثُرُ﴾ أي من الأموال والأولاد، قاله ابن عباس والحسن. وقال قتادة: أي التفاخر بالقبائل والعشائر. وقال الضحاك: أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة. يقال: لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهَى لهِيًّا ولِهْيَاناً: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه. وألهاه: أي شغله. ولهَّاه به تلهية أي عَلَّله. والتكاثر: المكاثرة. قال مقاتل وقتادة وغيرهما: نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالاً. وقال ابن زيد: نزلت في فخِذ من الأنصار. وقال ابن عباس ومقاتل والكلبيّ: نزلت في حَيَّيْن من قريش: بني عبد مَناف، وبني سَهْم، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كل حيّ منهم نحن أكثر سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، وأكثر عائذاً، فكَثَرَ بنو عبد مناف سهماً. ثم تكاثروا بالأموات، فكَثَرَتْهُمْ سَهم، فنزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التكاثرُ﴾ بأحيائكم فلم ترضَوا

---

(١) هذا عجز بيت من معلقة امرىء القيس، وصدره:

فمثلـك حبلـى قـد طـرقـت ومـرضـع

ويروى: «تمام محول»، أي قد أتى عليه الحول. و «المغيل»: الذي تؤتى أمه وهي ترضعه.

﴿حتى زرتم المقابر﴾ مفتخرين بالأموات. وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان؛ وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كُلُّهم. وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار. وعن شيبان عن قتادة قال: نزلتْ في أهل الكتاب.

قلت: الآية تَعُمّ جميع ما ذكر وغيره. وفي «صحيح مسلم» عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التكَاثُر﴾ قال: «يقولُ ٱبنُ آدم: مالي مالي! وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لبستَ فأبلَيتَ، أو تصدّقْتَ فأمضيت [وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس][1]. وروى البخاريّ عن ٱبن شهاب: أخبرني أَنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولَنْ يَمْلأ فاه إلاّ الترابُ، ويتوبُ اللَّهُ على من تابَ». قال ثابت عن أنس عن أبيّ: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾. قال ٱبن العربيّ: وهذا نصّ صحيح مليح، غاب عن أهل التفسير فجهِلوا وجَهّلوا، والحمد لله على المعرفة. وقال ٱبن عباس: قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾ قال: «تكاثُرُ الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدّها في الأوعية».

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿حتى زُرْتُمُ المَقابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم في المقابر زوّاراً، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار. يقال لمن مات: قد زار قبره. وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات؛ على ما تقدّم. وقيل: هذا وعيد. أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فترَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿المَقَابِرِ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة (بفتح الباء وضمها). والقبور: جمع القبر؛ قال:

(١) ما بين المربعين من رواية أبي هريرة في سند آخر، لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم).

أرَى أهْلَ القُصُورِ إذا أُمِيتُوا ... بَنَوْا فوقَ المقابرِ بالصُّخورِ
أبَوْا إلا مُباهاةً وفَخْرًا ... على الفقراءِ حتّى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر)؛ قال:

لكُلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائهم ... فَهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ[١]

وهو المَقْبُرِيّ والمقْبَرِيّ: لأبي سعيد المقبُرِيّ[٢]؛ وكان يسكن المقابر. وقَبَرت المَيتَ أقْبِرهُ وأقبُرُهُ قبراً، أي دفنته. وأقبرته أي أمرت بأن يقبر. وقد مضى في سورة ﴿عَبَس﴾ القول فيه[٣]. والحمد لله.

الرابعة ـ لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبيّ ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكِّر الآخرة» رواه ابن مسعود؛ أخرجه ابن ماجه. وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «فإنها تذكر الموت». وفي الترمذيّ عن بُرَيْدة: «فإنها تذكِّر الآخرة». قال: هذا حديث حسن صحيح. وفيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور. قال: وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت. قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح. وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبيّ ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رَخَّص دخل في رخصته الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صَبْرهن، وكثرة جَزَعِهِنّ.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء. أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك. وجائز لجميعهن. ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: «زوروا القبور» عاماً. وأمّا مَوْضِعٌ أو وقتٌ يُخْشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز.

---

(١) ذكر البيت صاحب تاج العروس مع بيت بعده، (قبر) ونسبهما إلى عبد الله بن ثعلبة الحنفي.
(٢) قال ابن قتيبة في «المعارف»: أبو سعيد المقبري: اسمه كيسان روى عن عمر. وتوفي سنة مئة.
(٣) راجع ١٩/٢١٧.

فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور. والله أعلم.

الخامسة - قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم[١] اللذات، ومفرق الجماعات، ومُوتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرِين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتُضِر، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعايَنةٌ ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأوّل؛ قال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة». رواه ابن عباس. فأما الاعتبار بحال المحتَضَرِين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدّب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك هاهنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمّل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودَرَجَ من

---

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهد فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبقى من لذائذ الدنيا شيئاً.

أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف أنقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وأفترقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشَمِل ذُلُّ اليتم أولادهم، وأقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم. وليتذكر تردّدهم[1] في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وأنخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب. وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم، وليُحضر بقلبه ذِكر من كان متردّدا في أغراضه، وكيف تهدّمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوِّلَه وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدودلسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله. وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

[٣] ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفرّاء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿كلا سوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: وعِيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد. ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفرّاء. وقال أبن عباس: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين. وقيل: ﴿كلا سوف تعلمون﴾ عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق. وروى زِرُّ بنُ حُبَيْشٍ عن عليّ رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور. وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ

---

(١) في نسخة: «تزوّدهم المآب».

تعلمون﴾: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمون﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم مُنْكَر ونكِير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حَسْبَمَا أخبَر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يُسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له في قبره، من كرامة وهوانٍ. وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة. وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله. وقيل: ﴿كَلَّا سوف تعلمون﴾ عند النشور أنكم مبعوثون ﴿ثمّ كلا سوف تعلمون﴾ في القيامة أنكم معذبون. وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر، وسؤال وعَرْض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب «التذكرة، بأحوال الموتى وأمور الآخرة». وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون﴾ يعني الكفار، ثم كَلَّا سَوْفَ تعلمون: قال المؤمنون. وكذلك كان يقرؤها، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

[٥] ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقينِ﴾ أعاد ﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وتنبيه، لأنه عَقَّب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب. وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليقينِ﴾[١]. وقيل: اليقين هاهنا: الموت؛ قاله قتادة. وعنه أيضاً: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث. وجواب ﴿لو﴾ محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللُّحود عن جُثَثكم، كيف يكون حَشْركم؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا. وقيل: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمونَ عِلْمَ اليَقِينِ﴾ أي لو[٢] قد تطايرتِ الصحف، فشقِيٌّ وسعيدٌ.

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة. (٢) كذا في نسخ الأصل.

وقيل: إن ﴿كَلَّا﴾ في هذه المواضع الثلاثة بمعنى ﴿أَلَا﴾ قاله ابن أبي حاتم، وقال الفرّاء: هي بمعنى ﴿حَقًّا﴾ وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى(١).

[٦] ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾.

[٧] ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر. وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة. والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار. وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿وإِنْ مِنْكُمْ إلاَّ وارِدُها﴾(٢)، فَهُيِّيءَ للكفار دار، وللمؤمنين ممر، وفي «الصحيح»: «فيمرّ أوّلهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير. . .» الحديث. وقد مضى في سورة ﴿مريم﴾(٣). وقرأ الكسائيّ وابن عامر ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها. وعلى فتح التاء؛ هي قراءة الجماعة؛ أي لتَرون الجحيم بأبصاركم على البعد. ﴿ثم لَترونّها عين اليقِينِ﴾ أي مشاهدة. وقيل: هو إخبار عن دوام مُقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة. والخطاب على هذا للكفار. وقيل: معنى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلمَ اليقِينِ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا، علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحِيمَ﴾ بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تَتَصَوَّر لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها. ﴿ثم لَترونّها عينَ اليقِينِ﴾: أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك. ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يَومَئِذٍ عن النَّعِيمِ﴾: في موقف السؤال والعرض.

[٨] ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عنِ النعِيم﴾ روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: «ما أَخْرَجَكما من بُيوتِكما هَذِه الساعةَ»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا

(١) راجع ١١/١٤٧ فما بعدها. (٢) آية ٧١ سورة مريم. (٣) راجع ١١/١٣٧.

والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما؛ قُوما» فقاما معه؛ فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مَرْحَباً وأهْلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟ قالت: يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاريّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحِبيه، ثم قال: الحمد لله! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافا مني. قال: فانطلق، فجاءهم بِعِذْقٍ فيه بُسْر وتمر ورُطَب، فقال: كلوا من هذه. وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياكَ والحَلُوبَ» فذبح لهم؛ فأكَلُوا من الشَّاة، ومن ذلك العِذق، وشربوا؛ فلما أن شبِعوا ورَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليوم، يومَ القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». خرجه الترمذيّ، وقال [فيه]: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ بارد، ورُطَب طَيِّب، وماءٌ بارد» وكَنَّى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التَّيهان. وذكر قصته.

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاريّ مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم. وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيْهان:

فَلَمْ أرَ كالإسلام عِزا لأُمَّةٍ ... ولا مِثلَ أضيافِ الإراشيّ[1] مَعْشَرَا
نبيّ وصِدِّيقٌ وفاروق أمّةٍ ... وخير بني[2] حوّاء فرّعا وعُنْصُرا
فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ ... وكان قضاء الله قَدْرا[3] مُقَدَّرَا
إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بِجودِهِ ... شُموسَ الضُّحَى جودا ومجدا ومَفخَرا
وفارِسِ خلقِ الله في كل غارةٍ ... إذا لبِس القومُ الحديدَ المُسَمَّرَا
فَفَدَّى وحَيّا ثم أدْنَى قِراهُمُ ... فلَمْ يَقْرِهِمْ إلاّ سَمِينا مُتَمَّرَا[4]

(١) .كذا في جميع نسخ الأصل.
(٢) في نسخة من الأصل: «وخير نبي جاء».
(٣) في نسخة من الأصل: «أمرا».
(٤) المقطع.

وقد ذكر أبو نعيم الحافظ، عن أبي عِسِيب مولى رسولِ الله ﷺ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلا، فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه فٱنطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أطعمنا بُسْرا» فجاء بعِذْق، فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة» قال: وأخذ عمر العِذْق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ؛ قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم إلا من ثلاث: كِسرة يَسُدّ بها جَوْعَته، أو ثوب يستر به عَوْرته، أو جُحْرٍ يأوى فيه من الحرّ والقُرّ».

وٱختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها ـ الأمن والصحة؛ قاله ٱبن مسعود. **الثاني** ـ الصحة والفراغ؛ قاله سعيد بن جبير. وفي البخاريّ عنه عليه السلام: «نعمتان[١] مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». **الثالث** ـ الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله ٱبن عباس. وفي التنزيل: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أُولئِك كان[٢] عنه مسؤولا﴾ وفي «الصحيح» عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً، ومالاً وولداً...»، الحديث. خرجه الترمذيّ وقال فيه: حديث حسن صحيح. **الرابع** ـ ملاذ المأكول والمشروب؛ قاله جابر بن عبد الله الأنصاري. وحديث أبي هريرة يدل عليه. **الخامس** ـ أنه الغداء والعشاء؛ قاله الحسن. **السادس** ـ قول مكحول الشامي ـ: أنه شِبَع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، وٱعتدال الخُلق، ولذة النوم. ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿لَتُسْأَلُنّ يومئذٍ عَنِ النعِيم﴾: يعني عن شبع البطون...». فذكره. ذكره الماوردي، وقال: وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن

---

(١) أي ذو خسران فيهما. والنعمة: ما يتنعم به الإنسان ويستلذه. والغبن: أن يشتري بأضعاف الثمن. أو يبيع بدون ثمن المثل، فمن صح بدنه، وتفرغ من الأشغال العائقة، ولم يسع لصلاح آخرته، فهو كالمغبون في البيع. والمقصود: بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ، بل يصرفونهما في غير محالهما. (عن شرح سنن ابن ماجه).

(٢) آية ٣٦ سورة الإسراء.

تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية. وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد رُوي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيتَ أكلةً أكلتُها معك في بيت أبي الهيثم بن التَّيْهان، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذَنَّب[١]، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه السلام: «ذلك للكُفار، ثم قرأ: ﴿وهل يُجازَى إلا الكفور﴾»[٢]. ذكره القشيريّ أبو نصر. وقال الحسن: لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسْأَلون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر وسؤال المؤمن سؤال تَشْريف، لأنه شَكَر. وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم. وقد ذكر الفِرْيابي قال: حدّثنا ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ثم لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عنِ النَّعِيم﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا. وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى لَيُعَدِّد نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوّجكها، فيسميها باسمها، فزوجتكها». وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثم لَتُسْأَلُنّ يومئذٍ عنِ النعِيم﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسْأل؟ فإنما هما الأسودان[٣] والعدوّ حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. قال: «إن ذلك سيكون». وعنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل ما يسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبد ـ أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُروِيكَ من الماء البارد» قال: حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله». والجاه من نعيم الدنيا لا محالة. وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس. وهو القول السابع. وقيل: النوم مع الأمن والعافية. وقال سفيان بن عيينة: إن ما سَدَّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يُسأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يُسأل عن النَّعيم. قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة. فقال له: ﴿إنّ لك ألاَّ تجوع فِيها ولا تَعْرَى.

(١) أي بدأ فيه الإرطاب. (٢) آية ١٧ سورة سبأ، وهذه قراءة نافع.
(٣) الأسودان: التمر والماء.

وأنَّكَ لا تَظمَأُ فِيها[١] ولاَ تضْحَى﴾. فكانت هذه الأشياء الأربعة ـ ما يُسدّ به الجوع، وما يُدفع به العطش، وما يَسْتَكِنُّ فيه من الحر، ويَسْتُر به عَورته ـ لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بدّ له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبد لباسا يواري سوأته، وطعاما يقيم صُلْبه، ومكانا يُكنه من الحرّ والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه السلام: «ليس لابن آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز والمَاء» خرجه الترمذيّ. وقال النضر بن شُميل: جِلف الخبز: ليس معه إدام. وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ. وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رسولاً مِن أنفسِهِم﴾[٢]. وقال الحسن أيضاً والمفضَّل: هو تخفيف الشرائع، وتيسير القرآن، قال الله تعالى: ﴿ومَا جَعَلَ عَلَيكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذكرِ فهل مِن مُدَّكِرٍ﴾[٤].

قلت: وكل هذه نعِم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر. والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم.

تفسير سورة «والعصر»

وهي مكية. وقال قتادة مدنية؛ وروي عن ابن عباس. وهي ثلاث آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿وَالْعَصْرِ ①﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿والعصرِ﴾ أي الدهر؛ قاله ابن عباس وغيره. فالعصر مِثل الدهر؛ ومنه قول الشاعر:

سَبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبحرُ الهَوَى غَمْرُ ... ويَوْمُ الهَوَى شَهْر وَشَهْرُ الهَوَى دَهْرُ

(١) آية ١١٨، ١١٩ سورة طه.
(٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران.
(٣) آية ٧٨ سورة الحج.
(٤) آية ١٧ سورة القمر.

أيّ عصرٍ أقسم الله به عز وجلّ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها، وما فيها من الدلالة على الصانع. وقيل: العصر: الليل والنهار. قال حُميد بن ثور:

وَلَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ: يَومٌ ولَيلةٌ إذا طَلبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضاً: الغداة والعشي. قال:

وأَمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلّني ويرضى بِنِصفِ الدَّينِ والأنفُ راغِمُ

يقول: إذا جاءني أوّل النهار وعدته آخره. وقيل: إنه العشيّ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة. ومنه قول الشاعر:

تَرَوَّحْ بِنا يا عمرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ وفي الرَّوْحَةِ الأُولَى الغنيمة والأَجْرُ

وعن قتادة أيضاً: هو آخر ساعة من ساعات النهار. وقيل: هو قَسَم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل. يقال: أُذِّن للعصر؛ أي لصلاة العصر. وصُلِّيت العصر؛ أي صلاة العصر. وفي الخبر الصحيح «الصلاةُ الوسْطَى: صلاة العصر». وقد مضى في سورة ﴿البقرة﴾[1] بيانه. وقيل: هو قسم بعصر النبيّ ﷺ، لفضله بتجديد النبوّة فيه. وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية ـ قال مالك: من حلَف ألاّ يكلم رجلاً عَصْرا: لم يكلمه سنة. قال ابن العربيّ: «إنما حمل مالك يمينَ الحالف ألا يكلم امرأ عصرا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان. وقال الشافعيّ: يَبَرُّ بساعة، إلا أن تكون له نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربياً، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِل منه، إلا أن يكون الأقل، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر. والله أعلم».

[٢] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾.

هذا جواب القسم. والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح. وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود

(١) راجع ٣/ ٢١٠.

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزّى، والأسود بن عبد يغوث. وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس. ﴿لفِي خُسْرٍ﴾: لفي غَبْن. وقال الأخفش: هَلَكَةٍ. الفرّاء: عقوبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وكانَ عاقِبةُ أَمْرِها[1] خُسْراً﴾. ابن زيد: لفي شر، وقيل: لفي نقص؛ المعنى متقارب. وروي عن سلام ﴿والعصر﴾ بكسر الصاد. وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفيّ ﴿خُسُرٍ﴾ بضم السين. وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم. والوجه فيهما الاتباع. ويقال: خُسْر وخُسُر؛ مثل عُسْر وعُسُر. وكان عليّ يقرؤها ﴿والْعَصْرِ ونَوائِبِ الدَّهْر، إنّ الإنسان لفى خُسْر. وإنه فيه إلى آخر الدهر﴾. وقال إبراهيم: إن الإنسان إذا عُمِّرَ في الدنيا وهَرِم، لفي نقص وضعف وتراجع؛ إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تقويم، ثمّ رَدَدْناه أَسْفلَ سافِلِين﴾. قال: وقراءتنا ﴿والعصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ، وإنَّه في آخر الدهر﴾. والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف. وقد مضى الردّ في مقدّمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى؛ فتأمّله هناك[2].

[٣] ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استثناء من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وعَمِلوا الصالِحاتِ﴾ أي أدّوا الفرائض المفترضة عليهم؛ وهم أصحاب رسول الله ﷺ. قال أبيّ بن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿والعصر﴾ ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: «﴿والعَصْر﴾ قَسَم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار: ﴿إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: أبو جهل ﴿إلا الذِينَ آمنوا﴾: أبو بكر، ﴿وعمِلوا الصَّالحاتِ﴾ عمر. ﴿وتواصَوْا بِالحَقِّ﴾ عثمان ﴿وتواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عليّ»؛ رضي الله عنهم أجمعين. وهكذا خطب

(١) آية ٩ سورة الطلاق.

(٢) راجع ١/ ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة.

ٱبن عباس على المنبر موقوفاً عليه. ومعنى ﴿وتَواصَوْا﴾ أي تحابُّوا؛ أوصى بعضهم بعضاً؛ وحث بعضهم بعضاً. ﴿بِالحَقّ﴾ أي بالتوحيد؛ كذا روى الضحاك عن ٱبن عباس. قال قتادة: ﴿بِالحقِّ﴾ أي القرآن. وقال السدّي: الحق هنا هو الله عز وجل. ﴿وتواصَوْا بالصبرِ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه. وقد تقدم[١]. والله أعلم.

تفسير سورة الهمزة

مكية بإجماع. وهي تسع آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾.

قد تقدّم القول في ﴿الويل﴾ في غير موضع[٢]، ومعناه الخزي والعذاب والهَلَكة. وقيل: وادٍ في جهنم. ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال ٱبن عباس: هم المشّاءون بالنميمة، المفسدون[٣] بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب؛ فعلى هذا هما بمعنى. وقال النبيّ ﷺ: «شِرار عبادِ الله تعالى المَشَّاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب». وعن ٱبن عباس أن الهُمَزَة: القَتّات، واللُّمزة: العياب. وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رَباح: الهمزة: الذي يغتاب ويَطْعُن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه مِن خلفه إذا غاب؛ ومنه قول حسان:

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بذُل نفسٍ ... بِقافِيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ[٤]

---

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء.

(٢) راجع ٢/٧ طبعة ثانية.

(٣) في بعض نسخ الأصل «المفرقون».

(٤) رواية البيت كما في ديوانه:

مجللة تعممه شنارا ... مضرمة تأجج كالشواظ

كهمزة ضيغم يحمي عرينا ... شديد مغارز الأضلاع خاظي

واختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدقاتِ﴾[(١)] وقال مُقاتل ضدّ هذا الكلام: إن الهُمَزَةَ: الذي يَغتابُ بالغَيْبة، واللُّمزة: الذي يغتاب في الوجه. وقال قتادة ومجاهد: الهُمَزَة: الطَّعَّان في الناس، واللُّمَزة: الطَّعَّان في أنسابهم. وقال ابن زيد: الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللُّمَزَة: الذي يَلْمِزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوريّ: يهمِز بلسانه، ويلمِز بعينيه. وقال ابن كيسان: الهُمَزَة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة، الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينِه ورأسه وبحاجبيه. وقال مرة: هما سواء؛ وهو القَتَّات الطَّعَّان للمرء إذا غاب. وقال زياد الأعجم:

تُدْلِي بِوُدِّي إذا لاقيتَنِي كَذِباً وإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامزُ اللُّمَزَهْ

وقال آخر:

إذا لَقِيتكَ عن سُخْطٍ تُكاشِرُنِي وإن تَغَيَّبتُ كنتُ الهامِزُ اللمَزَهْ

الشحط: البعد. والهُمَزة: اسم وضِع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سُخَرَةٌ وضُحَكَة: للذي يَسخَر ويَضْحك بالناس. وقرأ أبو جعفر محمد بن عليّ والأعرج ﴿هُمْزَة لُمْزَة﴾ بسكون الميم فيهما. فإن صح ذلك عنهما، فهي في معنى المفعول، وهو الذي يتعرّض للناس حتى يَهْمِزوه ويضحكوا منه، ويحملهم على الاغتياب. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبو وائل والنخَعيّ والأعمش: ﴿ويْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ﴾. وأصل الهمز: الكسر، والعَضّ على الشيء بعنف؛ ومنه همز الحرف. ويقال: همزت رأسه. وهمزت الجوز بكفي كسرته. وقيل: لأعرابيّ: أتهمزون (الفارة)؟ فقال: إنما تهمزها الهِرّة. الذي في الصحاح: وقيل لأعرابي أتهمز الفارة؟ فقال السنور يهمزها. والأوّل قاله الثعلبي، وهو يدل على أن الهِرّ يسمى الهمزة. قال العجاج:

ومَــنْ هَمَــزْنَــا رأسَــهُ تَهَشَّمــا

وقيل: أصل الهمز واللمز: الدفع والضرب. لَمَزَهُ يَلْمِزه لَمْزاً: إذا ضربه ودفعه. وكذلك هَمَزَهُ: أي دفعه وضربه. قال الراجز:

ومَــنْ هَمَــزْنَــا عِــزَّهُ تَبَــرْكَعــا علــى اسْتِـهِ زَوْبَعَــةً أو زَوْبَعَــا

---

(١) آية ٥٨ سورة التوبة.

البركعة: القيام على أربع. وبركعهُ فتبركع؛ أي صرعه فوقع على أسته؛ قاله في «الصحاح». والآية نزلت في الأخنس بن شَرِيق، فيما رَوَى الضحاك عن ابن عباس. وكان يَلْمِز الناس ويعيبهم: مقبلين ومدبرين. وقال ابن جُرَيج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبيّ ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجهه. وقيل: نزلت في أُبَيّ بن خَلَف. وقيل: في جميل بن عامر الثقفيّ[١]. وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين. قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته. وقال الفرّاء: يجوز أن يذكر الشيء العام ويقصد به الخاصّ، قصدَ الواحد إذا قال: لا أزورك أبداً. فتقول: من لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل.

[٢] ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

أي أعدّه ـ زعم ـ لنوائب الدهر؛ مثل كَرُمَ وأكرم. وقيل: أحصى عدده؛ قاله السديّ. وقال الضحاك: أي أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده. وقيل: أي فاخر بعدده وكثرته. والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة. كما قال: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾[٢]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾[٣]. وقراءة الجماعة ﴿جَمَعَ﴾ مخفف الميم. وشدّدها ابن عامر وحمزة والكسائيّ على التكثير. واختاره أبو عُبيد؛ لقوله: ﴿وَعَدَّدَه﴾. وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية ﴿جَمَعَ﴾ مخففاً، ﴿وعَدَدَه﴾ مخففاً أيضاً؛ فأظهروا التضعيف، لأن أصله عَدَّه وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين. وقد جاء مثله في الشعر؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه. قال:

مَهْلاً أُمامةُ[٤] قد جَرَّبْتِ منْ خُلُقِي ... إنِّـي أَجُـودُ لإقْـوام وإنْ ضَنِنُـوا

(١) كذا في نسخ الأصل. والذي في الطبري: «جميل بن عامر الجمحي». وفي سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩ طبع أوروبا) و «تاريخ الكامل» لابن الأثير (٢/٦٦ طبع أوروبا) وبعض كتب التفسير: «جميل بن معمر الجمحي».
(٢) آية ٢٥ سورة ق، و آية ١٢ سورة ن.
(٣) آية ١٨ سورة المعارج.
(٤) في «اللسان» وكتاب سيبويه: «مهلا أعاذل». وقد نسباه لقعنب بن أم صاحب.

أراد: ضَنُّوا وبخِلوا، فأظهر التضعيف؛ لكن الشعر موضع ضرورة. قال المهدوِيّ: من خفف ﴿وعدّده﴾ فهو معطوف على المال؛ أي وجمع عدده فلا يكون فعلاً على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر.

[٣] ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

[٤] ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾.

[٦] ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

[٧] ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَب﴾ أي يظنّ ﴿أَنَّ مالَه أَخْلَدَه﴾ أي يبقيه حياً لا يموت؛ قاله السُّدِّيّ. وقال عكرمة: أي يزيد في عمره. وقيل: أحياه فيما مضى، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل. يقال: هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل. ﴿كَلَّا﴾ ردّ لما توهمه الكافر؛ أي لا يَخْلُد ولا يَبقَى له مال. وقد مضى القول في ﴿كَلَّا﴾ مستوفى[١]. وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة: إذا سمعت الله عز وجل يقول ﴿كَلَّا﴾ فإنه يقول كذبت. ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ أي ليطرحنّ وليلقين. وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُميد وأبن محيصن: لَيُنْبَذَانِّ بالتثنية، أي هو وماله. وعن الحسن أيضاً ﴿لَيُنْبَذَنَّهُ﴾ على معنى لينبذنَّ مالُه. وعنه أيضاً بالنون ﴿لَنَنْبِذَنَّهُ﴾ على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه يَنْبِذ صاحِب المال. وعنه أيضاً ﴿لَيُنْبَذُنَّ﴾ بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة واللمزة والمال وجامعه. ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ وهي نار الله؛ سُمّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلْقى فيها وتحطمه وتَهْشمُه. قال الراجز:

إنا حَطَمْنا بالقَضيبِ مُصْعَبا ... يَومَ كَسَرْنا أَنْفَه لِيغضَبا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم. حكاه الماوردي عن الكلبي. وحَكى القشيري عنه: ﴿الحُطَمة﴾ الدَّرَكة الثانية من درك النار. وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع. أبن زيد: أسم من أسماء جهنم. ﴿ومَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَة﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها.

---

(١) راجع ١١/١٤٧.

ثم فسرها ما هي فقال: ﴿نارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ﴾ أي التي أُوقد عليها ألفَ عام، وألف عام، وألْف عام؛ فهي غير خامدة، أعدّها الله للعصاة. ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد. خُلِقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم. وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبيّ ﷺ: «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم أنتهت، ثم إذا صَدَروا تعود. فذلك قوله تعالى: ﴿نارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَةِ﴾». وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت وهم لا يموتون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيَا﴾[١] فهم إذاً أحياء في معنى الأموات. وقيل: معنى ﴿تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَةِ﴾ أي تعلم مقدار ما يستحقُّه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما أستبقاه الله تعالىَ من الأمارة الدالة عليه. ويقال: أطَّلَع فلان على كذا: أي علمه. وقد قال الله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيراً﴾[٣]. فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم.

[٨] ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾.

[٩] ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

أي مُطْبَقة؛ قاله الحسن والضحاك. وقد تقدّم في سورة ﴿البَلَد﴾ القول[٤] فيه. وقيل: مُغلقة؛ بلغة قريش. يقولون: آصَدْتُ الباب: إذا أغلقته؛ قاله مجاهد. ومنه قول عُبيد الله بن قيس الرقيات:

إنَّ في القَصْرِ لَو دَخَلْنَا غَزَالاً مُصْفَقاً مُوصَداً[٥] عليهِ الحِجابُ

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي موصدة بعمد ممدّدة؛ قاله أبن مسعود؛ وهي في قراءته ﴿بِعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ﴾ وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ «ثُمّ إنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إلَيْهِمْ

---

(١) آية ٧٤ سورة طه. (٢) آية ١٧ سورة المعارج.
(٣) آية ١٢ سورة الفرقان.
(٤) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء.
(٥) صفق الباب وأصفقه: أغلقه.

ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعَمَد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشدّ عليهم بتلك المسامير، وتمدّ بتلك العَمَد، فلا يَبْقَى فيها خَلَل يدخل فيه رَوْح، ولا يخرج منه غمّ، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبداً، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زَفِيراً وشهيقاً؛ فذلك قوله تعالى ﴿إنها عليهِم مُؤْصَدة. فِي عَمَدٍ ممدّدة﴾». وقال قتادة: ﴿عَمَد﴾ يعذبون بها. واختاره الطبريّ. وقال ٱبن عباس: إن العَمَد الممدّدة أغلال في أعناقهم. وقيل: قيود في أرجلهم؛ قاله أبو صالح. وقال القشيريّ: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. وتشدّ تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم رَوْحٌ. وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عَمَد؛ أي في سلاسل وأغلالٍ مطوّلة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة. وقيل: هم في عمد ممدّدة؛ أي في عذابها وآلامها يُضْربون بها. وقيل: المعنى في دهر ممدود؛ أي لا ٱنقطاع له. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿فِي عُمُدٍ﴾ بضم العين والميم: جمع عمود. وكذلك ﴿عَمَد﴾ أيضاً. قال الفرّاء: والعَمَد والعُمُد: جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أدِيم وأَدَم وأُدُم، وأَفِيق وأَفَق وأُفُق[1]. أبو عُبيدة: عَمَد: جمع عِماد؛ مثل إهاب. وٱختار أبو عِبيد ﴿عَمَد﴾ بفتحتين. وكذلك أبو حاتم؛ ٱعتباراً بقوله تعالى: ﴿رفع السموات بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنها﴾[2] وأجمعوا على فتحها. قال الجوهريّ: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرىء بهما قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدةٍ﴾. وقال أبو عبيدة: العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العِماد. عَمَدْت الشيء فانعمد؛ أي أقمته بِعِماد يعتمِد عليه. وأعمدته جعلت تحته عَمَداً. والله أعلم

(١) الأديم. الجلد المدبوغ. والأفيق: الجلد الذي لم يدبغ. وقيل: هو الذي لم تتم دباغته.
(٢) آية ٢ سورة الرعد.

تفسير سـورة الفيـل

وهي مكية بإجماع. وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تُخْبَر. وقيل: أَلَمْ تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير. والخطاب للنبيّ ﷺ، ولكنه عام؛ أي ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأصْحَابِ الفيل؛ أي قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مِنَّتِي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ رَبُّك﴾ لا بـ ﴿ألم تر كيف﴾ من معنى الاستفهام.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَابِ الفِيلِ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيال: وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة. [والأنثى فِيلة[١]] وصاحبه[٢] فَيَّال. قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلا، فكُسِر من أجل الياء؛ كما قالوا: أبيض وبيض. وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع. ورجل فِيل الرأي، أي ضعيف الرأي. والجمع أفيال. ورجل فال؛ أي ضعيف الرأي مخطىء الفِراسة. وقد فال الرأي يَفِيل فُيُولة، وفَيَّل رأيه تفييلا: أي ضعفه فهو فَيِّل الرأي.

الثالثة ـ في قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن ﴿ أبرهة ﴾ بنى القُلَّيس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثم كتب إلى النجاشيّ: إني قد بنيت لك أيها المِلك كنيسة لم يُبْن مثلها لملِك كان قبلك، ولست بمنتهِ حتى أصرِف إليها حج العرب

(١) من تتمة قول ابن السكيت.

(٢) في «اللسان»: «وصاحبها».

فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ، غضب رجل من النَّسَأة[١]، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها ـ أي أحدث ـ ثم خرج فلحِق بأرضه؛ فأُخْبِر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمِع قولك: «أَصْرِف إليها حَجَّ العرب» غضب، فجاء فقعد فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسِيرَنّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانة[٢] يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعوا به، ورأوا جهاده حقاً عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزِم ذو نفر وأصحابه، وأُخِذ له ذو نفر فأُتِي به أسيراً؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي؛ فتركه من القتل، وحبسه عنده في وَثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خَثْعَمَ عرض له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيّ في قبيلتي خثعم: شَهران وناهِس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأُخِذ له نُفيل أسيراً؛ فأُتِي به، فلما همّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهِس، بالسمع والطاعة؛ فخلى سبيله. وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال من ثقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ـ يعنون اللات[٣] ـ إنما تريد البيت الذي بمكة،

---

(١) في سيرة ابن هشام: «من النسأة أحد بني فقيم بن عديّ . . . . . والنسأة: الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل، ويؤخرون ذلك الشهر؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾. (راجع «سيرة ابن هشام» طبع أوروبا ص ٢٩).

(٢) بنو كنانة: قبيلة ذلك الرجل الذي أحدث في الكنيسة.

(٣) في «سيرة ابن هشام»: «واللات: بيت لهم بالطائف، كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة».

نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه؛ فتجاوز عنهم. وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمَّس[١] فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبره العرب؛ فهو القبر الذي يرجُم الناسُ بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُـمُ قَبـرَه فـي كـل عـامٍ كـرجْـم النـاس قبـر أبـي رِغـال

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود[٢] على خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. وبعث أبرهة حُناطة الحِميرِيّ إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد[٣] وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعْرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به. فلما دخل حُناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يحل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال له حُناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر؛ فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقاً له، حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر؛ وما غَناءِ رجل أسير بيدي ملِك، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِياً! ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك، إلا أنّ أُنيساً سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصِيه بك، وأُعْظِم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمَه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قَدَر على ذلك؛ فقال حسبِي. فبعث ذو نفْر إلى أنيس، فقال له:

---

(١) المغمس: موضع قرب مكة في طريق الطائف. (٢) كذا في بعض نسخ الأصل و «تفسير الثعلبي» و «تاريخ الطبري» (قسم أوّل ص ٩٣٧ طبع أوروبا). و «تاريخ ابن الأثير» (١/٣٢١ طبع أوروبا). وفي بعض الأصول: «تفسير الطبري وسيرة ابن هشام» (ص ٣٣ أوروبا): «مفصود» بالفاء بدل القاف. (٣) في هامش نسخة: «عن سيد هذا البيت».

إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عَيْن مكة، ويطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاسْتَأْذنْ له عليه، وأنفعه عنده بما ٱستطعت؛ فقال: أَفْعَلُ. فكلم أُنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحب عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فيكلمَك في حاجته. قال: فأذن له أبرهة.

وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأعظم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه، وأعظمهم عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لتَرجمانه: قل له: حاجَتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لتَرجمانه: قل له لقد كنتَ أعجبتَني حين رأيتك، ثم قد زَهِدْتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه؟ لا تكلمني فيه!. قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإنّ للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال أنت وذاك. فردّ عليه إبله. وٱنصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شَعَف[1] الجبال والشِّعاب، تخوفاً عليهم مَعَرّة[2] الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُـــمَّ إنَّ العَبْــــدَ يَمْـ ـنعُ رَحْلَهُ فامنِعْ حِلالكْ[3]

لا يَغْلِبُــــنّ صَلِيبُهُـــمْ ومِحَالُهُمْ عَدْواً[4] مِحالَكْ

إنْ يَــدْخلــوا البلــد الحــرا مَ فــأمــرٌ مــا بَــدَا لَــكْ

(١) شعف الجبال: رؤوسها. (٢) المعرة الأذى. ومعرّة الجيش: أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم بغير علم. وقيل: وطأتهم من مروا به من مسلم أو معاهد، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه. (٣) الحلال (بالكسر): القوم المقيمون المتجاورون. يريد بهم سكان الحرم. (٤) «عدوا» بالعين المهملة؛ ومعناه الاعتداء وفي «اللسان» مادة «غدا»: «غدوا» بالغين المعجمة. قال: «الغد أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر. ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه؛ وإنما أراد القريب من الزمان».

يقول: أي: شيء ما بدا لك، لم تكن تفعله بناء والحِلال: جمع حِلّ. والمِحال: القوّة. وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رَبِّ لا أرجُو لَهمْ سِواكا يا ربِّ فامنعْ منهمُ حِماكا
إنّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا إنهمُ لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أخزِ الأسودَ بن مقصود الأخِذَ الهَجْمَةَ فيها التَّقْلِيدْ[١]
بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبِيدْ يحبسها وهي أولات التطريدْ[٢]
فضمها إلى طَماطِمٍ سُودْ [قَدْ أَجْمَعُوا أَلاَّ يكون مَعْبُودْ[٣]
ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعمُودْ والمَرْوَتَين والْمَشَاعِرَ السُّود][٤]
أخفِره[٥] يا رب وأنت محمود

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرّزوا فيها، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال له: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نُفَيل بن حبيب يشتدّ، حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزِين[٦] ليقوم فأبى؛ فأدخلوا

(١) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل. قيل هي ما بين الثلاثين والمائة. وقيل أوّلها الأربعون. وقيل ما بين السبعين إلى المائة. (انظر كتب اللغة). وتقليدها أنه يجعل في عنقها شعاراً ليعلم أنه هدي.
(٢) حراء وثبير: جبلان بمكة. والبيد: جمع البيداء، وهي الفلاة. وتطريد الإبل: تتابعها.
(٣) السهيلي: «طماطم سود» يعني العلوج.
(٤) ما بين المربعين لم يذكره ابن إسحاق في روايته.
(٥) أخفره: أي أنقض عهده وعزمه فلا تؤمنه.
(٦) الطبر (محركة): الفأس من السلاح (معربة). والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر. وقيل هو الطبر بعينه.

محاجِن(١) لهم في مراقه، فبزغوه(٢) بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثال الخطاطيف والبَلَسان(٣)، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّص والعَدَس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب، ليدلهم على الطريق إلى اليمن. فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيـنَ المَفَـرُّ والإلَـهُ الطَّـالـبْ ... والأَشْرَمُ(٤) المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضاً:

حِمِـدتُ الله إذ أبصـرتُ طَيْـراً ... وخِفْـت حِجـارَةً تُلْقَـى علينـا
فكـلُّ القـومِ يسـأل عـن نُفَيـلٍ ... كَـأَنَّ عَلَـيَّ لِلْحُبْشـان دَيْنـاً

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلِكون [بكل مَهْلِك](٥) على كل سَهْل(٦)، وأصيب أَبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أَنْمُلَةً أنملة(٧)، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدّةٌ تمث(٨) قيحاً ودماً؛ حتى قدِموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى أنصدع صدره عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان ـ يزيد أحدهما وينقص ـ: سبب الفيل ما رُوي أن فتْية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وأرتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البِيعة ناراً، فاحترقت؛ فأتى الصرِيخ إلى النجاشي فأخبره،

(١) المحجن: العصا المنعطفة الرأس كالصولجان. (٢) بزغوه: شرطوه.
(٣) في «اللسان» و «النهاية» مادة (بلس): «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير».
(٤) الأشرم: أبرهة؛ سمي بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أنفه فسمي الأشرم.
(٥) زيادة عن سيرة ابن هشام. (٦) في سيرة ابن هشام: «منهل».
(٧) أي يتنثر جسمه، والأنملة طرف الأصبع. ويعبر بها عن الصغير من الأشياء.
(٨) مث السقاء: رشح.

فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهة بن الصَّبَّاح وحُجْر بن شُرَحْبيلَ وأبو يَكْسومَ الكِنْديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة. وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزير، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيل واحد. وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز، وٱستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله. وٱختُلِف في النجاشيّ، هل كان معهم؛ فقال قوم كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم. ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبد المطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بنَجدية ولا تِهامية ولا حجازية؛ وإنها أشباه اليعاسيب[1]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت[2] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم. وقال الكلبيّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْف[3]، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المِنقار، أسود الرأس، طويل العنق. فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر ٱسم صاحبه المقتول به. وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غَوَى. ثم انصاعت[4] راجعة من حيث جاءت. وقال العَوفِيّ: سألت عنها أبا سعيد الخدرِي، فقال: حمام مكة منها. وقيل: كان يقع الحجر على بيضة[5] أحدهم فيخرقها، ويقع في دِماغه، ويخرق الفيل والدابة. ويغيب الحجر في الأرض من شدّة وقعه. وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم، رجع ومعه شِرذمة لطيفة. فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وقال الواقديّ: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ، وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن[6] مع أرياط، حتى تزاحفا،

---

(١) اليعسوب: أمير النحل. (٢) في نسخة: «أقبلت». (٣) الخذف: الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع. (٤) انصاع الرجل: انفتل راجعاً ومر مسرعاً.
(٥) هي بيضة الحديد. (٦) المفاتنة: اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال.

ثم ٱتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غَلَب فله الأمر. فتبارزا ـ وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربة، وأبرهة قصيراً حادِراً[(١)]، حليماً ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له يقال له عِتْوَدَة ـ فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عِتْودة على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشيّ، وحلف لَيَجُزَّنَّ ناصية أبرهة، ويطأن بلاده. فجز أبرهة ناصيته» وملأ مِزوداً من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيّ، وقال: إنما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أَقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبرّ في يمينك؛ فرضي عنه النجاشيّ. ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدّم.

الرابعة ـ قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبيّ ﷺ بأربعين سنة. وقال الكلبي وعُبيد بن عمير: كان قبل مولد النبيّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة. والصحيح ما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ولدت عام الفِيل». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفيل». حكاه الماوردِيّ في التفسير لـه. وقال في كتاب «أعلام النبوّة»: وُلِدَ رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشـر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيـل بخمسين يومـاً. ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط[(٢)]، في السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنو شِروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبـريّ أن مولد النبيّ ﷺ كان لاثنتيـن وأربعيـن سنة من ملك أنو شروان. وقد قيل: إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرّم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدّة حمله ثمانية أشهر كَمَلا ويومين من التاسع. وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين[(٣)] أبو حفص، في فضائل يوم عاشوراء لـه. ابن العربـيّ: «قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مَخْرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. وقد روى الناس عن مالك أنه قال:

---

(١) الحادر: المجتمع الخلق.

(٢) في نسخة: «شباط» (بالشين المعجمة كغراب)، وورد بالسين المهملة.

(٣) في بعض نسخ الأصل: «أبو شاهين حفص».

من مروءة الرجل ألاَّ يُخْبِر بسنه؛ لأنه إن كان صغيراً أستحقروه وإن كان كبيراً أستهرموه. وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكاً لا يخبر بسنّ رسول الله ﷺ ويكتم سِنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به. فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيراً أو صغيراً». وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أَسِيد: أنت أكبر أم النبيّ ﷺ؟ فقال: النبيّ ﷺ أكبر مني، وأنا أسنّ منه؛ ولد النبيّ ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سنّ عَتَّاب بن أَسِيد حين ولاه النبيّ ﷺ مكة؛ وكان سنه يومئذٍ دون العشرين.

الخامسة ـ قال علماؤنا: كانت قصة الفِيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ ﷺ، وإن كانت قبله وقبل التحدّي؛ لأنها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلم ترَ﴾. ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس. وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس. وقال أبو صالح: رأيت في بيت أمّ هانىء بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططة بحمرة.

[٢] ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي ، والبيت بالتخريب والهدم. فحُكِي عن عبد المطلب أنه بعث آبنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعاً، فرجع يركض فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن آبني هذا أفرس العرب. وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً. فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم. وكانت

أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا. وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفيّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختر أيهما شئت. ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ[(١)] والأفيالا ... وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا[(٢)]

وقد خشِينا منهمُ القتالا ... وكلَّ أمرٍ لهم[(٣)] مِعضَالاَ

شكراً وحمداً لك ذا الجلالا[(٤)]

قال ابن إسحاق: ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم][(٥)] أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تدنِس ... أنت حبستَ الفِيل بالمُغَمِّسِ

من بعد ما هَمَّ بشرٍّ مُبْلِس ... حبسته في هيئة المُكَرْكَسِ

وما لهم من فرج ومنفِس

والمكركس: المنكوس المطروح.

[٣] ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝﴾.

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ». وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وقال عِكرمة: كانت طيراً خُضراً، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع. ولم تُر قبل ذلك ولا بعده. وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء. وعن

(١) الظاهر أنه جمع (أحبش) بوزن أحمر، وإن لم ينطقوا به. قال في «تاج العروس»: كأنه جمع أحبش (بوزن أحمر).
(٢) في «روح المعاني»، «الأحبالا» بالحاء.
(٣) في «روح المعاني» «منهم» بدل «لهم».
(٤) كذا في نسخ الأصل وغيرها من المصادر.
(٥) زيادة عن سيرة ابن هشام.

سعيد بن جبير أيضاً: هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر. وقيل: كانت بِيضاً. وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة. وقيل: إنها العنقاء المُغْرِب[١] التي تضرب بها الأمثال؛ قال عِكرمة: ﴿أبابِيل﴾ أي مجتمعة. وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد. وقيل مختلفة متفرّقة، تجيء من كل ناحية، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ٱبن مسعود وٱبن زيد والأخفش. قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام. يقال: فلان يؤبِّل على فلان؛ أي يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل. وٱختلف في واحد (أبابيل)؛ فقال الجوهريّ: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي فِرقاً، وطير أبابيل. قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له. وقال بعضهم: واحده إبَّوْل، مثل عِجَّوْل. وقال بعضهم ـ وهو المبرّد ـ: إِبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أجد العرب تعرِف له واحداً في غير الصحاح. وقيل في واحده إبَّال. وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعبــتْ طيــرٌ بِهِــمْ أبــابيــلْ فصُيِّـرُوا مِثْـلَ كَعَصْـفٍ مَـأْكُـولْ

وقال الأعشى:

طَرِيـقٌ وجَبَّـارٌ[٢] رِواءٌ أُصـولُـهُ علَيـهِ أبـابيـلٌ مِـن الطَّيْـرِ تَنْعَـبُ

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتِي إذْ سالتِ الأَرضُ بالجُرْدِ[٣] الأبابيلِ

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الداعي سِرَاعاً كأنّهُمْ أبابيلُ طَيْر تَحتَ دَجْنٍ مُسَخَّنِ[٤]

---

(١) هي التي أغربت في البلاد، فنأت ولم تحس ولم تر.

(٢) الجبار من النخل: ما طال وفات اليد.

(٣) الجرد (بالضم كالجريدة): خيل لا رجالة فيها. والجرد ـ أيضاً ـ: قصر شعر الجلد في الفرس، وهو من الأوصاف المحمودة في الخيل.

(٤) كذا في نسخ الأصل، (بالخاء المعجمة والنون). وفي «تفسير الثعلبي»: ... تحت دجن مسحر. (بالحاء المهملة والراء). وقد نسبه إلى ٱمرىء القيس؛ ولم نجده في ديوانه. ولعل صوابه: ... تحت دجن مسخر. (بالخاء المعجمة والراء).

قال الفرّاء: لا واحد له من لفظه. وزعم الرؤاسِيّ ـ وكان ثقة ـ أنه سمع في واحدها ﴿إبّالة﴾ مشددة. وحكى الفرّاء ﴿إبالة﴾ مخففاً. قال: سمعت بعض العرب يقول: ضِغْث[١] علَى إبّالَة. يريد: خِصباً على خِصب. قال: ولو قال قائل إيبال كان صواباً؛ مثل دينار ودنانير. وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

[٤] ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾.

في «الصحاح»: ﴿حِجارة مِن سِجيلٍ﴾ قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنرسِلَ عَلَيهِم حِجارةً مِن طِينٍ. مُسَوَّمة﴾[٢]. وقال عبد الرحمن بن أبزى: ﴿مِن سِجيلٍ﴾: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط. وقيل من الجحيم. وهي ﴿سِجِّين﴾ ثم أبدلت اللام نوناً؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَرْباً تَواصَتْ بِه الأبطالُ سِجِّينَا[٣]

وإنما هو: سجِيلاً. وقال الزجاج: ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ أي مما كُتب عليهم أن يُعَذّبوا به؛ مشتق من السجل. وقد مضى القول في سِجّيل في ﴿هود﴾[٤] مستوفى. قال عِكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجُدَرِيّ لم يُر قبلَ ذلك اليوم. وكان الحجر كالحِمَّصة وفوق العدسة. وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده، فكان ذلك أوّل الجُدرِيّ. وقراءة العامة ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ بالتاء، لتأنيث جماعة الطير. وقرأ الأعرج وطلحة ﴿يَرْمِيهم﴾ بالياء؛ أي يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿ولكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٥] ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير، لخلوّها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ.

---

(١) الضغث: قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. والإبالة: الحزمة من الحطب. في «فرائد اللآل»: يضرب لمن حملك مكروهاً ثم زادك عليه.

(٢) آية ٣٣ سورة الذاريات. (٣) صدر البيت كما في «اللسان»:

ورجلة يضربون البيض عن عرض

(٤) راجع ٩/٨١. (٥) آية ١٧ سورة الأنفال.

[٥] ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ .

أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل. شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيره. وقد مضى القول في العَصْف في سورة ﴿الرحمن﴾[١]. ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تَسْقِي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطْمُوم[٢]

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أصْحابَ الفِيلْ تَـرْميهِـمُ حِجَـارَةٌ مِـنْ سِجِّيـلْ
ولَعِبــتْ طَيــرٌ بهــمْ أَبــابيــلْ فَصُيِّـروا مِثْـلَ كَعَصْـفٍ مَـأْكُـولْ

العَصْف: جمع، واحدته عَصْفة، وعُصافة، وعَصِيفة. وأدخل الكاف في ﴿كَعَصْف﴾ للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿ليس كمثلِه شيء﴾[٣]. ومعنى ﴿مأكولٍ﴾ مأكول حبه. كما يقال: فلان حسن؛ أي حسن وجهه. وقال ابن عباس: ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ﴾ أن المراد به قشر البر؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح. ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة. وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل[٤] من كِندة؛ فقال:

فإنّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ[٥] لـدى جنب المُغَمِّس ما لَقِينا

---

(١) راجع ١٧/١٥٦. (٢) المذانب: مسايل الماء. والعصيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأتى (كغنى): الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.
(٣) آية ١١ سورة الشورى. (٤) هو نفيل بن حبيب؛ كما في «تاريخ الطبري وابن الأثير».
(٥) في نسخ الأصل: «ولو ترانا» وهو تحريف؛ لأنه يخاطب امرأة. والأبيات كما أوردها الطبري (ص ٩٤٢ قسم أول طبع أوروبا) وابن الأثير (١/ ٣٢٢ طبع أوروبا):

ألا حييــت عنــا يــا ردينــا نعمنــاكــم مــع الإصبــاح عينــا
أتــانــا قــابــس منكــم عشــاء فلــم يقــدر لقــابسكــم لــدينــا
ردينــة لــو رأيــت ولــم تــريــه لــدى جنــب المحصــب مــا رأينــا
إذن لعــذرتنــي وحمــدت رأيــي ولــم تــأســى علــى مــا فــات بينــا
حمــدت الله إذا عــاينــت طيــراً وخفــت حجــارة تلقــى علينــا
لكــل القــوم يســأل عــن نفيــل كــأن علــيّ للحبشــان دينــا

خَشِيتُ اللَّهَ إذْ قد بَث طَيْراً وظِلَّ سحابةٍ مَرت عَلَينَا
وباتتْ كلُّها تدعو بِحَقٍّ كأن لها على الحُبْشان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. فالله أعلم. وقال ابن إسحاق: لما ردّ الله الحبشة عن مكة، عَظَّمت العرب قريشاً وقالوا: أهلُ اللَّهِ، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوّهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم.

تفسير سورة قريش

مكية؛ في قول الجمهور. ومدنِية؛ في قول الضحاك والكلبي وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ ﴾.

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى. يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي لتأتلف، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتُؤْلِف رحلتيها. وممن عدّ السورتين واحدة أبيّ بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معاً. وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى: ﴿والتينِ والزَّيتُونِ﴾ وفي الثانية ﴿ أَلَمْ تَرَ كيف ﴾ و ﴿ لإيلافِ قُرَيشٍ ﴾. وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى[١] ؛ لأنه ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لإيلاف قُريش ﴾ أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش . وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها ، فلا يُغار عليها ولا تُقرب في الجاهلية. يقولون: هم أهل بيت الله جلّ وعزّ؛ حتى جاء صاحب الفيل

(١) الذي في كتاب الفراء: «قال بعضهم كانت موصولة بـ ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ الخ.

ليهدم الكعبة؛ ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُج الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكَّرهم نِعْمته. أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أي ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه. ذكره النحاس: حدّثنا أحمد بن شُعيب قال أخبرني عمرو بن عليّ قال: حدّثني عامر بن إبراهيم ـ وكان ثقة من خيار الناس ـ قال حدّثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدّثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافُهُمْ رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يَشْتون بمكة، ويَصِيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآيِ وإن لم يكن الكلام تاماً؛ على ما نبينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿فلْيعبدوا﴾ أي فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار[1]. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: ألَّف الله قريشاً إيلافاً فليعبدوا ربَّ هذا البيت. وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيداً فاضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ لام التعجب؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائيّ والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: ﴿لإئلافِ قريش﴾ مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو جعفر والأعرج ﴿لِيلَافِ﴾ بلا همز طلباً للخفة. الباقون ﴿لإيلاف﴾ بالياء مهموزاً مشبعاً؛ من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً. قال الشاعر:

المُنْعِمِيــن إذا النجــوم تغيــرتْ والظــاغنيــنَ لــرحلــةِ الإيـلافِ

ويقال: أَلِفْتُه إلْفاً وإلافاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: ﴿لإلْفِ قُرَيش﴾ وقد جمعهما من قال:

زَعَمْتُمْ أنّ إخوتَكُمْ قُرَيشٌ[2] لهـم إلـف وليـس لكـم إلاف

قال الجوهريّ: وفلان قد أَلِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألَفُه إلْفاً، وآلَفه إياه غيره. ويقال أيضاً: آلَفت الموضع أُولِفه إيلافاً. وكذلك: آلفت الموضع أُولفُه مُؤالفة وإلافا؛

(١) أي لجلب الطعام.

(٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفي «اللسان وشرح القاموس»: «قريشاً» بالنصب على البدل.

فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عِكرمة ﴿لَيَأْلَفْ﴾ بفتح اللام على الأمر. وكذلك هو في مصحف ٱبن مسعود. وفتح لام الأمر لغة حكاها ٱبن مجاهد وغيره. وكان عكرمة يعيب على من يقرأ ﴿لإيلاف﴾. وقرأ بعض أهل مكة ﴿إلاف قريش﴾ وٱستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فلاَ تُتْركَنْه ما حييتَ لِمُعْظَمِ ... وكنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ

تذود العِدا عن عُصْبة هاشميةٍ ... إلا فهُم في الناس خيرُ إلاَفِ

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدرِكة بن إلياس بن مضر. فكل من كان من ولد النضر فهو قرشيّ دون بني كِنانة ومن فوقه. وربما قالوا: قُرَيْشِيّ، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قُرَيْشِيّ عليه مَهابة[(١)]

فإن أردت بقريش الحيّ صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُرَيشَ المُعْضِلاتِ وسادَها[(٢)]

والتقريش: الاكتساب، وتقرّشوا أي تجمعوا. وقد كانوا متفرّقين في غير الحرم، فجمعهم قُصَيّ بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مَسْكنا. قال الشاعر:

أبونا قُصَيّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً ... به جمع الله القبائلَ من فِهرِ

وقد قيل: إن قريشاً بنو فِهر بن مالك بن النضر. فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشيّ. والأوّل أصح وأثبت. وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنا ولد النضر بن كنانة لانقفوا[(٣)] أُمنا، ولا ننتفِي من أبينا». وقال واثلة بن الأسْقع: قال النبيّ

(١) تمامه:

سريع إلى داعي الندى والتكرم

(٢) هذا عجز بيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك. وصدره كما في «اللسان»:

غلب المساميح الوليد سماحة

(٣) قفا فلان فلاناً: إذا قذفه بما ليس فيه، أي لا نتهمها ولا نقذفها، وقيل: معناه لا نترك النسب إلى الآباء، وننتسب إلى الأمهات.

ﷺ: «إن ٱللَّهَ ٱصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، وٱصطفى من بني كِنانة قريشاً، وٱصطفى من قريش بني هاشم، وٱصطفاني من بني هاشم». صحيح ثابت، خرّجه البخاريّ ومسلم وغيرهما. وٱختلِف في تسميتهم قريشاً على أقوال: **أحدها** ـ لتجمُّعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام. قال أبو جِلْدةَ اليَشْكُري[١]:

إخوة قَرَّشُوا الذنوبَ علينا ... في حديثٍ مِن دهرهمْ وقديم

الثاني ـ لأنهم كانوا تِجاراً يأكلون من مكاسبهم. والتَّقرُّش: التكسُّب. وقد قَرَشَ يَقْرُشُ قَرْشاً: إذا كسب وجمع. قال الفرّاء: وبه سميت قُريش. **الثالث** ـ لأنهم كانوا يفتشون الحاج[٢] من ذي الخَلة، فيسدّون خَلته. والقَرْش: التفتيش. قال الشاعر:

أَيُّهَا الشامتُ المقرش عنا ... عند عمرو فهلْ له إبقاء[٣]

الرابع ـ ما روي أن معاوية سأل ٱبن عباس لم سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرش؛ تأكل ولا تؤكل؛ وتعلوا ولا تُعْلَى. وأنشد قول تُبَّع:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميت قريش قريشا

تأكل الرث والسمين ولا تتـ ... ـرك فيها لذي جناحين رِيشا

هكذا في البلاد حيّ قُريشٍ ... يأكلون البلاد أكلاً كمِيشا[٤]

ولهم آخرَ الزمانِ نبيٌّ ... يكثر القتل فيهم والخُموشا[٥]

[٢] ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾.

قرأ مجاهد وحميد ﴿إلفِهم﴾ ساكنة اللام بغير ياء. وروي نحوه عن ٱبن كثِير. وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ ﴿إلفِهم﴾. وروى عن ٱبن عباس

---

(١) ضبطه في التاج بكسر الجيم. (٢) الحاج: جماعة الحجاج. والخلة (بالفتح): الحاجة والفقر.
(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكري في معلقته. وروايته كما في شرح المعلقات:

أيها الناطق المرقش عنا ... عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزي: «المرقش: المزين القول بالباطل، ليقبل منه الملك باطله. ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم. ومعنى «وهل لذاك بقاء»: «إن الباطل لا يبقى». وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه.
(٤) أي سريعاً.
(٥) الخموش: (جمع الخمش)، وهو مثل الخدش، يكون في البدن والوجه.

وغيره. وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة ﴿إِلَافِهِم﴾ مهموزاً مختلساً بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿إئلافهم﴾ بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة. والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ. الباقون ﴿إيلافهم﴾ بالمدّ والهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأوّل للبيان. وهو مصدر آلف: إذا جعلته يألف. وألِف هو إلفا؛ على ما تقدّم ذكره من القراءة؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف. روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِيلافِهِم رِحلةَ الشتاء والصيف﴾ قال: لا يشُق عليهم رحلة شتاء ولا صيفٍ، مِنَّةٌ منه على قريش. وقال الهَرَوِيّ وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف. فأما هاشم فإنه كان يُؤْلف مَلِك الشام؛ أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام. وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحَبشة. والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس. ومعنى يُؤْلف يُجير. فكان هؤلاء الإخوة يسمَّون المُجِيرين. فكان تِجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّض لهم. قال الأزهريّ: الإيلاف: شبه الإجارة بالخَفارة[١]؛ يقال: آلف يُؤْلِف: إذا أجار الحمائل بالخَفارة. والحمائل: جمع حَمولة[٢]. قال: والتأويل: أن قُريشاً كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضَرْع، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخَطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حَرَم الله، فلا يَتَعرضُ الناس لهم. وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدّثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدِّمياطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿لِإيلافِ قُرَيْش﴾ إلْفِهم رحلة الشتاء والصيف. وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة[٣]، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيداً

---

(١) في بعض نسخ الأصل: «الإجارة والخفارة» ولم نجد هذا في كتاب التهذيب للأزهري ولا في غيره من كتب اللغة. والإجارة: الإغاثة والحماية. والخفارة (مثلثة الخاء): الأمان.

(٢) الحمولة (بالفتح): الإبل التي تحمل.

(٣) المخمصة: المجاعة.

في زمانه، وله ٱبن يقال له: أسَد، وكان له تِرْب[1] من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه. فقال له: نحن غداً نعتفد» قال ٱبن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كانت بالدال، فما أدري معناها[2]، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد. قال: فدخل أسد على أمّه يبكي، وذكر ما قاله تِربه. قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياماً. ثم إن تربه أتاه أيضاً فقال: نحن غداً نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربِه، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقِلون فيه وتكثر العرب، وتذِلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم. فقالوا: نحن لك تبع. قال: ابتدئوا بهذا الرجل ـ يعني أبا تِرب أسد ـ فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا. ثم إنه نحر البدن، وذبح الكِباش والمعز، ثم هشم الثرِيد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشماً. وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي[3] هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنِتون[4] عِجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً ﷺ، فقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيتِ الذِي أطعمهم مِن جوعٍ﴾ بصنيع هاشم ﴿وآمنهم مِن خوفٍ﴾ أن تكثر العرب ويقِلوا.

---

(١) الترب (بالكسر): اللدة ومساويك في السن ومن ولد معك. (٢) في «اللسان» مادة عفد: «الاعتفاد: أن يغلق الرجل بابه على نفسه، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً. (٣) في «اللسان»: «عمرو العلا...». (٤) مسنتون: أي أصابتهم السنة. والسنة: الجدب والقحط.

قوله تعالى: ﴿رِحلة الشتاءِ والصيفِ﴾ ﴿رِحلَةَ﴾ نصب بالمصدر؛ أي ٱرتحالهم رِحلة، أو بوقوع ﴿إيلافهم﴾ عليه، أو على الظرف. ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف؛ لجاز. والأوّل أولى. والرحلة الارتحال. وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء، لأنها بلاد حامية، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة. وعن ٱبن عباس أيضاً قال: كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها، ويَصِيفون بالطائف لهوائها. وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحية حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة. وقال الشاعر:

تَشْتِي بمكة نَعْمَةً ومَصِيفُها بالطّائفِ

وهنا أربع مسائل:

الأولى ـ اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ وغيره من العلماء: أن قوله تعالى: ﴿لإيلافِ﴾ متعلق بما قبله. ولا يجوز أن يكون متعلقاً بما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى ـ وقد قطع عنه بكلام مبتدإ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقد تبين جواز الوقف في القراءة[١] للقرّاء قبل تمام الكلام، وليست المواقف التي ينتزع[٢] بها القُرّاء شرعاً عن النبيّ ﷺ مروياً، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فإذا علِموها وقفوا حيث شاءوا. فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تُعِد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ٱبدأ من حيث وقف بك نَفَسك. هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه بحال، ولكني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صحة هذا، قراءة النبي ﷺ ﴿الحمد لِلَّهِ رب العَالَمِين﴾ ثم يقف. ﴿الرحْمَنِ الرَّحِيم﴾ ثم يقف. وقد مضى في مُقَدّمة الكتاب[٣]. وأجمع المسلمون أن

(١) في ابن العربي: «في القرآن».
(٢) في ابن العربي: «تنزع».
(٣) راجع ١/ ١٠ فيما بعد.

الوقف عند قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ليس بقبيح. وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلاّ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأكولٍ﴾ أنتهاء آية. فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم، والغرض ينتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي. وأيضاً فإن الفواصل حِلية وزِينة للكلام المنظوم، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور. ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه، وترك الوقوفِ يُخفي تلك المحاسن، ويُشَبِّه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية ـ قال مالك: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبد الرحمن[١] ومن معه، لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريا، وهو يوم التاسعَ عَشَرَ من بشنس، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد[٢] الروم أو الفرس. وأراد[٣] بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أوّل[٤] الصيف ودُبُرَ الشتاء. وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه. وقال عنه أشهب وحده: إذا سقَطَتِ الهَقْعَة[٥] نقص الليل، فلما جُعل طلوع الثريا أوّل الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر. وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم آمرأ حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور. ولو قال حتى يدخل الصيف؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس. قال القُرَظِيّ: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذا حسبت المنازل

---

(١) هو ربيعة الرأي، أدرك بعض أصحاب النبيﷺ والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة؛ وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره. توفي سنة ١٣٦هـ. (٢) كذا في «الأصول وابن العربي». أي من عدد شهورهم. (٣) كذا في «ابن العربي. وفي نسخ الأصل: «وأرى».

(٤) في «أبن العربي»: «قبل الصيف». (٥) الهقعة: ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض، فوق منكب الجوزاء، وهي منزل من منازل القمر.

على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس. والله أعلم.

الثالثة ـ قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخرِيف. وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقَيظ، وخرِيف. والذي قاله مالك أصح؛ لأن الله قسم الزمان قسمين(١) ولم يجعل لهما ثالثاً.

الرابعة ـ لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاء وصيفاً، على ما تقدّم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس في المجلس البحْري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادَهنجَات(٢) والخَيْش للتبريد، واللِّبد واليانوسة(٣) للدّفء.

[٣] ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ﴾.

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين. ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأن المعنى: إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة. والبيت: الكعبة. وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: **أحدهما**: لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها. **الثاني**: لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب؛ فذكر لهم ذلك، تذكيراً لنعمته. وقيل: ﴿فَلْيَعبُدوا رَبَّ هذا البيتِ﴾ أي ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين. قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى

---

(١) في «الأصول»: «لأن قسمة الله للزمان قسمين، ولم يجعل لهما ثالثاً» وهي غير مستقيمة. وفي «ابن العربي» «لأجل قسمة الله الزمان قسمين. . . الخ».

(٢) في كتاب «شفاء العليل» للشهاب الخفاجي: «الباد هنج» معرب بادخون أو بادكير، منفذ للهواء في سقف البيت.

(٣) في «ابن العربي»: «اليانوس». ولم نجد في المعاجم العربية هذه المادة.

ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هَذا البيتِ﴾ أي يقيموا بمكة. رحلة[(١)] الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

[٤] ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفٍۭ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ ﴾ أي بعدَ جوع. ﴿ وآمنهم مِن خوفٍ ﴾ قال ٱبن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ رَبِّ ٱجعلْ هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِن الثَّمراتِ ﴾[(٢)]. وقال ٱبن زيد: كانت العرب يُغير بعضها على بعض، ويَسْبِي بعضها من بعض، فأَمنَتْ قُرَيش من ذلك لمكان الحرم ـ وقرأ ـ ﴿ أوَ لَمْ نُمَكن لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليهِ ثَمَرَاتُ[(٣)] كل شيءٍ ﴾. وقيل: شق عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهمْ، وظنوا أنهم قدِموا لحربهم، فخرجوا إليهم مُتَحَرّزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأغاثوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدَّة بالإبل والحُمُر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين. وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ ٱجْعَلْهَا عليهمْ سِنِينَ كسِنِي يُوسُفَ» فاشتد القَحْط، فقالوا: يا محمدُ ٱدعُ الله لنا فإنا مؤمنون. فدعا فأخصبَتْ تَبَالة وجُرَشُ من بلاد اليمن؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها. وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: ﴿ وآمنهم مِنْ خَوْفٍ ﴾ أي من خوف الجُذام، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام. وقال الأعمش: ﴿ وآمنهم مِن خوفٍ ﴾ أي من خوف الحَبَشة مع الفيل. وقال عليّ رضي الله عنه: وآمنهم مِن [خوف][(٤)]: أن تكون الخلافة إلاَّ فيهم. وقيل: أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

---

(١) يريد: يقيموا بمكة: ويتركوا الرحلة... الخ.
(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة.
(٣) آية ٥٧ سورة القصص.
(٤) التكملة عن تفسير الخطيب.

تفسير سورة الماعون

وهي مكية؛ في قول عطاء وجابر وأحد قولي ٱبن عباس. ومدنية؛ في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره. وهي سبع آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾.

[٢] ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

[٤] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾.

[٥] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

[٦] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾.

[٧] ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

فيه ست مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿أَرأيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة؛ وقد تقدّم في ﴿الفاتحة﴾. و ﴿أَرَأَيت﴾ بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يُقال[١] في أرأيت: رَيْت، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً؛ ذكره الزَّجاج. وفي الكلام حذف؛ والمعنى: أرأيت الذي يكذب بالدين: أَمُصيب هو أم مُخْطىء. واختلف فيمن نزل هذا فيه؛ فذكر أبو صالح عن ٱبن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِيّ؛ وقاله الكلبيّ ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجلٍ من المنافقين. وقال السديّ: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ. قال ٱبن جريج: نزلت في أبي سفيان، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً، فطلب منه يتيم شيئاً، فقَرَعه بعصاه؛ فأنزل الله هذه السورة. و ﴿يَدُعُّ﴾ أي يدفع، كما قال: ﴿يُدَعُّونَ إِلَى نارِ جَهَنَّمَ دَعا﴾[٢] وقد

---

(١) راجع ١/١٤٣. (٢) آية ١٣ سورة الطور. راجع ١٧/ ٦٤.

تقدّم. وقال الضحاك عن ابن عباس. ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي يدفعه عن حقّه. قتادة: يقهره ويظلمه. والمعنى متقارِب. وقد تقدّم في سورة ﴿النساء﴾[1] أنهم كانوا لا يُوَرّثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يَطْعُن بالسنان، ويضرب بالحُسام. ورُوِي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ ضَمَّ يتيماً من المسلمين حتى يَسْتَغْنِي، فقد وجبتْ له الجنة». وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[2].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلى طَعامِ المِسْكينِ﴾ أي لا يأمر به، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وهو مِثل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكِينِ﴾[3] وقد تقدّم. وليس الذم عامّا حتى يتناول من تركه عجزا، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم، ويقولون: ﴿أنطعِمُ مَنْ لَوْ يَشاء اللَّهُ أَطْعَمَه﴾[4]، فنزلت هذه الآية فيهم، وتوجه الذم إليهم. فيكون معنى الكلام: لا يفعلونه إن قَدَرُوا، ولا يحثُّون عليه إن عسِروا.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَوَيْل لِلمُصَلِّينَ﴾ أي عذاب لهم. وقد تقدّم في غير مَوضع[5]. ﴿الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هو المصلّي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثوابا، وإن تركها لم يخشَ عليها عقابا. وعنه أيضاً: الذين يؤخرونها عن أوقاتها. وكذا روى المغيرة عن إبراهيم، قال: سَاهونَ بإضاعة الوقت. وعن أبي العالية: لا يصلونها لِمَوَاقِيتِها، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها.

قلت: ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْف أَضاعوا الصلاةَ ﴾ حَسْبَ ما تقدّم بيانه في سورة ﴿ مريم ﴾[6] عليها السلام . وروي عن إبراهيم أيضاً: أنه الذي إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتا. وقال قطرب: هو ألا يقرأ ولا يذكر الله. وفي قراءة عبد الله ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِم لاَهُون ﴾. وقال سعد بن أبي وقَّاص : قال النبيّ ﷺ [في قوله]:

---

(١) راجع ٥/ ٤٦.
(٢) راجع ٢/ ١٤ طبعة ثانية.
(٣) آية ٣٤ راجع ١٨/ ٢٧٢.
(٤) آية ٤٧ سورة يس.
(٥) راجع ٢/ ٧ طبعة ثانية.
(٦) راجع ١١/ ١٢١.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الذِينَ هُم عن صلاتِهِم ساهون﴾ ـ قال ـ «الذينَ يؤخِّرون الصلاة عن وقتها، تهاونا بها». وعن ٱبن عباس أيضاً: هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا، يصلونها علانية ﴿وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسَالى﴾[1]. . . الآية. ويدل على أنها في المنافقين قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُراءُونَ﴾، وقاله ٱبن وهب عن مالك. قال ٱبن عباس: ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين. وقال عطاء: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صلاتِهِم﴾ ولم يقل في صلاتهم. قال الزَمْخَشرِيُّ: فإن قلت: أيّ فرق بين قوله: ﴿عن صلاتِهِم﴾، وبين قولك: في صلاتهم؟ قلتُ: معنى ﴿عن﴾ أنهم ساهون عنها سهو تركٍ لها، وقلةِ التفات إليها، وذلك فعل المنافقين، أو الفَسَقة الشُّطَّار[2] من المسلمين. ومعنى ﴿في﴾ أن السهو يعتريهم فيها، بوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم. وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته، فضلاً عن غيره؛ ومِن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. قال ٱبن العَرَبيّ: لأن السلامة من السهو محال، وقد سها رسول الله ﷺ في صلاته والصحابة. وكل من لا يسهو في صلاته، فذلك رجل لا يتدبَّرُها، ولا يعقِل قراءتها، وإنما همه في أعدادها؛ وهذا رجل يأكل القشور، ويرمِي اللب. وما كان النبيّ ﷺ يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها؛ اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له: اذكر كذا، اذكر كذا؛ لما لم يكن يذكر، حتى يضلّ الرجل أن يدري كم صلى.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ الذِين هم يراءون ﴾ أي يُرِي الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تَقِيَّة؛ ؛ كالفاسق، يرى أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي. وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس. وأولها تحسين السَّمْت[3]؛ وهو من أجزاء النبوّة، ويريد بذلك الجاهَ والثناء. **وثانيها** ـ الرياء بالثياب القصار والخشِنة؛ ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء.

(٢) في نسخة من الأصل: «الشياطين». والشطار: جمع شاطر، وهو الذي ترك موافقة أهله، وأعياهم لؤماً وخبثاً.

(٣) في اللسان: السمت: حسن القصد والمذهب في الدين والدنيا.

الزهد في الدنيا. **وثالثها** ـ الرياء بالقول، بإظهار التسخط على أهل الدنيا؛ وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة. **ورابعها** ـ الرياء بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس؛ وذلك يطول، وهذا دليله؛ قاله ابن العربي.

قلت: قد تقدم في سورة ﴿النساء وهود وآخر الكهف﴾[1] القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية. والحمد لله.

الخامسة ـ ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلام بها وتشهيرها، لقوله عليه السلام: «ولا غُمة[2] في فرائض الله» لأنها أعلام الإسلام، وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوّعا فحقه أن يُخْفَى؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنّما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين، فتثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها؛ فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿البقرة﴾[3] عند قوله تعالى: ﴿إن تبدو الصدقات﴾، وفي غير موضع. والحمد لله على ذلك.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ويَمْنَعُون الماعونَ﴾ فيه اثنا عشر قولا: **الأول** ـ أنه زكاة أموالهم. كذا روى الضحاك عن ابن عباس ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك. والمراد به المنافق يمنعها. وقد رَوَى أبو بَكْر[4] بن عبد العزيز عن مالك قال: بلغني أن قول الله تعالى: ﴿ فَوَيلٌ لِلمُصَلِّينَ. الذِينَ هُمْ عن صَلاَتِهِم ساهونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُوْنَ. ويمْنَعونَ الماعونَ﴾ قال: إن المنافق إذا صلَّى صلَّى رياء، وإن فاتته لم يندم عليها، ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ الزكاة التي فرض الله عليهم. قال زيد بن أسلم: لو خَفِيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا. **القول الثاني** ـ أن ﴿ الماعون ﴾ المال، بلسان

---

(١) راجع ٥/ ١٨١ و ٩/ ١٣ و ١١/ ٧٠.
(٢) أي لا تستر ولا تخفى فرائضه، وإنما تظهر وتعلن ويجهر بها. (٣) راجع ٣/ ٣٣٢.
(٤) في بعض نسخ الأصل: «أبو عمر» وفي بعضها: «أبو عبد». وفي ابن العربي: «أبو بكر بن عبد العزيز».

قريش؛ قاله ٱبن شهاب وسعيد بن المسيب. وقول ثالث ـ أنه ٱسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ٱبن مسعود، وروي عن ٱبن عباس أيضاً. قال الأعشى:

بِـأَجْـودَ مِنْـهُ بِمـاعـونِـهِ إذا مـا سَمَـاؤُهُـمْ لَـمْ تَغِـمِ

الرابع ـ ذكر الزجاج وأبو عُبيد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى. قالوا: والماعون في الإسلام: الطاعة والزكاة؛ وأنشدوا قول الراعي:

أَخَلِيفَـةَ الـرَّحْمٰـنِ إنَّـا مَعْشَـرٌ حُنَفَـاءُ نَسْجُـدُ بُكْـرةً وأَصِيـلاَ

عَـرَبٌ نَـرَى لِلَّـهِ مِـن أَمْـوَالِنَـا حَـقَّ الـزكـاةِ مُنَـزَّلاً تَنْـزِيـلاَ

قَـومٌ علـى الإِسـلامِ لَمَّـا يَمْنعُـوا مـا عُـونَهـمْ ويُضَيِّعُـوا التهليـلا[1]

يعني الزكاة. الخامس ـ أنّه العارية روي عن ٱبن عباس أيضاً. السادس ـ أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ. السابع ـ أنه الماء والكَلأ. الثامن ـ الماء وحده. قال الفراء: سمِعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء؛ وأنشدني فيه:

يَمَـجّ صَبِيـرُه المـاعـونَ صَبًّـا

الصَّبير: السحاب: التاسع ـ أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر. العاشر ـ أنه المستغل من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريّ وٱبن عباس[2]. قال قطرب: أصل الماعون من القلة. والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنة[3] ولا معنة؛ أي شيء قليل. فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعوناً؛ لأنه قليل من كثير. ومن الناس من قال: الماعون أصله مَعُونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ. ٱبن العربيّ: الماعون: مفعول[4] من أعان يعين، والعَوْن: هو الإمداد

---

(١) في «اللسان»:

قـوم علـى التنـزيـل لمـا يمنعـوا مـاعـونهـم ويبـدلـوا التنـزيـلا

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل. وفي بعضها الآخر: «حكاه الطبري وابن عيسى».

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له. والسعن: الكثير. (٤) هذا القول يأباه القياس اللغوي.

بالقوّة والآلات والأسباب الميسرة للأمر. الحادي عشر ـ أنه الطاعة والانقياد. حكى الأخفش عن أعرابي فصيح: لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعاً تعطيك الماعون؛ أي تنقاد لك وتطيعك. قال الراجز:

مَتَى تصادِفْهُنَّ[١] في الْبرِينِ يَخْضعن أو يُعطِين بالماعونِ[٢]

وقيل: هو ما لا يحل منعه، كالماء والملح والنار؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت: قلت يا رسول الله، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال: «الماء والنار والملح» قلت: يا رسول الله هذا الماء، فما بال النار والملح؟ فقال: «يا عائشة من أعطى ناراً فكأنّما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار، ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيب به ذلك الملح، ومن سَقَى شَربة من الماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق ستين نسمة. ومن سَقَى شربة من الماء حيث لا يوجد، فكأنما أحيا نَفْساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً». ذكره الثعلبيّ في تفسيره، وخرّجه آبن ماجه في سننه. وفي إسناده لِين؛ وهو القول الثاني عشر. الماورديّ: ويحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله. والله أعلم. وقيل لِعكرمة مولى آبن عباس: من منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ فقال: لا، ولكن من جمع ثلاثهنّ فله الويل؛ يعني: ترك الصلاة، والرياء، والبُخْل بالماعون.

قلت: كونها في المنافقين أشبه، وبهم أَخْلَق؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال؛ قال الله تعالى: ﴿وإِذَا قَامُوا إِلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٣]، وقال: ﴿ولا يُنفِقون إلاَّ وهم كارِهون﴾[٤]. وهذه أحوالهم، ويبعد أن توجد من مسلم محقق، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ، وذلك في منع الماعون إذا تعين؛ كالصلاة إذا تركها. والله أعلم. إنما يكون منعاً قبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة. والله أعلم.

---

(١) في «تفسير الثعلبي:
متـــــى تجـــــاهـــــدهـــــن
وهي الأوجه. (٢) البرين (بضم الباء وكسرها): جمع برة، وهي هنا الحلقة في أنف البعير. وهي أيضاً: كل حلقة من سوار وقرط وخلخال.
(٣) آية ١٤٢ سورة النساء. (٤) آية ٥٤ سورة التوبة.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل. ومدنية؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة. وهي ثلاث آيات.

[١] ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾.

فيه مسألتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر﴾ قراءة العامة. ﴿إنا أَعْطيناك﴾ بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: ﴿أَنْطَيْنَاكَ﴾ بالنون؛ ورويته أمّ سلمة عن النبيّ ﷺ؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته. و ﴿الكوثر﴾: فوعل من الكثرة؛ مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل شيء كثيرٍ في العدد والقدر والخطر كوثراً. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثيرٌ يابنَ مَرْوانَ طَيِّبٌ وكان أبوك ابنُ العقائِلِ كَوْثَرا

والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. والكوثر من الغبار: الكثير. وقد تكوثر [إذا كثر]؛ قال الشاعر:

وقـد ثـارَ نقـعُ المـوتِ حتـى تَكَـوثـرا[١]

الثانية ـ واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطِيه النبيّ ﷺ على ستة عشر قولاً: **الأوّل** ـ أنه نهر في الجنة؛ رواه البخاريّ عن أنس والترمذيّ أيضاً

(١) هذا عجز بيت لحسان بن نشبة. وصدره كما في «اللسان»:

أبـوا أن يبيحـوا جـارهـم لعـدوهـم

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة. وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «الكَوْثر: نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج». هذا حديث حسن صحيح. **الثاني** ـ أنه حوض النبيّ ﷺ في الموقف؛ قاله عطاء. وفي «صحيح مسلم» عن أنس قال: بينما نحن[1] عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءه، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليَّ آنفاً سورة ـ فقرأ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ. فصَلِّ لِربِّكَ وانْحَرْ. إنَّ شانِئكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ـ ثم قال ـ أتدرون ما الكوثر». ؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه نَهرٌ وَعَدنِيهِ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ، عليه خَيرٌ كَثِير هُوَ حَوْضٌ تَرِد عَلَيْه أمّتي يَوْمَ القيامة آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُوم، فَيُخْتَلَجُ[2] العبدُ منهمْ فأقولُ إنَّهُ من أمّتي، فيقال إنك لا تَدْرِي ما أَحْدَثَ بَعْدَك».

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة، ذكرناها في كتاب «التذكرة». وأن على أركانه الأربعة خُلَفَاءَه الأربعة؛ رضوان الله عليهم. وأنَّ من أبغض واحداً منهم لم يسقِه الآخر، وذكرنا هُناك من يُطْرَد عنه. فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثراً، لكثرة الواردة والشاربة من أمّة محمد عليه السلام هناك. ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. **الثالث** ـ أن الكوثَر النبوّةُ والكتابُ؛ قاله عكرمة. **الرابع** ـ القرآن؛ قاله الحسن. **الخامس** ـ الإسلام؛ حكاه المغيرة. **السادس** ـ تيسير[3] القرآن وتخفيف الشرائع؛ قاله الحسين بن الفضل. **السابع** ـ هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب. **الثامن** ـ أنه الإيثار؛ قاله ابن كَيْسان. **التاسع** ـ أنه رِفعة الذكر. حكاه الماورديّ. **العاشر** ـ أنه نور في قلبك دلك عليّ، وقطعك عما سوايَ. وعنه: هو الشفاعة؛ وهو الحادي عشر. وقيل: معجزات الربّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك؛ حكاه

(١) في «صحيح مسلم» طبع الآستانة وبولاق: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى...» الحديث. (٢) أي ينتزع ويقتطع.

(٣) في بعض نسخ الأصل: «تسهيل».

الثعلبيّ، وهو الثاني عشر. **الثالث عشر** - قال هلال بن يِساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقيل: الفقه في الدين. وقيل: الصلوات الخمس؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ٱبن إسحاق: هو العظيم من الأمر؛ وذكر بيت لبِيد:

وصاحب مَلْحوبٍ فُجِعْنا بفقدِهِ وعِندَ الرَّداعِ بيت آخرَ كَوْثَر

أي عظيم[١].

قلت: أصح هذه الأقوال الأوّل والثاني؛ لأنه ثابت عن النبيّ ﷺ نص في الكوثر. وسمِع أنس قوماً يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمَارَوْن في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي، ما تصلّي ٱمرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقِيها من حوض النبيّ ﷺ. وفي حوضه يقول الشاعر:

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا وأنـتَ حَقًّـا حبيـبُ بـارِيكَـا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه ﷺ تسليماً كثيراً.

[٢] ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك؛ كذا رواه الضحاك عن ٱبن عباس. وقال قتادة وعطاء وعِكرمة: ﴿فصل لِربك﴾ صلاة العيد يوم النحر. ﴿وٱنْحَرْ﴾ نُسُكك. وقال أنس: كان النبيّ ﷺ ينحر ثم يصلي، فأُمر أن يُصَلِّي ثم يَنْحَر. وقال سعيد بن جبير أيضاً: صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجَمْعٍ[٢]، وٱنحرِ البُدْن بِمنًى. وقال سعيد بن جبير أيضاً: نزلت في الحُدَيْبِيَةِ حين حُصِر النبيّ ﷺ عن البيت، فأمره الله تعالى أن يُصَلِّيَ ويَنْحَر البُدْن وينصرف؛ ففعل ذلك. قال ٱبن العربي: «أما من

(١) ملحوب: ماء لبني أسد بن خزيمة. وصاحبه: عوف بن الأحوص. والرداع (بالكسر): اسم ماء أيضاً. والكوثر أيضاً: السيد الكثير الخير.
(٢) جمع: المزدلفة.

قال: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾: الصلوات الخمس؛ فلأنها ركن العبادات، وقاعدة الإسلام، وأعظم دعائم الدين. وأما من قال: إنَّهَا صلاة الصبح بالمزدَلِفة؛ فلأنها مقرونة بالنحْر، وهو في ذلك اليوم، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرَها؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحْر)».

قلت: وأما من قال إنها صلاة العِيد؛ فذلك بغير مكة؛ إذ ليس بمكة صلاة عيدٍ بإجماع، فيما حكاه ٱبن عمر. قال ابن العربيّ: «فأما مالك فقال: ما سمعت فيه شيئاً، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحْر، والنحْر بعدها». وقال عليّ رضي الله عنه ومحمد بن كعب: المعنى ضع اليُمْنَى على اليسرى حِذاء النحْر في الصلاة. ورُوِي عن ابن عباس أيضاً. وروي عن عليّ أيضاً: أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره. وكذا قال جعفر بن عليّ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ قال: يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر. وعن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ قال النبيّ ﷺ لجبريل: «ما هذه النحِيرة التي أمرني الله بها»؟ قال: «ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة، أن ترفع يديكَ إذا كَبّرتَ وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإنّ لكل شيء زينة، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة». وعن أبي صالح عن ٱبن عباس قال: ٱستَقْبِل القبلة بنحرك؛ وقاله الفرّاء والكلبيّ وأبو الأحوص. ومنه قول الشاعر:

أبا حكم ما أَنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ وسَيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المُتَنَاحِرِ[١]

أي المتقابل. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا[٢] تتناحر؛ أي نتقابل، نحر هذا بنحر هذا؛ أي قُبالته. وقال ٱبن الأعرابيّ: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المِحراب؛ من قولهم: منازلهم تتناحر؛ أي تتقابل. ورُوي عن عطاء قال: أمره أن يستوي بين السجدتين

(١) في «اللسان»: نحر: (هل) في موضع (ما).

(٢) الذي في كتاب الفراء: «منازلنا تتناحر: نحر هذا. . . أي قبالته». وفيه تحريف. والذي في «اللسان»: وقال الفراء: «سمعت بعض العرب يقول: منازلهم تتناحر: هذا بنحر هذا؛ أي قبالته».

جالساً حتى يبدو نحره. وقال سليمان التَّيمِيّ: يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك. وقيل: ﴿فَصَلِّ﴾ معناه: وٱعبد. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر. فَصَلِّ لِربك وَٱنْحَرْ﴾ يقول: إن ناساً يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله؛ وقد أعطيناك الكوثر، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لِلَّه. قال ٱبن العربيّ: «والذي عندي أنه أراد: ٱعبد ربك، وٱنحر له، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالْحَرَى[1] أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخُصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير، الذي أعطاكه الله، أو النهر الذي طِينه مسك، وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازِيَ هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بَدَنة، فذلك يبعد في التقدير والتدبير، وموازنة الثواب للعبادة». والله أعلم.

الثانية ـ قد مضى القول في سورة ﴿الصَّافات﴾[2] في الأُضحية وفضلها، ووقت ذبحها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. وذكرنا أيضاً في سورة ﴿الحج﴾[3] جملة من أحكامها. قال ٱبن العربي: «ومن عجيب الأمر: أن الشافعي قال: إن من ضحَّى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿فَصَلِّ لِربكَ وٱنحرْ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيّ ﷺ (في البخاريّ وغيره، عن البراء بن عازب، قال): «أوّل ما نَبْدَأ به في يومنا هذا: أن نُصَلِّيَ، ثم نرجعَ فننحر، من فعل فقد أصاب نُسُكا، ومن ذَبَح قبل، فإنما هو لحم قدّمه لأهله، ليس من النُّسك في شيء». وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة».

الثالثة ـ وأما ما روي عن عليّ عليه السلام ﴿فصل لِربك وٱنحر﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة (خرّجه الدارَقُطْنيّ)، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: **الأوّل** ـ لا توضع فريضة ولا نافلة؛ لأنّ ذلك من باب الاعتماد. ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل. **الثاني** ـ لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة استعانة؛ لأنه موضع ترخص. **الثالث** ـ يفعلها في الفريضة والنافلة. وهو الصحيح؛ لأنه ثبت أن رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

---

(١) في «اللسان»: (حري): والحري: الخليق، كقولك: بالحري أن يكون ذلك. وإنه لحري بكذا، وحر، وحريّ.

(٢) راجع ١٠٧/١٥ وما بعدها.

(٣) راجع ٤٢/١٢ وما بعدها.

آبن حجر وغيره. قال آبن المنذر: وبه قال مالك وأحمد وإسحاق، وحكي ذلك عن الشافعيّ. وآستحب ذلك أصحاب الرأي. ورأت جماعة إرسال اليد. وممن روينا ذلك عنه آبن المنذر[١] والحسن البصريّ وإبراهيم النخعِيّ.

قلت: وهو مَرْوِيّ أيضاً عن مالك. قال آبن عبد البر: إرسال اليدين، ووضع اليمنى على الشمال، كل ذلك من سنة الصلاة.

الرابعة ـ وآختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره. وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل: فوق السرّة. وقال: لا بأس إن كانت تحت السرّة. وقالت طائفة: توضع تحت السرّة. وروي ذلك عن عليّ وأبي هُريرة والنخعيّ وأبي مِجلَز. وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق.

الخامسة ـ وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود، فآختلف في ذلك؛ فروى الدّارقطنِيُّ من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إذا دخل في الصلاة، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، وإذا سجد. لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهاب الثقفيّ. والصواب: من فعل أنس. وفي «الصحيحين» من حديث آبن عمر، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه، حتى تكونا حذو منكِبيه، ثم يكبر، وكان يفعل ذلك حين يكَبِّر للركوع، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع، ويقول سمِع الله لمن حمِده. ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود. قال آبن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد، والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وحكى آبن وهب عن مالك هذا القول، وبه أقول؛ لأنه الثابت عن رسول الله ﷺ. وقالت طائفة : يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأي.

(١) في بعض الأصول: «ابن الزبير».

قلت: وهو المشهور من مذهب مالك؛ لحديث ٱبن مسعود، (خرّجه الدّارقطنِيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل). قال: حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: صليت مع النبيّ ﷺ ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلاً عند التكبيرة الأولى في ٱفتتاح الصلاة. قال إسحاق: به نأخذ في الصلاة كلها. قال الدّارقطنِيّ: تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفاً) عن حماد عن إبراهيم. وغير حماد يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله، من فعله، غير مرفوع إلى النبيّ ﷺ؛ وهو الصواب. وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البَرَاء: أنه رأى النبيّ ﷺ حين ٱفتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِيَ بهما أُذنيه، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة. قال الدّارقطنيّ: [وإنما][1] لقن يزيد في آخر عمره: «ثُمَّ لَمْ يَعُدْ»؛ فتلقنه وكان قد ٱختلط. وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك: لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة. قال ٱبن القاسم: ولم أر مالكاً يرفع يديه عند الإحرام. قال: وأَحبُّ إليّ ترك رفع اليدين عند الإحرام.

[٣] ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي مبغِضك؛ وهو العاص بن وائل. وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات، ثم مات البنون وبقي البنات: أبتر. فيقال: إن العاص وقف مع النبيّ ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفاً؟ فقال: مع ذلك الأبتر. وكان قد تُوُفِّي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ، وكان من خديجة؛ فأنزل الله جل شأنه: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي المقطوع ذِكره من خير الدنيا والآخرة. وذكر عكرمة عن ٱبن عباس قال: كان أهل الجاهلية إذا مات ٱبن الرجل قالوا: بُتِر فلان. فلما مات إبراهيم بن النبيّ ﷺ خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بتِر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه:

(١) الزيادة من الدارقطني.

﴿إِنّ شانِئك هو الأَبْتَر﴾ يعني بذلك أبا جهل. وقال شِمر بن عطية: هو عقبة بن أبي مُعَيط. وقيل: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: قد بُتِر فلان. فلما مات لرسول الله ﷺ ٱبنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتِر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدّيّ وٱبن زيد. وقيل: إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسَّدانة والحِجابة واللّواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِرُ[1] الأُبَيْتِرُ من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِن الكِتابِ يُؤمِنون بِالجِبتِ[2] والطاغوتِ﴾... الآية. ونزلت في قريش: ﴿إِن شانِئَك هو الأَبْتر﴾؛ قاله ٱبن عباس أيضاً وعكرمة. وقيل: إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: ٱنبتر منا محمد؛ أي خالفنا وٱنقطع عنا. فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب. قال أهل اللغة: الأبتر من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له. وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره، فهو أبتر. والبَتْر: القطع. بَتَرْت الشيء بَتْراً: قطعته قبل الإتمام. والانبتار: الانقطاع. والباتر: السيف القاطع. والأَبْتَر: المقطوع الذَّنَب. تقول منه: بُتِر (بالكسر) يُبْتَرُ بَتْراً. وفي الحديث «ما هذه البُتَيراء». وخطب زياد خُطبته البتراء؛ لأنه لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبيّ ﷺ. ٱبن السكيت: الأبتران: العَيْر والعَبْد؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما. وقد أبتره الله: أي صيره أبتر. ويقال: رجل أُباتِرُ (بضم الهمزة): الذي يقطع رحِمه. قال الشاعر:

لَئِيـمٌ نَـزَتْ فـي أَنْفِـهِ خُنْـزُوانَـةٌ ... على قَطْعِ ذِي القُرْبَى أَحَذُّ أُباتِرُ

والبُتْرية: فِرقة من الزيدية؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد، ولقبه الأبتر. وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك. قيل: هو النخلة تبقى منفردة، ويدِق أسفلها ويتقشر؛ يقال: صَنْبُرَ أسفلُ النخلة.

(١) في نسخة الصنبور. وسيأتي للمصنف بيان معناه.

(٢) آية ٥١ سورة النساء.

وقيل: هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ. وقيل: هو مَثْعَب[١] الحوضِ خاصّة؛ حكاه أبو عبيد. وأنشد:

مـــا بيـــن صُنْبـــورٍ إلَـــى الإزاءِ[٢]

والصُّنبور: قَصَبة تكون في الإداوة[٣] من حديد أو رصاص يشرب منها. حكى جميعه الجوهريّ رحمه الله. والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة الكافرون

وهي مكية؛ في قول ٱبن مسعود والحسن وعِكرمة. ومدنِية؛ في أحد قولي ٱبن عباس وقتادة والضحاك. وهي ست آيات.

وفي الترمذيّ من حديث أنس: أنها تعدِل ثلث القرآن، وفي كتاب (الرد لأبي بكر الأنباريّ): أخبرنا عبد الله بن ناجية قال: حدّثنا يوسف قال حدّثنا القعنبِيّ وأبو نعيم عن موسى بن وردان عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكافِرونَ﴾ تعدِل ربع القرآن». ورواه موقوفاً عن أنس. وخرّج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ٱبن عمر قال: صلى النبيّ ﷺ بأصحابه صلاة الفجر في سفر، فقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّها الكافرونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن وربعه». وروى جُبير بن مطعِم أن النبيّ ﷺ قال: «أتحب يا جبير إذا خرجتَ سفَراً أن تكون من أمثل أصحابِك هيئة وأكثرِهم زاداً»؟ قلت: نعم. قال: «فاْقرأ هذه السور الخمس من أوّل ﴿قل يا أيها الكافرون ـ إلى ـ قل أعوذ برب الناس﴾ وٱفتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم». قال: فوالله لقد كنت غير كثيرِ المال، إذا سافرت أكون أَبَذَّهم[٤] هَيئة، وأقلهم زاداً، فمذ قرأتهنّ صرت من أحسنهم هيئة، وأكثرِهم زاداً، حتى أرجع من سفري ذلك.

(١) مثعب الحوض: مسيله.
(٢) الإزاء: مصب الماء في الحوض.
(٣) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.
(٤) بذ الهيئة: رثها.

وقال فَرْوة بن نَوْفل الأشجعيّ: قال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني. قال: «اقرأ عند مَنامك ﴿قُلْ يَا أَيُّها الْكَافِرونَ﴾ فإنها براءة من الشرك». خرّجه أبو بكر الأنباريّ وغيره. وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشدّ غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك. وقال الأصمعيّ: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَا أَيُّها الكافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقِشتان؛ أي أنهما تُبرئان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشْقِشُ الهِناء[1] الجربَ فيبرئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال للقرح والجُدرِيّ إذا يبِس وتقرَّف، وللجَرب في الإبل إذا قفل[2]: قد تَوَسَّف جلدُه، وتقشّر جِلده، وتَقَشْقَش جِلدُه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾.

[٢] ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾.

ذكر ابن إسحاقَ وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغِيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خَلَف؛ لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هَلُمَّ فلنعبدْ ما تعبد، وتَعْبَدْ ما نَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شاركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه. وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك، كنت قد شرِكتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ يَا أَيُّها الكافِرُونَ﴾. وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لَوِ اسْتَلَمْتَ[3] بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبيّ ﷺ بهذه السورة، فيئسوا منه، وآذَوه؛ وآذَوا أصحابه. والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود

---

(١) الهناء (بالكسر): القطران. (٢) قفل الجلد: يبس.
(٣) استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليد.

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأيّ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم. ونحوه عن الماورديّ: نزلت جواباً، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنِين، لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن، فعبد الله، ومنهم من مات أو قُتِل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر بن الأنباريّ: وقرأ من طعن في القرآن: قُلْ لِلَّذين كَفَروا ﴿لا أَعْبد ما تَعْبُدون﴾ وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك ٱفتراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يُذِلّ نبيه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزرِيّ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لِب وحِجاً. وذلك أن الذي يدّعيه من اللفظ الباطل، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فمعنى قراءتنا: قل للذين كفروا: يا أيها الكافرون؛ دليل صحة هذا: أن العربيّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فمعناه قلْ لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم: ﴿يا أيها الكافرون﴾. وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكفر، ويدخلوا في جملة أهله إلاّ وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذِية. فمن لم يقرأ ﴿قُلْ يا أَيُّها الكافِرونَ﴾ كما أنزلها الله، أسقط آية لرسول الله ﷺ. وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه، التي منحه الله إياها، وشرّفه بها. وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا، ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: ﴿فبِأيّ آلاءِ ربكما تكذبانِ﴾. ﴿ويل يومئِذٍ لِلمكذبِين﴾. ﴿كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون﴾. و ﴿فإن مع العسرِ يسرا. إن مع العسرِ يسرا﴾. كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل: إِزْمِ إِزْمِ، أَعجَلْ أَعجَلْ؛ ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح: «فلا آذن، ثم لا آذن، إنما فاطمة بضعة مني». خرّجه مسلم(١). وقال الشاعر:

هــلا ســألــتِ جمــوعَ كِنــدة ... يــومَ ولَّــوْا أَيْــنَ أَيْنَــا

وقال آخر:

يــا لَبَكْــرٍ أَنْشِــروا لِــي كُلَيْبــاً ... يــا لَبَكْــرٍ أَيــنَ أَيــنَ الفِــرارُ(٢)

وقال آخر:

يــا علقمــهْ يــا علقمــهْ يــا علقمــهْ ... خيــرَ تميــمٍ كُلِّهــا وأكْــرَمَــهْ

وقال آخر:

يــا أَقــرعُ بــنَ حــابــسٍ يــا أَقْــرَعُ ... إنــكَ إنْ يُصْــرَعِ أخــوكَ تُصْــرَعُ(٣)

وقال آخر:

أَلاَ يا اَسلَمِي ثم اَسلَمِي ثُمَّتَ اَسْلَمِي ... ثــلاثَ تَحِيَّــاتٍ وإنْ لَــمْ تَكَلَّــمَ

ومثله كثير. وقيل: هذا على مطابقة قولهم: تَعبُد آلهَتنا ونعبدُ إلَهَكَ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك، فنجرِي على هذا أبداً سَنَةً وسنة. فأجيبوا عن كل ما قالوه بضدّه؛ أي إن هذا لا يكون أبداً. قال ٱبن عباس: قالت قريش للنبيّ ﷺ: نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجلٍ بمكة، ونزوّجك مَنْ شئت، ونطأ عقِبَك؛ أي نمشِي خلفَك، وتَكُفُّ عن شتم آلهتنا، فإن لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلة واحدة هي لنا ولك صلاح؛ تعبدُ آلهتنا (اللات والعُزّى) سنة،

---

(١) لفظ الحديث كما في «صحيح مسلم» (باب الفضائل): «... أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ٱبنتي، وينكح ٱبنتهم، فإنما ٱبنتي بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها» والبضعة (بالفتح وقد تكسر): القطعة من اللحم.

(٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بثأر أخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة في «خزانة الأدب»). (٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلي. وقيل لعمرو بن خثارم البجلي. (راجع «خزانة الأدب» في الشاهد الحادي والثمانين بعد الخمسمائة).

ونحن نعبد إلهك سنة[١]؛ فنزلت السورة. فكان التكرار في ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرة بعد مرة. والله أعلم. وقيل: إنما كرّر بمعنى التغليظ. وقيل: أي ﴿لا أعبد﴾ الساعة ﴿ما تعبدون. ولا أنتم عابِدون﴾ الساعة ﴿ما أعبد﴾. ثم قال: ﴿ولا أنا عابِد﴾ في المستقبل ﴿ما عبدتم. ولا أنتم﴾ في المستقبل ﴿عابِدون ما أعبد﴾. قاله الأخفش والمبرّد. وقيل: إنهم كانوا يعبدون الأوثان، فإذا ملوا وَثَناً، وسئِموا العبادة له، رفضوه، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه، ورفعوا تلك، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها؛ فأُمِر عليه السلام أن يقول لهم: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ اليوم من هذه الآلهة التي بين أيديكم. ثم قال: ﴿ولا أنتم عابِدون ما أعبد﴾ وإنما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه، وهو عندكم الآن. ﴿ولا أنا عابِد ما عبدتم﴾ أي بالأمس من الآلهة التي رفضتموها، وأقبلتم على هذه. ﴿ولا أنتم عابِدون ما أعبد﴾ فإني أعبد إلٰهي. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابِدون ما أعبد﴾ في الاستقبال. وقوله: ﴿ولا أنا عابِد ما عبدتم﴾ على نفي العبادة منه لِما عبدوا في الماضي. ثم قال: ﴿ولا أنتم عابِدون ما أعبد﴾ على التكرير في اللفظ دون المعنى، من قِبل أن التقابل يوجب أن يكون: ولا أنتم عابدون ما عبدت، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد، إشعاراً بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر. وأكثر ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل. وقال: ﴿ما أعبدُ﴾، ولم يقل: مَنْ أعبد؛ ليقابل به ﴿ولا أنا عابِد ما عبدتم﴾ وهي أصنام وأوثان، ولا يصلح فيها إلا ﴿ما﴾ دون ﴿مَنْ﴾ فحُمِل الأوّل على الثاني، ليتقابل الكلام ولا يتنافى. وقد جاءت ﴿ما﴾ لمن يعقل. ومنه قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا. وقيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه، فأنتم كاذبون؛ لأنكم تعبدونه مشركين. فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم؛ فـ ﴿ـما﴾ مصدرية. وكذلك

(١) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي: ثم تعبد آلهتنا، ونعبد إلهك، فنجري على هذا أبداً: سنة وسنة، فنزلت... الخ.

﴿ولا أنتم عابِدون ما أعبد﴾ مصدرية أيضاً؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، التي هي توحيد.

[٦] ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

فيه معنى التهديد؛ وهو كقوله تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾[1] أي إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيف. وقيل: السورة كلها منسوخة. وقيل: ما نسخ منها شيء لأنها خبر. ومعنى ﴿لكم دِينكم﴾ أي جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. وسمي دينهم ديناً، لأنهم ٱعتقدوه وَتَولَّوه. وقيل: المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي؛ لأن الدِّين الجزاء. وفتح الياء من ﴿ولِيَ دِينِ﴾ نافع، والبزي عن ٱبن كثير بٱختلاف عنه، وهشام عن ٱبن عامر، وحفص عن عاصم. وأثبت الياء في ﴿ديني﴾ في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب؛ قالوا: لأنها ٱسم مثل الكاف في دينكم، والتاء في قمت. الباقون بغير ياء، مثل قوله تعالى: ﴿فَهُو يَهدِينِ﴾[2]. ﴿فاتقُوا اللّهَ وأَطِيعونِ﴾[3] ونحوه، اكتفاء بالكسرة، وٱتباعاً لخط المصحف؛ فإنه وقع فيه بغير ياء.

تفسير سورة النصر

وهي مدنِية بإجماع. وتسمى سورة «التوديع». وهي ثلاث آيات.

وهي آخر سورة نزلت جميعاً؛ قاله ٱبن عباس في صحيح مسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.

النصر: العَوْن؛ مأخوذ من قولهم: قد نَصَرَ الغيثُ الأرض: إذا أعان على نباتها، من قَحْطها. قال الشاعر[4]:

(١) آية ٥٥ سورة القصص.
(٢) آية ٧٨ سورة الشعراء.
(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران.
(٤) هو الراعي يخاطب خيلاً. (عن اللسان مادة نصر).

إذا انسلخ الشهر الحرام فودِّعِي بلادَ تميمٍ وٱنْصُرِي أرضَ عامِرِ

ويروى:

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي بلادَ تميمٍ وٱنصري أرضَ عامِرِ

يقال: نصره على عدوّه ينصره نصراً؛ أي أعانه. والاسم النُّصْرة. وٱستنصره على عدوّه: أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً. ثم قيل: المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش؛ الطبريّ. وقيل: نصره على من قاتله من الكفار؛ فإنه عاقبة النصر كانت له. وأما الفتح فهو فتح مكة؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وقال ٱبن عباس وسعيد بن جبير: هو فتح المدائن والقصور. وقيل: فتح سائر البلاد. وقيل: ما فتحه عليه من العلوم. و ﴿إذا﴾ بمعنى قد؛ أي قد جاء نصر الله؛ لأن نزولها بعد الفتح. ويمكن أن يكون معناه: إذا يجيئك.

[٢] ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ورأيت الناس ﴾ أي العرب وغيرهم. ﴿ يدْخُلُون فِي دِينِ اللَّهِ أفواجاً ﴾ أي جماعات: فوجاً بعد فوج. وذلك لما فتحت مكة قالت العرب: أمّا إذا ظفِر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان[١]. فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً: أمّةً أمّةً. قال الضحاك: والأمّة: أربعون رجلاً. وقال عكرمة ومقاتل: أراد بالناس أهل اليمن. وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين. بعضهم يؤذنون، وبعضهم يقرؤون القرآن، وبعضهم يُهَلِّلون؛ فسُرّ النبيّ ﷺ بذلك، وبكى عمر وٱبن عباس. ورَوى عكرمة عن ٱبن عباس أن النبيّ ﷺ قرأ: ﴿ إذَا جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحُ ﴾ وجاء أهل اليَمَنِ رَقيقةً أَفْئِدَتُهُمْ، لَيِّنةً طِباعهم، سَخِية قُلوبهم، عظيمةً خشيتُهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً». وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة. الفِقه يَمَانٍ، والحكمة يَمَانِية». ورُوي أنه

(١) أي طاقة.

ﷺ قال: «إني لأجدُ نَفَس[1] ربكم مِن قِبلِ اليَمَنْ» وفيه تأويلان: أحدهما ـ أنه الفرج؛ لتتابع إسلامهم أفواجاً. والثاني ـ معناه أن الله تعالى نَفَّس الكرب عن نبيه ﷺ بأهل اليمن، وهم الأنصار. وروى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماورديّ، ولفظ الثعلبيّ: وقال أبو عمار حدّثني جابر لجابر، قال: سألني جابر عن حال الناس، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم؛ فجعل يبكي ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناسَ دَخَلُوا في دين الله أفواجاً، وسَيَخْرُجونَ من دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً».

[٣] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِحْ بِحَمْدِ ربكَ واسْتَغْفِرْهُ﴾ أي إذا صَليت فأكثر من ذلك. وقيل: معنى سبح: صَلِّ؛ عن ابن عباس. ﴿بَحَمْدِ ربك﴾ أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح. ﴿واسْتَغْفِرْهُ﴾ أي سلِ الله الغفران. وقيل: ﴿فسبح﴾ المراد به: التنزيه؛ أي نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له. ﴿واستَغفِرْه﴾ أي سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر. والأوّل أظهر. روى الأئمة (واللفظ للبخاريّ) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿إِذَا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والفَتْحُ﴾ إلا يقول: «سُبْحَانَك رَبَّنا وبَحَمْدك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي». وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكْثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحانكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». يتأوّل القرآن. وفي غير الصحيح: وقالت أمّ سَلَمة: كان النبيّ ﷺ آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ وبحمدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ

---

(١) قال ابن الأثير: «هو مستعار من نفس الهواء الذي يردّه التنفس إلى الجوف، فيبرّد من حرارته ويعدّلها. أو من نفس الريح الذي يتنسمه، فيستروح إليه. أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها، فيتفرج به عنه. يقال: أنت في نفس من أمرك، واعمل وأنت في نفس من عمرك؛ أي في سعة وفسحة، قبل المرض والهرم ونحوهما.

إليه ـ قال ـ فإنّي أُمِرت بها ـ ثم قرأ ـ ﴿إِذَا جَاءَ نصرُ اللَّهِ والفَتْحُ﴾ إلى آخرها. وقال أبو هريرة: ٱجتهدَ النبيّ ﷺ بعد نزولها، حتى تَوَرَّمت قدماه. ونَحَل جسمه، وقل تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عِكرمة: لم يكن النبيّ ﷺ قَطُّ أشد ٱجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها. وقال مقاتل: لما نزلت قرأها النبيّ ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص، ففرِحوا وٱستبشروا، وبكى العباس؛ فقال له النبيّ ﷺ: «ما يُبْكيكَ يا عَمُّ؟» قال: نُعِيَتْ إليكَ نَفْسُك. قال: «إنه لكما تقول»؛ فعاش بعدها ستين[1] يوماً، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً. وقيل: نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق، في حِجة الوداع، فبكى عُمر والعباس، فقيل لهما: إن هذا يوم فرح، فقالا: بل فيه نَعْي النبيّ ﷺ. فقال النبيّ ﷺ: «صَدَقتما، نُعِيت إليّ نفسي». وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر، ويأذن لي معهم. قال: فوجِد[2] بعضهم من ذلك، فقالوا: يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله! فقال لهم عمر: إنه من قد علمتم[3]. قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة ﴿إذا جاء نصر اللَّهِ والفتح﴾ فقالوا: أمر الله جل وعز نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره، وأن يتوب إليه. فقال: ما تقول يأبن عباس؟ قلت: ليس كذلك، ولكن أخبر الله نبيه ﷺ حضورَ أجله، فقال: ﴿إذا جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحُ﴾، فذلك علامة موتك. ﴿فَسبِّحْ بِحمدِ رَبِّكَ وٱستغفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً﴾. فقال عمر رضي الله عنه: تلومونني عليه؟ وفي البخاريّ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. ورواه الترمذيّ، قال: كان عمر يسألني مع أصحاب النبيّ ﷺ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتسأله ولنا بنون مثله؟ فقال له عمر: إنه من حيث نعلم. فسأله عن هذه الآية: ﴿إذا جاء نصر اللَّهِ والفتح﴾. فقلت: إنما هو أجل رسولِ الله ﷺ، أعلمه إياه؛ وقرأ السورة إلى آخرها. فقال له عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم. قال: هذا

---

(١) الذي في الطبري والكشاف: «سنتين».

(٢) أي غضب.

(٣) أي من جهة ذكائه وزيادة معرفته. أو من جهة قرابته من رسول الله ﷺ.

حديث حسن صحيح. فإن قيل: فماذا يغفر للنبيّ ﷺ حتى يؤمر بالاستغفار؟ قيل له: كان النبيّ ﷺ يقول: في دعائه: «رَبِّ ٱغفِرْ لِي خَطِيئَتي وجَهْلِي، وإسْرافِي في أَمْرِي كُلِّه، وما أنت أعلم به مني. اللهم ٱغفرْ لي خَطَئي وعَمْدِي، وجهلِي وهَزْلي، وكل ذلك عندي. اللهم ٱغفر لي ما قدّمت وما أخرتُ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت، أنت المقدِّم وأنت المُؤَخِّر، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير». فكان ﷺ يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذُنُوبا. ويحتمل أن يكون بمعنى: كُنْ متعَلقا به، سائلاً راغباً، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال. وقيل: الاستغفار تَعَبُّد يجب إتيانه، لا للمغفرة، بل تعبداً. وقيل: ذلك تنبيه لأمته، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار. وقيل: ﴿وٱستغفره﴾ أي استغفر لأمتك. ﴿إنه كان تَوَّاباً﴾: أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم. وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار، فما الظن بغيره؟ روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكْثر من قول «سُبحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ اليهِ». قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول «سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْده، أستغفر الله وأتوب إليه»؟ فقال: «خَبَّرَنِي رَبِّي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سُبْحان اللَّهِ وبِحَمْدِه، أستغفر الله وأتوب إليها، فقد رأيتها: ﴿إذا جاءَ نصْرُ اللَّهِ والفتحُ﴾ ـ فتح مكة ـ ﴿ورأيتَ الناسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً. فَسَبِّحْ بِحمدِ ربك واسْتَغْفِرْهُ إنهُ كانَ تَوَّاباً﴾». وقال ٱبن عمر: نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوَداع، ثم نزلت ﴿اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[١] فعاش بعدهما النبيّ ﷺ ثمانين يوماً. ثم نزلت آية الكَلالة[٢]، فعاش بعدها خمسين يوماً. ثم نزل ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رسول مِن أنفسِكم﴾[٣] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً. ثم نزل ﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعون فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[٤] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل سبعة أيام. وقيل غير هذا مما تقدّم في ﴿البقرة﴾ بيانُه[٥]، والحمد لله.

---

(١) آية ٣ سورة المائدة.

(٢) آخر سورة النساء.

(٣) آية ١٢٨ سورة التوبة.

(٤) آية ٢٨١ سورة البقرة.

(٥) راجع ٣/ ٣٧٥.

سورة تبت

وهي مكية بإجماع وهي خمس آيات

[١] ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ في «الصحيحين» وغيرهما (واللفظ لمسلم) عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرتَك الأَقْرَبِينَ[١]. ورَهْطَكَ مِنْهُمُ المخلِصين[٢]﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صَعِد الصَّفا، فهتَفَ: يا صَباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا محمد. فاجتمعوا إليه. فقال: «يا بَني فُلان، يا بني فلان، يا بني فُلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدِ المطلب!» فاجتمعوا إليه. فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي»؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لَكُمْ بينَ يَديّ عَذاب شَدِيد». فقال أبو لهب: تبًّا لَكَ!، أما جمعتنا إلاَّ لهذا! ثم قام، فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وقَدْ تب﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة. زاد الحميدي وغيره: فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه، وفي يدها فِهر[٣] من حجارة، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر. فقالت: يا أبا بكر، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه، والله إني لشاعرة:

مُـذَمَّـماً عَصَيْنَـا ❊ وأمْـرَهُ أَبَيْنَـا ❊ وَدِينَـه قَلَيْنَـا

---

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء.

(٢) قال النووي في «شرح مسلم»: وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته.

(٣) الفهر (بالكسر): الحجر ملء الكف وقيل الحجارة مطلقاً.

ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: «ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها عني». وكانت قريش إنما تسمي رسول الله ﷺ مُذَمَّما، يسبونه، وكان يقول: «ألا تعجبون لِما صرف الله عني من أذى قريش، يَسُبّون ويهجون مذمما وأنا محمد». وقيل: إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبيّ ﷺ فقال: ماذا أُعطَى إن آمنتُ بك يا محمد؟ فقال: «كما يُعْطَى المسلمون» قال ما لي عليهم فضل؟!. قال: «وأيّ شيء تَبْغي»؟ قال: تَبًّا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء؛ فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يدا أبـي لهبٍ وتَبَّ﴾. وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النبيّ ﷺ وفد انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله ﷺ ويقولون له: أنت أعلم به منا. فيقول لهم أبو لهب: إنه كَذّاب ساحر. فيرجعون عنه ولا يَلْقونه. فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، ونسمع كلامه فقال لهم أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه فَتبًّا له وتَعْساً. فأُخبِر بذلك رسول الله ﷺ، فاكتأب لذلك؛ فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ . . . السورة. وقيل: إن أبا لهب أراد أن يرمي النبيّ ﷺ بحجر، فمنعه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهبٍ وتبَّ﴾ للمنع الذي وقع به. ومعنى ﴿تَبَّتْ﴾: خَسِرت؛ قاله قتادة. وقيل: خابت؛ قال ابن عباس. وقيل ضلّت؛ قاله عطاء. وقيل: هلكت؛ قاله ابن جبير. وقال يمان بن رِئاب: صَفِرت من كل خبر. حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفاً يقول:

لَقَـــدْ خَلَّـــوْكَ وانْصَـــرَفُـــوا فمــــا آبُـــوا ولا رَجَعُـــوا

ولـــم يُـــوفُـــوا بنَـــذْرِهِـــمْ فَيَـــا تَبًّـــا لِمَـــا صَنَعُـــوا[1]

وخص اليدين بالتباب، لأن العمل أكثرَ ما يكون بهما؛ أي خسرتا وخسر هو. وقيل: المراد باليدين نفسه. وقد يعبَّر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿بما قَدَّمتْ يداك﴾[2]

(١) في بعض نسخ الأصل:

فتبـــــا للــــــذي صنعـــــــوا

(٢) آية ١٠ سورة الحج.

أي نفسك. وهذا مَهْيَع[١] كلام العرب؛ تعبِّر ببعض الشيء عن كله؛ تقول: أصابته يد الدهر، ويد الرزايا والمنايا؛ أي أصابه كل ذلك. قال الشاعر:

لَمَّـا أَكَبَّـتْ يَـدُ الـرَّزَايَـا عَلَيْـهِ نَـادَى أَلاَ مُجِيـرُ

﴿وَتَبّ﴾ قال الفرّاء: التبُّ الأول: دعاء والثاني خبر؛ كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. وفي قراءة عبد الله وأبيّ ﴿وَقَد تَبَّ﴾. وأبو لهب آسمه عبد العُزَّى، وهو آبن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ. وآمرأته العوراء أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، وكلاهما، كان شديد العداوة للنبيّ ﷺ. قال طارق بن عبد الله المحاربيّ: إني بسوق ذي المجَاز، إذ أنا بإنسان يقول: «يا أيها الناس، قولُوا لا إلَه إلاّ اللَّهُ تُفْلِحُوا»، وإذا رجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت مَنْ هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي. وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب. وروى عطاء عن ابن عباس قال قال أبو لهب: سَحَرَكم محمد! إن أحدنا ليأكل الجَذَعة[٢]، ويشرب العُسّ[٣] من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قدا أشبعكم من فخِذ شاة، وأرواكم من عُسّ لبن.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿أَبِي لهبٍ﴾ قيل سُمِّيَ باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه. وقد ظن قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كناه الله بأبى لهب ـ عند العلماء ـ لمعان أربعة: **الأول** ـ أنه كان اسمه عبد العزى، والعُزَّى: صنم، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم. **الثاني** ـ أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه؛ فصرح بها. **الثالث** ـ أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكْنِ عن أحد منهم. ويدلك على شرف الاسم على الكنية: أن الله تعالى يُسَمَّى ولاَ يُكَنَّى، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه، واستحالة نسبة الكنية إليه، لتقدّسه عنها. **الرابع** ـ أن

---

(١) يقال طريق مهيع: أي واضح واسع بين.

(٢) الجذعة: ولد الشاة في السنة الثانية.

(٣) العس (بالضم): القدح الكبير.

الله تعالى أراد أن يحقق نسبته؛ بأن يدخله النار، فيكون أبا لها؛ تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه. وقد قيل: اسمه كنيته. فكان أهله يسمونه (أبا لهب)، لتلهب وجهه وحسنه؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا: أبو النُّور، وأبو الضياء، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لَهَبٍ) الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم، وهو النار. ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقرّه. وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن. ﴿أَبِي لَهْبٍ﴾ بإسكان الهاء. ولم يختلفوا في ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أنها مفتوحة؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي.

الثالثة ـ قال ابن عباس: لما خلق الله عز وجل القلم قال له: اكتب ما هو كائن، وكان فيما كتب «تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ». وقال منصور: سُئِلَ الحسن عن قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ هل كان في أم الكتاب؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يَصْلَى النار؟ فقال: والله ما كان يستطيع ألاّ يصلاها، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه. ويؤيده قول موسى لآدم: أنت الذي خلَقَكَ اللَّهُ بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأسكنك جَنَّته، وأسْجَدَ لك ملائكته، خَيَّبْتَ[1] الناس، وأَخرجتهم من الجنة. قال آدم: وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه، وأعطاك التوراة، تَلُومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض. قال النبيّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ مُوسَى»[2]، وقد تقدّم[3] هذا. وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى: «بِكَمْ وجدتَ اللَّهَ كَتَبَ التوراةَ قبلَ أن يَخْلُقَنِي»؟ قال: «بألفي عام» قال: «فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾» قال: «نعم» قال: «أفتلومني على أمر وكتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفي عام». فَحَجَّ[4] آدمُ موسى. وفي حديث طاوُوس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة: «بأربعين عاماً».

(١) في «الأصول»: «أغويت».
(٢) أي غلبه بالحجة.
(٣) راجع ١١/٢٥٦.
(٤) أي غلبه بقوة حجته.

[٢] ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

أي ما دَفَعَ عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه. وقال مجاهد: من الولد؛ ووَلد الرجل من كَسْبه. وقرأ الأعمش ﴿وَمَا ٱكۡتَسَبَ﴾ ورواه عن ٱبن مسعود. وقال أبو الطُّفَيل: جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ٱبن عباس، فاقتتلوا، فقام ليحْجُزَ بينهم، فدفعه بعضهم، فوقع على الفِراش، فغضب ٱبن عباس وقال: أَخرجوا عني الكسبَ الخبيثَ؛ يعني ولده. وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولدي من كسبه». خرّجه أبو داود. وقال ٱبن عباس: لما أنذر رسول الله ﷺ عشيرته بالنار، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ٱبن أخي حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي؛ فنزل: ﴿ما أغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَبَ﴾. و ﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَا أَغْنَى﴾: يجوز أن تكون نفياً، ويجوز أن تكون ٱستفهاماً؛ أي أيّ شيء أغنى [عنه]؟ و ﴿ما﴾ الثانية: يجوز أن تكون بمعنى الذي، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً؛ أي ما أغنى عنه ماله وكسبه.

[٣] ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾.

أي ذات اشتعال وتلهُّب. وقد مضى في سورة ﴿المرسلات﴾[1] القول فيه. وقراءة العامة: ﴿سَيَصْلى﴾ بفتح الياء. وقرأ أبو رجاء والأعمش: بضم الياء. ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير، وحسين عن أبي بكر عن عاصم، ورويت عن الحسن. وقرأ أشهب العُقَيلي وأبو سَمَّال العَدَويّ ومحمد بن السَّمَيْقع ﴿سَيُصْلَى﴾ بضم الياء، وفتح الصاد، وتشديد اللام؛ ومعناها سَيُصْليه الله؛ من قوله: ﴿وتَصْلِيَة جَحِيم﴾[2]. والثانية من الإصلاء؛ أي يصليه الله؛ من قوله: ﴿فسوف نُصْلِيه ناراً﴾[3]. والأُولى هي الاختيار؛ لإجماع الناس عليها؛ وهي من قوله: ﴿إلاَّ من هو صالِ الجَحِيم﴾[4].

(١) راجع ١٩/ ١٦٠.
(٢) آية ٩٤ سورة الواقعة.
(٣) آية ٣٠ سورة النساء.
(٤) آية ١٦٣ سورة الصافات.

[٤] ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وامْرَأَتُهُ﴾ أم جميل. وقال ابن العربيّ: العوراء أم قبيح، وكانت عَوْراء. ﴿حَمَّالَةُ[١] الحَطَب﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّي: كانت تمشي بالنميمة بين الناس؛ تقول العرب: فلان يَحْطِب على فلان: إذا وَرَّشَ عليه[٢]. قال الشاعر:

إن بني الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ هُمْ الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ
عَليهِــمُ اللَّعنَــةُ تَتْــرَى والْحَــرَب[٣]

وقال آخر:

مِنَ البِيض لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ ولَمْ تَمْشِ بينَ الحيّ بالحَطَبِ الرَّطْبِ

يعني: لم تمش بالنمائم، وجعل الحطب رَطْباً ليدل على التدخين، الذي هو زيادة في الشر. وقال أكثم بن صَيْفِيّ لبنيه: إياكُمْ والنَّميمةَ! فإنها نارٌ مُحْرِقَة، وإنّ النَّمام ليَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَل الساحر في شهر. أخذه بعض الشعراء فقال:

إنَّ النميمـةَ نـارٌ وَيْـك مُحْـرِقَـةٌ فَفِرَّ عَنها وجانبْ مَنْ تَعاطَاهَا

ولذلك قيل: نار الحقد لا تخبو. وثَبَتَ عن النبيّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجنة نَمّام». وقال: «ذُو الوَجْهَيْن لا يكون عند الله وجيهاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «مِنْ شَرّ الناسِ ذُو الوَجْهَيْنِ: الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بوَجْهٍ، وهَؤُلاَءِ بوَجْهٍ». وقال كعب الأحبار: أصاب بني إسرائيل قحط، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يستسقون فلم يُسْقَوا. فقال موسى: «إلهي عبادُك» فأوحى الله إليه: «إني لا أستجيب لك ولا لمن معك، لأن فيهم رجلاً نماماً، قد أَصَرَّ على النميمة». فقال موسى: «يا رَبِّ مَنْ هُوَ حتّى نخرجه من بيننا»؟ فقال: «يا موسى، أنهاك عن النميمةِ وأكونَ نماماً» قال: فتابوا بأجمعهم، فسُقوا. والنميمة من الكبائر، لا خلاف في ذلك؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض: ثلاث تهدّ العمل الصالح ويُفْطِرن الصائم، وينقُضْن الوضوء: الغِيبة، والنميمة، والكذب.

(١) «حمالة» بالرفع قراءة نافع، وبها يقرأ المؤلف. (٢) التوريش: التحريش؛ يقال: ورّشت بين القوم، وأرّشت. (٣) الحرب (بالتحريك): نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له.

وقال عطاء بن السائب: ذكرت للشعبيّ قول النبيّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ سافكُ دم، ولا مشاء بنميمة، ولا تاجر يُرْبِي» فقلت: يا أبا عمرو، قَرَن النمام بالقاتل وآكل الربا؟ فقال: وهل تسفك الدماء، وتنتهب الأموال، وتهيج الأمور العظام، إلا من أجل النميمة.

وقال قتادة وغيره: كانت تُعَيِّر رسول الله ﷺ بالفقر. ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها؛ لشدة بخلها، فعُيِّرَتْ بالبخل. وقال ابن زيد والضحاك: كانت تحمل العِضاه والشوك، فتطرحه بالليل على طريق النبيّ ﷺ وأصحابه؛ وقاله ابن عباس. قال الربيع: فكان النبيّ ﷺ يَطَؤُه كما يطأُ الحرير. وقال مُرَّة الهَمْدانيّ: كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة[1] من الحَسَك[2]، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أَعْيَتْ، فقعدت على حجر لتستريح، فجذبها المَلَك من خلفها فأهلكها. وقال سعيد بن جُبير: حمالة الخطايا والذنوب؛ من قولهم: فلان يحتطب على ظهره؛ دليله قوله تعالى: ﴿وهم يحملون أَوزارَهُمْ على ظهورهم﴾[3]. وقيل: المعنى حمالة الحطب في النار؛ وفيه بُعْد. وقراءة العامة ﴿حمَّالةُ﴾ بالرفع، على أن يكون خبراً ﴿وامرأته﴾ مبتدأ. ويكون ﴿في جِيدِها حبلٌ من مَسَدٍ﴾ جملة في موضع الحال من المضمر في ﴿حَمّالة﴾. أو خبراً ثانياً. أو يكون ﴿حمالة الحطب﴾ نعتاً لامرأته. والخبر ﴿في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَد﴾؛ فيوقف (على هذا) على ﴿ذات لهبٍ﴾. ويجوز أن يكون ﴿وامْرأَتُهُ﴾ معطوفة على المضمر في ﴿سَيَصْلَى﴾ فلا يوقف على ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ويوقف على ﴿وامْرأَتُهُ﴾ وتكون ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ خبر ابتداء محذوف. وقرأ عاصم ﴿حمالة الحَطَب﴾ بالنصب على الذم، كأنها اشتهرتْ بذلك، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص، كقوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾[4]. وقرأ أبو قِلابة ﴿حامِلَةَ الحَطَب﴾.

---

(١) الإبالة: الحزمة الكبيرة.
(٢) الحسك: نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم، والسعدان.
(٣) آية ٣١ سورة الأنعام.
(٤) آية ٦١ سورة الأحزاب.

[٥] ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي عنقِها. وقال أمرؤ القيس:

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بفاحشٍ إذَا هِـيَ نَصَّتْـهُ ولاَ بِمُعَطَّـلِ[١]

﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي من لِيف؛ قال النابغة:

مَقْذُوفةٍ بدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُها له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ[٢]

وقال آخر:

يـا مَسَـدَ الخُـوصِ تَعَـوَّذْ مِنِّـي إنْ كُنْـتُ لَـدْنـاً لَيِّنـاً فـإنِّـي

مـا شِئْـتَ مِـنْ أَشْمَـطَ مُقْسَئِـنِّ[٣]

وقد يكون من جلود الإبل، أو من أوبارها؛ قال الشاعر:

ومَسَـدٍ أُمِـرَّ مِـنْ أَيـانِـقِ لَسْـنَ بِـأَنْيـابٍ ولاَ حَقَـائِـقِ[٤]

وجمع الجيد أجياد، والمسدِ أمساد. أبو عبيدة: هو حَبْل يكون من صوف. قال الحسن: هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تسمى المَسَد، وكانت تُفْتل. قال الضحاك وغيره: هذا في الدنيا؛ فكانت تُعَيِّر النبيّ ﷺ بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف، فخنقها الله جل وعزّ به فأهلكها؛ وهو في الآخرة حَبْل من نار. وقال ٱبن عباس

---

(١) الجيد: العنق. والريم: الظبي الأبيض الخالص البياض. و «نصته» رفعته. والمعطل: الذي لا حلى عليه. وقوله «بفاحش»: أي ليس بكريه المنظر.

(٢) قال التبريزي «مقذوفة: أي مرمية باللحم. والدخيس: الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرته. والنحض: اللحم، وهو جمع نحضة. والبازل: الكبير. والصريف: الصياح. والقعو: ما يضم البكرة إذا كان خشباً؛ فإذا كان حديداً فهو خطاف. ويروى: له صريف صريف القعو (بالضم) على البدل، والنصب أجود».

(٣) الأشمط: من خالط بياض رأسه سواد. والمقسئن: الذي قد انتهى في سنه، فليس به ضعف كبر ولا قوّة شباب. وقيل: هو الذي في آخر شبابه وأوّل كبره. والرجز ثلاثة أبيات في («اللسان»: مسد) ولم ينسبه إلى قائله.

(٤) أمرّ الحبل: فتله فتلاً شديداً. وأيانق: جمع أينق، وأينق جمع ناقة. والأنياب: جمع ناب، وهي الناقة الهرمة. والحقائق: جمع حقة، وهي التي دخلت في السنة الرابعة، وليس جلدها بالقوي. والرجز ثلاثة أبيات في «اللسان». ونسبه الأصمعي لعمارة بن طارق. وقال أبو عبيدة: هو لعقبة الهجيمي. وقوله (ليس): كذا في («اللسان»: مسد)، وأعاده في (حقق): (لسن) بالنون. وهو الصواب.

في رواية أبي صالح: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾ قال: سلسلة ذَرْعُها سبعون ذراعاً ـ وقاله مجاهد وعروة بن الزبير: تَدْخُل مِنْ فيها، وتَخْرُج من أسفلها، ويُلْوَى سائِرها على عنقها. وقال قتادة: ﴿حَبْلٍ مِن مَسَدٍ﴾ قال: قِلادة مَن وَدَع. الوَدَع: خرز بيض تخرج من البحر، تتفاوت في الصغر والكبر. قال الشاعر:

والحِلم حِلْمُ صبِيٍّ يَمْرِث الوَدَعَهْ(١)

والجمع: وَدَعات. الحسن: إنما كان خَرَزا في عنقها. سعيد بن المسيب: كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللاتِ والعُزَّى لأنفِقنها في عداوة محمد. ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة. وقيل: إن ذلك إشارة إلى الخِذلان؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيده بحبل من مسد. والمَسَد: الفتل. يقال: مَسَد حَبْلَه يَمْسِده مَسْداً؛ أي أجاد فتله. قال(٢):

يَمْسِد أعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ

يقول: إن البقل يقوّي ظهر هذا الحمار ويشدّه. ودابة مَمْسودة الخَلْق: إذا كانت شديدة الأَسْر(٣). قال الشاعر:

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أيانِقِ صُهْبٍ عتاقٍ ذاتَ مُخٍّ زاهِقِ
لَسْنَ بأنيابٍ ولاَ حَقَائِقِ(٤)

ويروى:

ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِقِ

قال الفراء: هو مرفوع والشعر مُكْفأ(٥). يقول: بل مخهن مكتنِز؛ رفعه على الابتداء. قال: ولا يجوز أن يريد ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ. كما لا يجوز أن تقول: مررت برجل أبوه قائمٍ؛

---

(١) مرث الودع يمرثه مرثاً: مصه. (٢) هو رؤبة. (٣) الأسر: الخلق.
(٤) أمرّ الحبل: فتله فتلاً شديداً. والأيانق: جمع ناقة. والصهب: جمع الأصهب، هو بعير ليس بشديد البياض. وعتاق: جمع عتيق وهو الكريم. وزهق المخ: إذا اكتنز (اجتمع) لحمه؛ فهو زاهق.
(٥) الإكفاء في الشعر: المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه. ومن الإكفاء أيضاً المخالفة بين هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت.

بالخفض. وقال غيره: الزاهق هنا: بمعنى الذاهب؛ كأنه قال: ولا ضعافٌ مُخُّهُنَّ، ثم ردّ الزاهق على الضعاف. ورجل ممسود: أي مجدول الخلق. وجارية حسنة المَسْد والعَصبِ والجَدْلِ والأَزْم[١]؛ وهي ممسودة ومعصوبة ومجدولة ومأرومة. والمِساد، على فِعال: لغة في المِسَاب[٢]، وهي نِحى السمن، وسِقاء العسل. قال جميعه الجوهريّ: وقد اعتُرِض فقيل: إن كان ذلك حبلها الذي تحتطب به، فكيفَ يبقى في النار؟ وأجيب عنه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق. والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة[٣]؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما. ففيه معجزة للنبيّ ﷺ. فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة[٤] بعد وقعة بدر بسبع ليال، بعد أن شَجَّتْه أمّ الفضل[٥]. وذلك أنه لما قدم الحَيْسُمانُ مكةَ يخبر خبر بدر، قال له أبو لهب: أَخْبرني خبر الناس. قال: نعم، والله ما هو إلا أن لقِينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يضعون السلاح منا حيث شاءوا، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس. لقِينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق، لا والله ما تُبْقِي منا؛ يقول: ما تُبْقِي شيئاً. قال أبو رافع: وكنت غلاماً للعباس أنحت الأقداح في صُفَّةِ زمزم، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، فرفعت طُنُبَ الحجرة، فقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب وجهي ضَرْبة مُنْكرة، وثَاوَرْتُهُ[٦]، وكنت رجلاً ضعيفاً، فاحتملني، فضرب بي الأرض، وبَرَكَ على صدري يضْربني. وتقدّمت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة، فتأخذه وتقول: استضعفتَه أن غاب عنه سيده! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلُقُه شَجَّةٌ مُنْكَرة. فقام يجر رجليه ذليلاً، ورماه الله بالعَدَسة، فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يُدْفن حتى أنتن؛ ثم إن ولده غَسّلوه بالماء، قَذْفا من بعيد، مخافة عَدْوَى العَدَسة. وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون. ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدار، ثم رَضموا[٧] عليه الحجارة.

---

(١) أي مجدولة الخلق.
(٢) وقد يهمز فيقال مسأب، كمنبر.
(٣) كذا في «الأصول» والظاهر أن اللفظ محرف عن (الوفاة).
(٤) العدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل.
(٥) هي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية، أخت ميمونة أم المؤمنين.
(٦) المثاورة: المواثبة. («اللسان»: ثور). (٧) رضموا: أي جعلوا الحجارة بعضها على بعض.

سورة الإخلاص

مكّية؛ في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر. ومدنية؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسُّدّي. وهي أربع آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

[٢] ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾.

[٣] ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي الواحد الوِتر، الذي لا شبيه له، ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك. وأصل ﴿أَحَدٌ﴾: وَحَدٌ؛ قُلِبت الواو همزة. ومنه قول النابغة[١]:

بِذِي الجَلِيلِ علَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ

وقد تقدّم في سورة ﴿البقرة﴾ الفرق بين واحِد وأحَدٍ، وفي كتاب «الأَسْنَى، في شرح أسماء الله الحسنى» أيضاً مُسْتَوفًى. والحمدُ لله. و ﴿أَحَدٌ﴾ مرفوع، على معنى: هو أَحَدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمرُ والشأن: اللَّهُ أَحَد. وقيل: ﴿أَحَد﴾ بدل من قوله: ﴿الله﴾. وقرأ جماعة ﴿أَحَدُ اللَّهُ﴾ بلا تنوين، طلباً للخفة، وفراراً مِن التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر:

ولا ذاكِرَ اللَّهَ إلاّ قَلِيلاَ[٢]

---

(١) صدر البيت كما في معلقته:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا

و «ذو الجليل» مكان ينبت الجليل، وهو الثمام. والثمام: نبت ضعيف قصير لا يطول.

(٢) هذا عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي. وصدره:

فألفيته غير مستعتب

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي الذي يُصْمَدُ إليه في الحاجات. كذا رَوَى الضحاك عن ٱبن عباس، قال: الذي يُصْمَد إليه في الحاجات؛ كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيهِ تَجْأَرُونَ﴾[١]. قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يُصْمد إليه في النوازل والجوائح. قال:

أَلاَ بَكَّر الناعِي بِخيرِ[٢] بنِي أَسَدْ ... بعمرو بن مَسْعُودٍ وبالسيدِ الصَّمَد

وقال قوم: الصَّمَدُ: الدائم الباقي، الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: تفسيره ما بعده ﴿لمْ يلِدْ ولم يُولَدْ﴾. قال أُبَيُّ بنُ كَعْب: الصَّمَدُ: الذي لا يلِدُ ولا يُولَد؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورث. وقال عليّ وٱبن عباس أيضاً وأبو وائل شَقِيق بن سلمة وسفيان: الصَّمَد: هو السيد الذي قد ٱنتهى سُودَدُه في أنواع الشرف والسُّودَد؛ ومنه قول الشاعر:

عَلَوتُهُ بحُسامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ ... خُذْها حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة: إنه المستغنِي عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقال السدّيّ: إنه: المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب. وقال الحسين بن الفضل: إنه: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مقاتل: إنه: الكامل الذي لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرِقان:

سِيروا جميعاً بِنِصفِ الليلِ واعتمِدُوا ... ولا رَهِينَةَ إلاّ سَيِّدٌ صَمَدُ

وقال الحسن وعِكرمة والضحاك وٱبن جُبير: الصَّمَد: المُصْمَتُ الّذي لا جَوْف له[٣]؛ قال الشاعر:

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه ... عَوَابِسَ يَعْلُكْن الشكِيمَ المُصَمَّدا[٤]

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبيِّنة في الصَّمَد، في «كتاب الأسنى» وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي. وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ ﴿اللَّهُ الواحدُ الصَّمَدُ﴾ في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَط: ﴿قُلْ هو﴾، وزعم أنه ليس من القرآن. وغيَّرَ لفظَ ﴿أَحَدٍ﴾، وأدعى أن هذا

---

(١) آية ٥٣ سورة النحل. (٢) ويروى: بخيري. وهو الصواب، لأنه ذكر بعده اثنين.

(٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى. (٤) علكت الدابة اللجام تعلكه (من باب قتل) علكا: لاكته وحركته. والشكيم والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّك، أَمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ففي ﴿هُوَ﴾ دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط[1] بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله ﷺ. ورَوى الترمذي عن أُبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. والصَّمَد: الذي لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورَث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً[2] أَحَدٌ﴾: قال: لم يكن له شبيه ولا عدْل، وليس كمثله شيء. ورُوِي عن أبي العالية: إن النبيّ ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا رَبّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيّ بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذيّ.

قلت: ففي هذا الحديث إثبات لفظ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وتفسير الصَّمَد، وقد تقدّم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عباس: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما وَلَدَتْ مَرْيَم، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عُزَيرٌ ابن الله. ﴿وَلَمْ يَكُنْ له كُفْواً أَحَدٌ﴾ أي لم يكن له مِثلاً أحد. وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفواً أحد؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساقَ أواخر الآي على نظم واحد. وقرِيء ﴿كُفُواً﴾ بضم الفاء وسكونها. وقد تقدّم في ﴿البقرة﴾ أن كل اسم على ثلاث أحرف أوّله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان[3]؛ إلا قوله تعالى: ﴿وجعلوا له مِن عِبادِهِ جُزْءاً﴾[4] لِعِلة تقدّمت. وقرأ حفص ﴿كفوا﴾ مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

---

(١) في نسخة من الأصل: «فأسقط آية وأبطل المعنى وصحف، افتراء على الله عز وجل...» الخ.
(٢) بالهمزة قراءة نافع، وهي قراءة المؤلف.
(٣) راجع ١/ ٤٤٧ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٤) آية ١٥ سورة الزخرف، راجع ١٦/ ٦٩.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي سعيد الخُدْريّ: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردّدها؛ فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يَتَقالُّها[١]؛ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثُلُثَ القُرْآن». وعنه قال قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة» فشَقّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطِيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «اللَّهُ الواحدُ[٢] الصَّمد ثُلُثُ القرآن» خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه. وخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أحْشِدوا[٣] فإني سأقرأ عليكُم ثلثَ القُرْآن»، فحشدَ[٤] مَنْ حَشَد؛ ثم خرج نبيّ الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ الله أحد﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألاَ إنّها تَعْدِل ثلثَ القرآن» قال بعض العلماء: إنها عَدَلَت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو ﴿الصَّمَد﴾، فإنه لا يوجد في غيرها من السُّور. وكذلك ﴿أَحَدٌ﴾. وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثا منه أحكام، وثلثا منه وعد ووعيد، وثلثا منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أَحَدَ][٥] الأثلاث، وهو الأسماء والصّفات. ودل على هذا التأويل ما في «صحيح مسلم»، من حديث أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ، قال: «إن اللَّهَ جلّ وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن». وهذا نَصٌّ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم.

الثانية ـ روى مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سَرِية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي

(١) أي يعتقد أنها قليلة في العمل لا في التنقيص.

(٢) في شرح العيني على البخاري في «فضائل القرآن»: «قوله الله الواحد الصمد: كناية عن قل هو الله أحد».

(٣) من باب قتل وضرب، ويستعمل متعدّياً ولازماً.

(٤) أي اجتمع من اجتمع.

(٥) زيادة عن الخطيب.

ﷺ فقال: «سَلُوهُ لأيّ شَيء يصْنع ذلك»؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحِبُّ أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله عز وجل يحبه». وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء، وكان كلما ٱفتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها، ٱفتتح بـ ﴿قُلْ هو الله أحد﴾؛ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة؛ فكلمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تَجْزيك حتى تقرأ بسُورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتكم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره؛ فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة»؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حُبَّها أدْخَلَكَ الجَنَّة» قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ٱبن العربيّ: «فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراك؛ فيقرأ في كل ركعة ﴿الحمد لله﴾ و ﴿قُل هو الله أحد﴾ حتى يتم التراويح؛ تخفيفاً عليه، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان».

قلت: هذا نص قولِ مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

الثالثة ـ روى الترمذيّ عن أنس[١] بن مالك قال: أقبلت مع النبيّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحدٌ ﴾؛ فقال رسول الله ﷺ: « وجبت » قلت: وما وجبت؟ قال: « الجنة ». قال: هذا حديث صحيح[٢]. قال الترمذي:

(١) الرواية في الترمذي عن أبي هريرة.

(٢) في الترمذي: «حسن غريب».

حدّثنا محمد بن مرزوق البصريّ قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحِي عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين». وبهذا الإسناد عن النبيّ ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب: يا عبدي، ٱدخل على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارميّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة» قال: وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال حدّثنا حَيْوَة قال: أخبرني أبو عَقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبيّ الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بُنِي له قصر في الجنة. ومن قرأها عشرين مرة بُنِي له بها قصران في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِي له بها ثلاثة قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب. والله يا رسول الله إذاً لَنُكْثِرَنّ قصورنا؛ فقال رسول الله ﷺ: الله أوسع من ذلك» قال أبو محمد: أبو عقيل زُهْرة بن معبد، وزعموا أنه كان من الأبدال. وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ في مرضه الذي يموت فيه، لم يَفْتَن في قَبره. وأمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البَجَليّ. وذكر أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس ٱشتدّ غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرءون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكُن غضبُه جل وعز. وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِيّ عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من دخل يوم الجمعة

المسجد، فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب و ﴿قل هو الله أحد﴾ خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات، لم يَمُتْ حتى يرى منزله في الجنة أو يُرَى له». وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البجلِيّ، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزِل وعن الجيران». وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ قل هو الله أحد مرة بورِك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له».

وعن سهل بن سعد الساعديّ قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفقر وضيق المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلتَ البيت فسلِّم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم عليّ، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة» ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق، حتى أفاض عليه جيرانه. وقال أنس: كنا مع رسول الله ﷺ بتَبُوكَ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك، فأتى جبريل، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريلُ، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط»؟ فقال: «ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصَلّون عليه». قال: «ومِمّ ذلك»؟ قال: «كان يكثر قراءة ﴿قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدٌ﴾ آناء الليل وآناء النهار، وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلي عليه»؟ قال «نعم» فصلى عليه، ثم رجع. ذكره الثعلبي، والله أعلم.

تفسير سورة الفلق

وهي مكية؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء جابر. ومدنية؛ في أحد قولي ٱبن عباس وقتادة. وهي خمس آيات

وهذه السورة وسورة ﴿النّاس﴾ و ﴿الإخلاص﴾: تعوّذ بهنّ رسول الله ﷺ حين سحرته اليهود؛ على ما يأتي. وقيل: إن المُعَوِّذَتَيْن كان يقال لهما المقشِقشتان؛ أي تُبَرِّئان من النفاق. وقد تقدم. وزعم ٱبن مسعود أنهما دعاء تعوّذ به، وليستا من القرآن؛ خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت. قال ٱبن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوذتين؛ لأنه كان يسمع رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ بهما، فقدّر أنهما بمنزلة: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامّة. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا مردود على ٱبن قتيبة؛ لأن المعوذتين من كلام رب العالمين، المعجز لجميع المخلوقين؛ و «أعيذكما بكلمات الله التامة» من قول البشر بيّن. وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد ﷺ خاتم النبيين، وحجة له باقية على جميع الكافرين، لا يلتبس بكلام الآدميين، على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان، العالم باللغة، العارف بأجناس الكلام، وأفانين القول. وقال بعض الناس: لم يكتب عبد الله المعوّذتين لأنه أمن عليهما من النسيان، فأسقطهما وهو يحفظهما؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يُشَكُّ في حفظه وإتقانه لها. فردّ هذا القول على قائله، وٱحتج عليه بأنه قد كتب: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾، و ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، و ﴿قل هو الله أحد﴾ وهن يجرين مجرى المعوذتين في أنهّ غير طوال، والحفظ إليهن أسرع، ونسيانُهن مأمون، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب؛ إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها. وسبيل كل ركعة أن تكون المقدَّمة فيها قبل ما يُقْرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف، على معنى الثقة ببقاء حفظها، والأمن من نسيانها، صحيح، وليس من السور ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يُسْلك به طريقها. وقد مضى هذا المعنى في سورة ﴿الفاتحة﴾[1]. والحمد لله.

(١) راجع ١/ ١١٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾.

[٢] ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

[٣] ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

[٤] ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾.

[٥] ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

فيه تسع مسائل:

الأولى - روى النسائيّ عن عقبة بن عامر، قال: أتيت النبي ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني سورة ﴿هُودٍ﴾[١] أقرئني سورة يوسف. فقال لي: «ولَنْ تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾». وعنه قال: بينا أنا أسير مع النبيّ ﷺ بين الجحْفَة والأَبواءِ، إذ غشتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوّذ بـ ﴿ أعوذُ برب الفَلَقِ﴾، و ﴿أعوذُ بِرَبِّ الناسِ﴾، ويقول: «يا عقبة، تعوّذ بهما، فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما». قال: وسمعته يقرأ بهما في الصلاة. وروى النّسائي عن عبد الله قال: أصابنا طَشٌّ[٢] وظُلْمة، فأنتظرنا رسول الله ﷺ يَخْرج[٣]. ثم ذكر كلاماً معناه: فخرج رسول الله ﷺ [لِيُصلِّيَ بنا[٤]]، فقال: «قُلْ». فقلت: ما أقول؟ قال: « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثاً، يكفِك كل شيء» وعن عقبة بن عامر الجُهَنِي قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلْ». قلت: ما أقول؟ قال قل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناسِ ﴾ - فقرأهن رسول الله ﷺ، ثم قال - لم يتعوّذ الناس بمثلهن، أو لا يتعوّذ الناس بمثلِهن». وفي حديث ابن عباس « قل أعوذ بِرب

---

(١) زيادة عن سنن النسائي.

(٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين): المطر الضعيف.

(٣) الذي في سنن النسائي: «فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلي بنا، ثم ذكر... الخ».

(٤) زيادة عن سنن النسائي.

الفلقِ وقُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، هاتين السورتين». وفي «صحيح البخاري ومسلم» عن عائشة أن النبيّ ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوِّذَتَيْن ويَنْفِثُ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح عنه بيده، رجاءَ بركتها. النَّفْث: النفخ ليس معه ريق.

الثانية ـ ثبت في «الصحيحين» من حديث عائشة أن النبيّ ﷺ سحره يهوديّ من يهود بني زُرَيْق، يقال له لَبِيدُ بن الأعْصم، حتى يخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ـ في غير الصحيح: سنة ـ ثم قال: «يا عائشة، أشْعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني ملكان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجلي، فقال [الذي عند رأسي للذي عند رجلي][1]: ما شأن الرجل؟ قال: مَطْبوب[2]. قال ومَنْ طَبَّهُ؟ قال لَبيد بن الأعصم. قال في ماذا؟ قال في مُشْطٍ ومُشاطة[3] وجفّ طلعةٍ[4] ذكر، تحت راعوفة في بئر ذي أَوْران»[5]. فجاء البئر واستخرجه. انتهى الصحيح. وقال ابن عباس:[6] «أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي». ثم بعث علِياً والزبير وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة ـ صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح[7]، وأخرجوا الجُفّ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان، وأسنان من مُشْط، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد، وأمر أن يُتَعَوَّذ بهما؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد النبيّ ﷺ خِفّة، حتى انحلت العقدة الأخيرة، فكأنما أُنْشِط من عِقال، وقال: ليس به بأس. وجعل جبريل يَرقِي رسول الله ﷺ فيقول: «بِاسم الله

(١) زيادة عن الصحيحين. (٢) المطبوب: المسحور.

(٣) في بعض نسخ الأصل وبعض كتب الحديث: «ومشاقة» بالقاف بدل الطاء، وهو ما يستخرج من الكتان. والمشط: الآلة التي يمشط بها الشعر.

(٤) الجف (بضم الجيم وتشديد الفاء): الغشاء الذي يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى؛ فلذا قيده بقوله «ذكر».

(٥) ويقال: «بئر ذروان»، وهي بئر بالمدينة، في بستان بني زريق. (٦) أي في روايته.

(٧) في بعض نسخ الأصل: «الماتح» بالتاء المثناة من فوق، وهو المستقي من البئر بالدلو من أعلى البئر. أما المائح بالهمز فهو: الذي يكون في أسفل البئر يملأ الدلو.

أَرْقِيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسدٍ وعَيْن، والله يَشْفِيك». فقالوا: يا رسول الله، ألا نقتل الخبيث. فقال: «أمّا أنا فقد شفانِي الله، وأكره أن أثير على الناس شَرًّا». وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصِّحاح: أن غلاماً من اليهود كان يخدُم النبيّ ﷺ، فدسَّتْ[1] إليه اليهود، ولم يزالوا به حتى أَخَذ مُشاطة رأس النبيّ ﷺ. والمُشاطة (بضم الميم): ما يسقُط من الشعر عند المشط. وأخذ عدّة من أسنان مُشْطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وكان الذي تولى ذلك لَبيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ. وذكر نحو ما تقدّم عن ٱبن عباس.

الثالثة - تقدّم في البقرة القول في السحر وحقيقته، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر؛ فلا معنى لإعادته[2].

الرابعة - قوله تعالى: ﴿الفَلَقِ﴾ ٱختُلف فيه؛ فقيل: سِجن في جَهنم؛ قاله ٱبن عباس. وقال أُبَيُّ بن كعب: بيت في جهنم إذا فُتح صاح أهل النار من حره. وقال الحُبُليّ أبو عبد الرحمن[3]: هو اسم من أسماء جهنم. وقال الكلبي: واد في جهنم. وقال عبد الله بن عمر: شجرة في النار. سعيد بن جبير: جُبٌّ في النار. النحاس: يقال لما أطمأنّ من الأرض فَلَق؛ فعلى هذا يصح هذا القول. وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظِيّ وٱبن زيد: الفَلَق، الصُّبْح. وقاله ٱبن عباس. تقول العرب: هو أبين من فَلَقِ الصُّبْح وفَرَق الصبح. وقال الشاعر:

يا ليلةً لم أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَفِقا[4] أَرْعَى النجومَ إلى أَنْ نَوَّرَ الفَلَقُ

وقيل: الفلق: الجبال والصخور تنفلق بالمياه؛ أي تتشقق. وقيل: هو التفليق بين الجبال والصخور؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل. قال زهير:

ما زِلْتَ أَرْمُقُهُم حتّى إذَا هَبَطَتْ أيدِي الرِّكابِ بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا

---

(١) في نسخة: فدنت.

(٢) راجع ٢/٤٣ فما بعدها طبعة ثانية.

(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافري.

(٤) المرتفق: المتكىء على مرفق يده.

الراكس: بطن الوادي. وكذلك هو في قول النابغة:

أَتـانِـي ودُونِـي راكِـسٌ فـالضَّـواجِـعُ[١]

والراكس أيضاً: الهادي، وهو الثور وسط البَيْدَر[٢]، تدور عليه الثّيران في الدِّياسة. وقيل: الرحم تنفلق بالحيوان. وقيل: إنه كل ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبحِ والحبّ والنَّوَى، وكل شيء من نبات وغيره؛ قاله الحسن وغيره. قال الضحاك: الفَلَقُ الخَلْق كُلُّه؛ قال:

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقْ سِرًّا وقدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ العُقُقْ[٣]

قلت: هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفَلْق الشق. فَلَقْت الشيء فلقاً أي شققته. والتفليق مثله. يقال: فَلَقته فٱنفلق وتَفَلَّق. فكل ما ٱنفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوَى وماء فهو فَلَق؛ قال الله تعالى: ﴿فالِقُ الإصباحِ﴾[٤] قال: ﴿فالِق الحَبِّ والنَّوَى﴾[٥]. وقال ذو الرمّة يصف الثور الوَحْشِيّ:

حَتَّى إذَا ما انْجَلَى[٦] عن وجهِهِ فَلَقٌ هادِيهِ في أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ

يعني بالفلق هنا: الصبح بعينه. والفلق أيضاً: المطمئن من الأرض بين الربْوتين، وجمعه: فُلْقان؛ مثل خَلَق وخُلْقان. وربما قالوا: كان ذلك بفالق كذا وكذا؛ يريدون المكان المنحدر

---

(١) صدر البيت:

وعبـد أبـي قـابـوس فـي غيـر كنهـه

والضواجع: جمع ضاجعة، وهي منحنى الوادي. (٢) البيدر: الموضع الذي يداس فيه الحبوب. (٣) ورد هذا البيت في الأصول محرفاً. وهو من أرجوزة رؤبة بن العجاج التي مطلعها:

وقـاتـم الأعمـاق خـاوي المختـرق

وقوله: «أوّن» أي أكل وشرب حتى امتلأ بطنه. والعقق: جمع عقوق كرسول ورسل وهي التي تكامل حملها، وقرب ولادها. وصف صائداً لما أحس بالصيد ـ وهي الأتن التي وردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها ـ وأراد رؤبة: وسوس نفسه بالدعاء حذر الخيبة.

(٤) آية ٩٦ سورة الأنعام. (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام. (٦) كذا في «الأصول واللسان». والذي في الديوان: «ماجلا». وقال ابن بري: الرواية الصحيحة:

حتـى إذا مـا جـلا عـن وجهـه شفـق

وقوله: «هاديه» أي أوّله؛ مأخوذ من الهادي، وهو مقدّم العنق.

بين الربوتين. والفَلَق أيضاً مِقطرة[1] السَّجان. فأما الفِلْق (بالكسر): فالداهية والأمر العجب؛ تقول منه: أفلق الرجل وٱفتلق. وشاعر مُفْلِق، وقد جاء بالفِلْق [أي بالداهية]. والفِلْق أيضاً: القضيب يُشَقُّ باثنين، فيعمل منه قَوْسان؛ يقال لكل واحد منهما فِلْق. وقولهم: جاء بعُلَقَ فُلَق؛ وهي الداهية؛ لا يُجرى [مُجرَى عُمَر][2]. يقال منه: أعلقت وأفلقت؛ أي جئت بعُلَق فُلَق. ومرّ يفتلق في عدوِه؛ أي يأتي بالعجب من شدّته.

وقوله تعالى: ﴿مِن شر ما خَلَق﴾ قيل: هو إبليس وذرّيته. وقيل جهنم. وقيل: هو عامّ؛ أي من شر كل ذي شر خلقه الله عز وجل.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٱختُلف فيه؛ فقيل: هو الليل. والغَسَق: أوّل ظلمة الليل؛ يقال منه: غَسَقَ الليلُ يَغْسِق أي أظلم. قال [ٱبن] قيس الرقيات:

إنَّ هَـذَا الليـلَ قـد غَسَقـا واشْتَكَيْـتُ الهَـمَّ والأَرَقَـا

وقال آخر:

يا طيفَ هِندٍ لَقَدْ أَبْقَيت لِي أَرَقاً إذْ جِئْتنا طارِقاً والليلُ قَدْ غَسَقَا

هذا قول ٱبن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّيّ وغيرهم. و ﴿وَقَبَ﴾ على هذا التفسير: أظلم؛ قاله ٱبن عباس. والضحاك: دَخَلَ. قتادة: ذَهَبَ. يَمانُ بن رِئاب: سَكَن. وقيل: نزل؛ يقال: وَقَبَ العذاب على الكافرين؛ نَزَلَ. قال الشاعر:

وَقَـبَ العـذابُ عليهـمُ فكـأنَّهُـمْ لَحِقَتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا

وقال الزجاج: قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار. والغاسق: البارد. والغَسَق: البرد؛ ولأن في الليل تخرج السِّباع من آجامها، والهوامُّ من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العيث

(١) المقطرة (بكسر الميم): خشبية فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المحبوسين؛ مشتق من قطار الإبل.

(٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يقتضيها السياق. وفي الأساس مادة (فلق): «وجاء بعلق» على التركيب كخمسة عشر.

والفساد. وقيل: الغاسق: الثُّرَيَّا؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين، وإذا طلعت ٱرتفع ذلك؛ قاله عبد الرحمن بن زيد. وقيل: هو الشمس إذا غربت؛ قاله ٱبن شهاب. وقيل: هو القمر. قال القُتَبيّ: ﴿إذا وَقَبَ﴾ القمر: إذا دخل في ساهوره، وهو كالغلاف له، وذلك إذا خُسِفَ به. وكل شيء أسود فهو غَسَق. وقال قتادة: ﴿إذا وقَبَ﴾ إذا غابَ. وهو أصح؛ لأن في الترمذيّ عن عائشة: أن النبيّ ﷺ نظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ٱبن الأعرابي في تأويل هذا الحديث: وذلك أن أهل الرِّيَب يَتَحينون وَجبة القمر. وأنشد:

أراحنِي اللَّهُ مِن أشياءَ أكرهُها ... منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ
هـذا يبـوحُ وهـذا يُستضـاء بِـه ... وهـذه ضِمْـرِزٌ قَـوَّامَـةُ السَّحَـرِ(١)

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت. وكأن الغاسق نابُها؛ لأن السم يغسق منه؛ أي يسيل. ووقب نابها: إذا دخل في اللدِيغ. وقيل: الغاسق: كل هاجم يضر، كائناً ما كان؛ من قولهم: غسقتِ القرحة: إذا جرى صديدُها.

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرّ النَّفَّاثاتِ فِي العُقَدِ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِينَ عليها. شبه النفخ كما يعمل من يرقي. قال الشاعر:

أَعُـوذُ بِـربِّـي مِـنَ النَّـافِثَـا ... تِ في عِضهِ العاضِهِ المُعْضِه(٢)

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة:

نَفَثْتَ في الخيطِ شَبِيهَ الرُّقَى ... مِـن خشيـة الجِنـةِ والحـاسِـدِ

وقال عنترة:

فـإنْ يَبْـرَأْ فَلَـمْ أَنْفُـثْ عَلَيْـهِ ... وإنْ يُفْقَـدْ فَحُـق لَـهُ الفُقُـودُ

(١) الضمرز (كزبرج): الناقة المسنة. ومن النساء الغليظة. وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل محرفة، ففي بعضها «صمود» وفي بعضها الآخر: «ضمور» وهو تحريف. وفي البيت إقواء؛ وهو اختلاف حركات الروى.

(٢) العضه (كعنب): الكذب والسحر والبهتان. والعاضه: الساحر.

السابعة ـ روى النَّسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَقَد عقدة ثم نَفَثَ فيها، فقد سَحَر، ومن سحر فقد أشْرَك، ومَنْ تَعَلَّق(١) شيئاً وُكِل إليه». وٱختلف في النفْث عند الرُّقَى، فمنعه قوم، وأجازه آخرون. قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفُث، ولا يمسح ولا يعقِد. قال إبراهيم: كانوا يكرهون النفث في الرُّقَى. وقال بعضهم: دخلت على الضحاك وهو وجِع، فقلت: ألا أُعَوِّذَكَ يا أبا محمد؟ قال: بلى، ولكن لا تنفث؛ فعوّذتُه بالمعوذتين. وقال ٱبن جريج قلت لعطاء: القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ؟ قال: لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا. ثم قال بعد: ٱنفُث إن شئت. وسئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها، فقال: لا أعلم بها بأساً، وإذا ٱختلفوا فالحاكم بينهم السنة. روت عائشة أن النبيّ ﷺ كان ينفِث في الرُّقية؛ رواه الأئمة، وقد ذكرناه أوّل السورة وفي ﴿سُبْحان﴾(٢). وعن محمد بن حاطب أن يده ٱحترقت فأتت به أمّه النبيّ ﷺ، فجعل يُنفث عليها ويتكلم بكلام؛ زعم أنه لم يحفظه. وقال محمد بن الأشعث: ذُهِب بـي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عينيّ سوء، فرقَتْني ونَفَثَت.

وأما ما رُوي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للراقي أن ينفُث؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث في العُقَد مما يستعاذ به، فلا يكون بنفسه عُوذة. وليس هذا هكذا؛ لأن النفث في العُقَد إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عُقد مذموماً. ولأن النفث في العُقَد إنما أريد به السحر المضِرّ بالأرواح، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان، فلا يقاس ما ينفع بما يضر. وأما كراهة عكرمة المسحَ فخلاف السنة. قال علي رضي الله عنه: اشتكيت، فدخل عليّ النبيّ ﷺ وأنا أقول: اللهمَّ إنْ كان أجلي قد حَضَر فأرِحني، وإن كان متأخراً فٱشفني وعافني، وإن كان بلاء فصبرني. فقال النبيّ

---

(١) أي من علق شيئاً من التعاويذ والتمائم معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضرراً. وقيل: المراد تمائم الجاهلية مثل الخرزات وأظفار السباع. أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم. «شرح سنن النسائي».

(٢) راجع ١٠/ ٣١٥ فما بعدها.

ﷺ: «كيف قلت»؟ فقلت له. فَمَسحني بيده، ثم قال: «اللهم أَشْفِه» فما عاد ذلك الوجع بعد. وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمرو ورويس عن يعقوب ﴿ومِن شر النافِثاتِ﴾ في وزن (فاعلات). ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. وروي أن نساء سحرن النبيّ ﷺ في إحدى عشرة عقدة؛ فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية. قال ابن زيد: كنّ من اليهود؛ يعني السواحر المذكورات. وقيل: هنّ بنات لَبِيد بن الأعصم.

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذَا حَسَدَ﴾ قد تقدم في سورة ﴿النساء﴾ معنى الحسد[١]، وأنه تمني زوالِ نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها. والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل. فالحسدُ شرٌّ مذموم. والمنافسة مباحة وهي الغِبطة. وقد روي أن النبيّ ﷺ قال: «المؤمن يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسُد». وفي «الصحيحين»: «لا حَسَد إلا في اثنتين» يريد لا غِبْطَة. وقد مضى في سورة ﴿النساء﴾[٢] والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فَيتْبَع مساوئه ويطلب عَثَراته. قال ﷺ: «إذَا حَسَدت فلا تَبْغِ...» الحديث. وقد تقدم. والحسد أوّل ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي به في الأرض، فحسَدَ إبليس آدمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ. والحاسد ممقوت مبْغوض مطرود ملعون. ولقد أحسن من قال:

قـل للحسـود إذا تَنَفَّس طَعْنَـةً ... يـا ظـالمـاً وكـأنـهُ مَظْلُـومُ

التاسعة ـ هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوّذ من جميع الشرور. فقال: ﴿مِنْ شرِّ ما خَلَقَ﴾. وجعل خاتمة ذلك الحسد،

---

(١) معنى الحسد تقدم في ﴿سورة البقرة﴾ ٢/٧١ طبعة ثانية. وراجع أيضاً ﴿سورة النساء﴾ ٥/٢٥١. (٢) هذا مذكور في ﴿سورة النساء﴾ فليراجع.

تنبيهاً على عِظمه، وكثرة ضرره. والحاسد عدوّ نعمة الله. قال بعض الحكماء: بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه: أحدها ـ أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. وثانيها ـ أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ وثالثها ـ أنه ضادَّ فعل الله، أي إن فضل الله يؤتِيه من يَشاء، وهو يَبخل بفضل الله. ورابعها ـ أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. وخامسها ـ أنه أعان عدوّه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولا ينال عند الملائكة إلا لَعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جَزَعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا حُزْناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً. ورُوي أن النبيّ ﷺ قال: «ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومُكثِر الغِيبة، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حسد للمسلمين». والله سبحانه وتعالى أعلم.

سورة النـاس

مثل ﴿الفلق﴾ لأنها إحدى المعوذتين. وروى الترمذيّ عن عقبة بن عامر الجهني عن النبيّ ﷺ قال: «لقد أنزل الله عليّ آيات لم يُرَ مِثْلُهُنّ: ﴿قل أعوذُ بِرَبِّ الناسِ﴾ إلى آخر السُّورة و ﴿قُلْ أعوذُ بِرب الفلقِ﴾ إلى آخِر السورة». قال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

[٢] ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾.

[٣] ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي مالكهم ومُصْلِح أمورِهم. وإنما ذكر أنه رب الناس، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين: أحدهما ـ لأن الناس مُعَظَّمون؛ فأَعْلَمَ بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا. الثاني ـ لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم؛ فأعلم بذكرهم

أنه هو الذي يُعيذ منهم. وإنما قال: ﴿مَلِكِ الناسِ إلٰهِ الناسِ﴾ لأن في الناس ملوكاً يذكر أنه مَلِكُهُم، وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنه إلٰههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به، ويُلْجأ إليه، دون الملوك والعظماء.

[٤] ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾.

يعني: من شر الشيطان. والمعنى: من شر ذي الوسواس؛ فحذف المضاف؛ قاله الفرّاء: وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم؛ أي المُوسوِس. و (بكسر الواو) المصدر؛ يعني الوسوسة. وكذا الزَّلزال والزِّلزال. والوسوسة: حديث النفس. يقال: وسوست إليه نفسه وَسْوسة ووِسوَسَة (بكسر الواو). ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِيّ: وَسْواس. قال ذو الرمة:

فبــاتَ يُشْئِــزه ثَــأْدٌ ويُسْهِــرُهُ تَذَوُّبُ الريحِ والوَسْوَاسُ والْهِضَبُ[١]

وقال الأعشى:

تسمعُ للحلَى وَسْواساً إذا انصرفت كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[٢]

وقيل: إن الوسواس الخناس ابن لإبليس، جاء به إلى حواء، ووضعه بين يديها وقال: اكْفُلِيه. فجاء آدم [عليه[٣] السلام] فقال: ما هذا [يا[٣] حواء]! قالت: جاء عدونا بهذا وقال لي: اكْفُليه. فقال: ألم أقل لكِ لا تطيعيه في شيء، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع، وعلق كل ربع على شجرة، غيظاً له؛ فجاء إبليس فقال: يا حواء، أين ابني؟ فأخبرته بما صنع به آدم [عليه السلام] فقال: يا خنَّاس، فحيِي فأجابه. فجاء به إلى حواء وقال: اكفليه؛ فجاء آدم [عليه السلام] فحرَّقه بالنار، وذرّ رماده في البحر؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال: يا حوّاء، أين ابني؟ فأخبرته بفعل آدم إيّاه؛ فذهب

(١) شئز الرجل: قلق من مرض أو هم. والثأد: الندى والقر والأمر القبيح. وتذوّب الريح: هبوبها من كل وجه، وهو مأخوذ من خداع الذئب. والهضب (بكسر الهاء): الأمطار.
(٢) العشرق (كزبرج): نبت له ورق فإذا يبس طار. ونبت زجل: صوتت فيه الريح.
(٣) زيادة عن نوادر الأصول للترمذي الحكيم.

إلى البحر، فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه. فجاء به إلى حواء الثالثة. وقال: اكفليه. فنظر إليه آدم، فذبحه وشواه، وأكلاه جميعاً. فجاء إبليس فسألها فأخبرته [حواء][١]. فقال: يا خَنَّاس، فحيي فأجابه [فجاء به] من جوف آدم وحوّاء. فقال إبليس: هذا الذي أردت، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ٱبن آدم ما دام غافلاً يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس. ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه. وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم. ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فلا أقسِم بِالخُنَّسِ﴾[٢] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ اللَّه؛ أي يتأخر. وفي الخبر «إن الشيطان جاثم على قلب ٱبن آدم، فإذا غفل وَسْوس، وإذا ذكر اللَّهَ خَنَسَ» أي تأخر وأقصر. وقال قتادة: ﴿الخَنَّاس﴾ الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان[٣] وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خَنَس. يقال: خَنَسْتُهُ فَخَنَس؛ أي أخرته فتأخر. وأَخنسته أيضاً. ومنه قول أبي العلاء الحضرمِيّ ـ أنشد رسول الله ﷺ ـ:

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاْعْفُ تكرما ... وإنْ خَنَسُوا عندَ[٤] الحديثِ فلا تَسَلْ

الدَّحْس: الإفساد. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان واضع خَطْمه على قلب ٱبن آدم، فإذا ذكر اللَّهَ خَنَس، وإذا نسِي اللَّهَ التقم قلْبه فوسوس». وقال ٱبن عباس: إذا ذكر اللَّهُ العبدَ خَنَس من قلبه فذهب، وإذا غفل الْتَقَم قلبه فحدّثه ومَنَّاه. وقال إبراهيم التيمِيّ: أوّل ما يبدو الوسواس من قِبل الوضوء. وقيل: سمي خَنَّاساً لأنه يرجع إذا غَفَل العبدُ عن ذكر الله. والخَنَس: الرجوعُ. وقال الراجز:

وصاحبٍ يَمْتَعِسُ[٥] امتِعاساً ... يـزدادُ إن حَيَّيْتُـه خِنـاسـاً[٦]

(١) زيادة عن الترمذي الحكيم. (٢) آية ١٥ سورة التكوير.
(٣) في نسخة من الأصل: «ابن آدم».
(٤) في «اللسان»: «عنك».
(٥) يمتعس: يتحرك.
(٦) في بعض الأصول «جنته» وبعضها «جننه» وفي بعضها بدون إعجام.

وقد روى ابن جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الوَسواسِ الخناسِ﴾ وجهين: أحدهما ـ أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى الثاني ـ أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

[٥] ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق، سَلَّطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿الذِي يُوَسْوِس فِي صدورِ الناسِ﴾. وفي «الصحيح» عن النبيّ ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وهذا يصحح ما قاله مقاتل. وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ قال: سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خَطْماً كخطم الكلب، فإذا ذَكَرَ الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه. فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة. وروي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال ـ وقد كبِر سِنه ـ: ما أمِنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل. ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفِيٍّ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت.

[٦] ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أخبر أن الموسوِس قد يكون من الناس. قال الحسن: هما شيطانان؛ أمّا شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة: إن من الجنّ شياطينَ، وإن من الإنس شياطين؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ. وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أوَ مِن الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وكذلِك جعلنا لِكل نبي عدواً شياطِين الإنسِ والجِن﴾[1] . . . الآية. وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن. سموا ناساً كما سموا رجالاً في قوله: ﴿وأنه كانَ رِجال مِن

(١) آية ١١٢ سورة الأنعام.

الإنس يعوذون بِرِجالٍ مِن الجِن﴾[(١)] ـ وقوماً ونفراً[(٢)]. فعلى هذا يكون ﴿والناسِ﴾ عطفاً على ﴿الجِنةِ﴾، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين. وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث: جاء قوم من الجن فوقفوا. فقيل: مَن أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن. وهو معنى قول الفرّاء. وقيل: الوسواس هو الشيطان. وقوله: ﴿مِن الجنةِ﴾ بيان أنه من الجن ﴿والناسِ﴾ معطوف على الوسواس. والمعنى: قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس، الذي هو من الجِنة، ومن شر الناس. فعلى هذا أُمِر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن. والجِنَّة: جمع جِنِّي؛ كما يقال: إنس وإنسيّ. والهاء لتأنيث الجماعة. وقيل: إن إبليس يوسوس في صدور الجن، كما يوسوس في صدور الناس. فعلى هذا يكون ﴿في صدور الناس﴾ عاماً في الجميع. و ﴿من الجِنة والناس﴾ بيان لما يوسوس في صدره. وقيل: معنى ﴿مِن شر الوسواسِ﴾ أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، وهو حديث النفس. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به». رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم. فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك.

---

(١) آية ٦ سورة الجن.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن...﴾ آية ٢٩ سورة الأحقاف.

فهرس الجزء العشرين

تفسير سورة الطارق

تفسير سورة الأعلى

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

تفسير سورة الشمس

تفسير سورة الليل

تفسير سورة الضحى

تفسير سورة ألم نشرح

تفسير سورة والتين

تفسير سورة العلق

تفسير سورة القدر

تفسير سورة لم يكن

تفسير سورة الزلزلة

تفسير سورة والعاديات

تفسير سورة القارعة

تفسير سورة التكاثر

تفسير سورة والعصر

تفسير سورة الهمزة

تفسير سورة الفيل

تفسير سورة قريش

تفسير سورة الماعون

تفسير سورة الكوثر

تفسير سورة الكافرون

تفسير سورة النصر

تفسير سورة تبت

تفسير سورة الإخلاص

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

□□□